

مُعَيِّنُ الْخُطَبَاءِ

مُعَيِّنُ الْخُطْبَاءِ

مُحَاضِرَاتٌ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْأَخْلَاقِ

تَأليف

الشيخ كاظم آل بهاء

الجزء الثاني

مركز الدراسات التخصصية في النهضة الحسينية
التابع لقسم الشؤون الفكرية في العتبة الحسينية المقدسة

معين الخطباء
محاضرات في العقيدة والأخلاق
الجزء الثاني

تأليف
الشيخ كاظم البهادلي

المطبعة
الصنوبر

الإخراج والمتابعة الفنية
علي حسين مطر



٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ

الطبعة الأولى

٣٠٠٠ نسخة

إصدار
مركز الدراسات التخصصية
في النهضة الحسينية

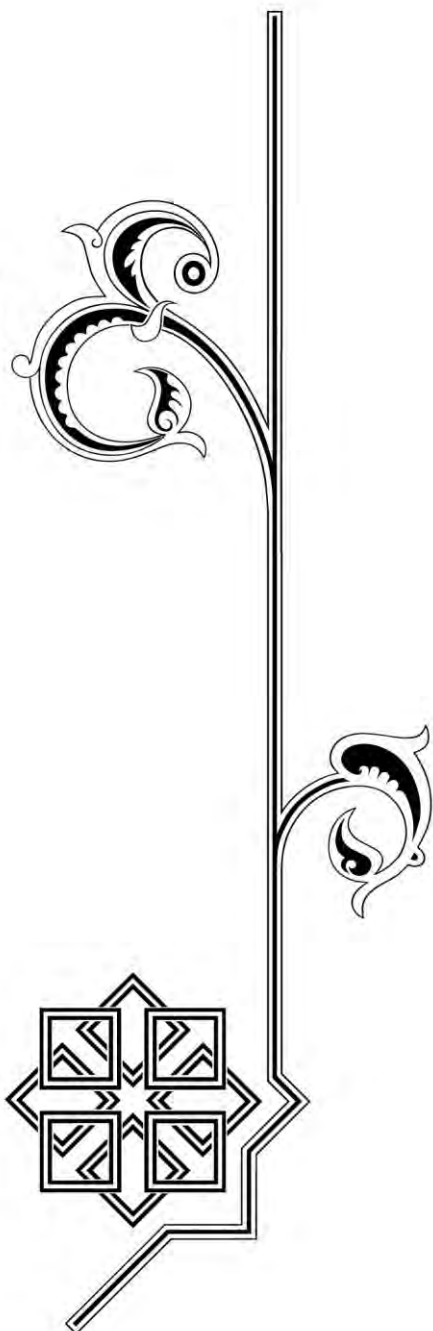
www.markazadersat.net
info@markazadersat.net



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي أكرمنا بسيد أنبيائه وأشرف
أصفيائه محمد، والنجباء من عترته وأوصيائه، حجج الله
في أرضه وسماؤه، صلوات الله عليه وعليهم ما استنارت
بحبهم قلوب أحبائه، وانشرحت بولائهم صدور أوليائه.
وبعد، هذا هو الجزء الثاني من كتابي (معين الخطباء).

الحاضرة الأولى

التوبة



يا قتيلاً أصبحت دأر العلى
ما حسبنا أن نرى من بعده
لا خطت بعدك فرسان ولا
ما نعتك الخلق لكن قد نعت
بأبي المقتول عطشاناً وفي
بأبي العاري ثلاثاً بالعري
وإذا عاينت أهليه ترى نُوباً
من أسير وسدته البزل حلساً
وبنفسى من غدت نادبة
جدّلو تنظرنا إذ قَرَّبوا
لرأت عيناك خطباً فادحاً
بعده قفرى وربع الجود محلاً
للتقى مغنى وللجود محلاً
جرد الشجعان يوم الروع نصلاً
فيك إحساناً ومعروفاً وبذلاً
كفه بحر يروى الخلق جملاً
ولقد كان لأهل الأرض ظلاً
فيه رزايا الخلق تُسلى
وقتل وسدته اليد رملاً
جدّها والدمع في الخد استهلاً
نحنونا للسير أنقاضاً وهزلاً
جل أن يلقى له الناظر مثلاً^(١)

(١) القصيدة للحاج هاشم الكعبي^(١)، قال عنه في أدب الطفّ (ج٦، ص ٢١٨، ص ٢١٩): «الحاج هاشم بن الحاج حردان الكعبي الدورقي. ولد ونشأ في (الدورق) - مسكن عشائر كعب في الأهواز - ثم سكن كربلاء والنجف، توفي سنة ١٢٢١هـ. الكعبي نسبة إلى قبيلة كعب العربية التي تسكن الأهواز ونواحيها، من فحول الشعراء وفي طليعتهم، ونظم في رثاء أهل البيت^(٢) فأكثر وأبدع وأجاد، واحتج وبرهن وأحسن وأتقن، وكل شعره من الطبقة الممتازة.

تحفظ الخطباء شعره وترويه في مجالس العزاء وتشنف به الأسماع. له ديوان أكثره في الأئمة^(٣)... وشعره يعاد ويكرر في محافل سيد الشهداء، ويحفظه المئات من رجال المنبر الحسيني، وهو مقبول مستلم، بل نجد الكثير يطلب تلاوته وتكراره وكان عليه مسحة قبول، وهذا ديوانه الذي يضم بين دفتيه عشرين قصيدة حسينية أو أكثر، لقد طُبِع وأعيدت طبعاته والطلب يتزايد عليه، فهذه رائعته التي عدد فيها مواقف الإمام أمير المؤمنين^(٤) البطولية تهتز لها القلوب وتدفع بالجناء ليكونوا شجعاناً، وتهض بهمهمهم ليصبحوا فرساناً، وهي تزيد على ١٥٠ بيتاً».

هذا لسان حال العقيلة زينب عليها السلام مع جدّها الرسول صلّى الله عليه وآله. أمّا لسان حال الموالين مع بعضهم البعض في مثل هذه الليلة كما يصفه الشاعر:

(بحراني)

إلبس اثياب السود واهمل دمعة العين
هَلّ الهلال البیه راح ابكريله احسين
هَلّ الهلال وبیه مرتسمه الحمرة
من دم أبو السّجاد يوم اّطعوا نحره
اّصد الماتم بالبکی اوساعد الزهره
اوکثر یهل ترجه الشفاعة اهنالك الونین
هل يوم یحضر ماتم المظلوم جدّه
یسمع الناعي لونه اویبچی الفگده
ویصیح آیینی البگه معفور خدّه
فوك التراب وچبدته امن العطش نصین
یحسین ما تبرد الجمره ابصبّ الدموع
لیل اونهار اّنحب اوگلبی اعلیک موجوع
یحسین خیل الرضرت صدرك والضلوع
رضّت اضلوعي ریت دونک بالمیادین

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(١).

عرّف العلماء التوبة بأنها: الرجوع من الذنب القولي والفعلي، أو هي ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها مستقبلاً، وتدارك ما سبق من التقصير. وهي ضد الإصرار^(٢).

وتورّط الإنسان في معصية الله تبارك وتعالى نوع من أنواع الضعف؛ لأنّ الذنب دليل الضعف والقصور، فمثلاً شخصان يعيشان في جوٍّ واحدٍ، وهما أخوان من أب وأمٍّ، ويعيشان في بيتٍ واحدٍ، ولكن أحدهما يعاني من الضعف فيتورّط في المعصية؛ لأنّ إيمانه ضعيف، والآخر عنده مناعة تجاه المعصية وإيمانه قويّ فلا يتورّط بها.

ومن يُذنب فإنّ له أحد موقفين: موقف الإصرار وتكرار الذنب، وموقف آخر هو موقف العودة والتوبة. قد يذنب الإنسان يوماً، ولكنه يعود ويتنزع نفسه من مخالب المعصية.

ومن هنا كان على الإنسان اتّخاذ الموقف الثاني، وهو موقف العودة والتوبة والندم والاستغفار، وهكذا يصنع كلّما أذنب، حتّى لو تكررت منه المعصية، عليه أن يعود ويستغفر، ويسأل الله تبارك وتعالى العون والمساعدة على اجتناب المعاصي.

روي أنّه قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله إنّني أذنبت، فقال: «استغفر الله. فقال: إنّني أتوب ثمّ أعود. فقال: كلّما أذنبت استغفر الله. فقال: إذن، تكثر ذنوبي، فقال: عفو الله أكثر، فلا تزال تتوب حتّى يكون الشيطان هو المدحور»^(٣).

ولكن على الإنسان المؤمن أن لا يؤخّر التوبة؛ فإنّ تأخير التوبة اغترار كما روي عن

(١) التحريم: آية ٨.

(٢) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ٢٦٨.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٨١، باب تجديد التوبة، ح ٥.

صديق العترة الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين^(١).

ثم لو تأملنا في الآية نجد أنها تأمر الذين آمنوا، حيث قالت: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...﴾.

فهل هذا الأمر محمولٌ على وجوب التوبة، أم محمولٌ على استحبابها وندبها؟
الجواب: إنَّ التوبة واجبة بالإجماع بين المسلمين، وهي واجبة سواء كانت من الذنوب الكبيرة أم من الذنوب الصغيرة، بلا فرق في ذلك.

ويمكن الاستدلال على وجوبها بما يأتي:

أولاً: الدليل القرآني، وهو عبارة عن مجموعة من الآيات الشريفة، كقوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَن تَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾^(٣)، مضافاً للآية التي صدرنا بها المحاضرة.

ثانياً: الدليل الروائي، فقد روي عن إمامنا الرضا عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله ﷺ اعترفوا بنعم الله، وتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم...»^(٤).

ثالثاً: الدليل العقلي، وهو ما ذكر في عدة كتب، منها: الباب الحادي عشر، حيث قال الشارح: «أو هي [التوبة] واجبة لوجوب الندم إجماعاً على كل قبيح وإخلال بواجب... لكونها دافعة للضرر، ودفع الضرر - وإن كان مظنوناً - واجب، فيندم على القبيح...»^(٥). وعليه فالإجماع مع الأدلة الشرعية والعقلية قائمٌ على وجوب التوبة^(٦).

(١) أنظر: كتر الفوائد: ص ١٩٥.

(٢) النور: آية ٣١.

(٣) هود: آية ٣.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٨، ص ١٥٣.

(٥) شرح الباب الحادي عشر: ص ٩٣.

(٦) في رحاب التوبة: ص ٤١ - ص ٤٥.

ثم الآية قالت: (نصوحاً)، فما معنى نصوح؟

وردت هذه الكلمة في التفاسير، وكانت مورد بحث واهتمام المفسرين، والذي كادوا أن يتفقوا عليه هو أن المراد من التوبة النصوح: التوبة بإخلاص.
وأما كيف أن الإنسان يحصل على التوبة النصوح؟ أي كيف يُحقّق هذا الأمر وهو التوبة النصوح؟ فهذا هو المهم وهذا هو المطلوب.

ولعلّ ذلك يتحقق بما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أن قائلاً قال بحضرة عليه السلام: استغفر الله، فقال له: «ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ، أولها: الندم على ما مضى. الثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله سبحانه أملس ليس عليك تبعة. الرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها. والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت، فتذيه بالأحزان حتّى تلتصق الجلد بالعظم وينشأ بينها لحم جديد. والسادس: أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية؛ فعند ذلك تقول استغفر الله»^(١).

فيتّضح من خلال هذا الحديث الشريف الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام شروط التوبة النصوح، فإذا حقّقها الإنسان بإخلاص، فقد أدّى وامثل الأمر بوجوب التوبة النصوح وعُدّ تائباً نصوحاً، وإلاّ فلا. ويمكن تفصيل الشروط المتقدّمة كالتالي:

أولها: الندم على ما مضى، كما عبّر الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاته: «إلهي إن كان الندم على الذنب توبة، فإنّي وعزتك من النادمين»^(٢).

ثانيها: العزم على ترك العود إليه أبداً، بأن يتعهد أن لا يعود إلى ما ارتكبه سابقاً.

(١) نهج البلاغة - قصار الحكم -: الرقم ٤١٢.

(٢) الصحيفة السجادية (مناجاة التائبين): ص ٤٠٢.

وثالثها: أن يؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم بأن لا يترك حقاً من حقوق الناس عليه، سواء كانت مادية أم غيرها من غيبة أو غير ذلك حتى يأتي يوم القيامة أملس ليس عليه تبعة للآخرين.

ورابعها: أن يعتمد إلى كل فريضة عليه ضيّعها فيؤدّي حقّها، من صلاة أو صوم أو حجّ، إلى غير ذلك ممّا في ذمته.

وخامسها: أن يعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فيذّيه بالأحزان، بأن يسهر ليله ويظمأ في نهاره إلى أن يذيب ذلك اللحم الذي نشأ على لقمة الحرام.

وسادسها: أن يذيق الجسم ألم الطاعة كما أذاقه حلاوة المعصية. فالإنسان المذنب كما استأنس بالمعصية وحلاوتها سابقاً يأتي الآن ليذيق الجسم والروح آلام الطاعات، بأن يُتعب نفسه في العبادات والطاعات والصبر عليها.

فإذا تمّت هذه الشروط الست عندئذ يتمكن الإنسان أن يقول: أستغفر الله، ويكون قد حقّق التوبة التي أرادها الله تبارك وتعالى.

فإذا حقّق الإنسان ذلك سوف تترتب ثمرات ونتائج مهمّة، أشارت الآية المباركة إلى بعضها، وتركت البعض الآخر لتشير إليه آيات أخرى، بالإضافة إلى الأحاديث الواردة عن المعصومين (عليهم السلام).

وأما الثمرات المترتبة على التوبة النصوح في هذه الآية، فهي:

الأولى: تكفير السيئات؛ إذ قالت الآية: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾.

الثانية: دخول الجنات، حيث صرّحت الآية: ﴿وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وهناك ثمرات ونتائج أخرى قد تناولتها بعض الآيات الكريمة والروايات الشريفة.

منها: تبديل السيئات بالحسنات، أشارت إليه الآية المباركة: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾.

وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴿١﴾.

ومنها: حبُّ الله لهم؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ ﴿٢﴾.

ومنها: نزول الرحمة على التائب، وقد أشار إلى ذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«التوبة تستنزل الرحمة» ﴿٣﴾.

ومنها: طهارة القلب، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «التوبة تطهر القلوب، وتغسل

الذنوب» ﴿٤﴾. إلى غير ذلك من الثمرات والتائج الدنيوية والأخروية.

ولا فرق حيثُذ بين أن يتوب الإنسان قبل سنة من موته، وبين توبته حينما تظهر علامات الموت؛ لما ورد عن النبي الأكرم صلَّى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ تاب إلى الله قبل موته بسنة تاب الله عليه، ثُمَّ قال: أَلَا وَسْنة كثير، مَنْ تاب إلى الله قبل موته بشهر تاب الله عليه، وقال: شهر كثير، مَنْ تاب إلى الله قبل موته بجمعة تاب الله عليه، قال: وجمعة كثير، مَنْ تاب إلى الله قبل موته بيوم تاب الله عليه، قال: ويوم كثير، مَنْ تاب إلى الله قبل موته بساعة تاب الله عليه، ثُمَّ قال: وساعة كثير، مَنْ تاب إلى الله قبل أن يغرغر بالموت تاب الله عليه» ﴿٥﴾.

المهم أنَّ الإنسان يخلص في توبته إلى الله تبارك وتعالى، ويخرج من الدنيا وهو نادم على ما عمله من أعمال لم تُرضِ الله تبارك وتعالى.

ومصادق التائب توبةً نصوحاً، النادم قبل أن تغرغر روحه بالموت، الحرَّ بن يزيد الرياحي يوم جمع جعفر بالحسين عليه السلام في ألف فارسٍ ليحبسه عن الرجوع، حينها استقبلهم الإمام الحسين عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إِنَّمَا مَعْدَرَةٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَيْكُمْ،

(١) الفرقان: آية ٧٠.

(٢) البقرة: آية ٢٢٢.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٣. مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ١٢٩.

(٤) مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ١٢٩.

(٥) الكافي: ج ٢، ص ٤٤٠، ح ٢، وفيه: (قبل أن يعاين الموت).

وإني لم آتكم حتى أتناي كتبكم وقدمت بها عليّ رسلكم: أن أقدم علينا فإن ليس لنا إمام، ولعلّ الله يجمعنا بك على الهدى. فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فأعطوني ما أطمئن به من عهدكم ومواثيقكم».

فقال الحرّ: ما أدري ما هذه الكتب التي تذكرها؟ فأمر الحسين عقبة بن سمعان، فأخرج خرجين مملوءين كتباً، وهي كتب أهل الكوفة تشكو للحسين ظلم يزيد، ويدعونه للقدوم عليهم ليكون إمامهم.

ولم يقتنع الحرّ بكلّ هذا الكلام، وصمّم على قطع المسير على أبي عبد الله عليه السلام، إلى أن وصل يوم عاشوراء، ورأى القوم مُصرّين على قتال الحسين عليه السلام، حيثُ قال لعمر بن سعد: أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: إي والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس، وتطيح الأيدي. فأخذ الحرّ يقول: إني أخير نفسي بين الجنة والنار، فوالله، لا أختار على الجنة شيئاً، ولو قُطعت وحُرقت، ثمّ ضرب فرسه، فلاحق بالحسين، وجاز على عسكر ابن سعد واضعاً يده على رأسه، وهو يقول: اللهمّ إليك أنبتُ فتب عليّ، فقد أرعبت قلوب أوليائك، وأولاد نبيّك، ثمّ قال للحسين عليه السلام: جُعلت فداك أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسأيرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، وما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم، وأنا تائب إلى الله ممّا صنعت، فهل ترى لي من توبة؟ فقال له الحسين عليه السلام: «نعم يتوب الله عليك»^(١).

وعندما رمى ابن سعد سهماً نحو مخيم الحسين عليه السلام وصاح: اشهدوا لي عند الأمير إني أول من رمى. فرمى أصحابه كلّهم، فلم يبقَ من أصحاب الحسين أحد إلاّ أصابه سهمٌ من سهامهم، فقال الحسين عليه السلام لأصحابه: «قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بدّ منه، فإنّ هذه السهام رُسل القوم إليكم... فقال له الحرّ: يا بن رسول الله، كنت أوّل خارج

(١) مشير الأحزان: ص ٤٤.

عليك فأذن لي لأكون أول قتيل بين يديك، وأول من يصافح جدك غداً»^(١).

فأذن له الحسين عليه السلام، فتقدم وهو يقول:

إني أنا الحرّ وماوى الضيفِ أضرب في أعناقكم بالسيفِ

عن خير من حلّ بأرض الخيفِ

فقاتل قتالاً شديداً حتى قتل أكثر من أربعين فارساً وراجلاً، وبعدما عُقر فرسه، بقي يُقاتل راجلاً، فحملت عليه الرّجالة وتكاثروا عليه حتى قتلوه، فاحتمله أصحاب الحسين ووضعوه بين يديه، فجعل الحسين يمسح وجهه ويقول: «أنت الحرّ كما سمتك أمك، وأنت الحرّ في الدنيا والآخرة»^(٢).

هُوَ او جَاه او وَكَف يَمَّه الْمَشْكُر وشافه اعلى الثره مرمي امعفر

مسح وجهه وگله أنت صدگ حرّ ورد المركزه والدمع مشور

لكن لو سألتني عن بُعد قبر الحرّ عن سائر الشهداء، لأجبتك: إنّ السبب في ذلك أنّ الحرّ لم يُقطع رأسه كما قُطعت رؤوس أصحاب الحسين عليهم السلام، بل حملته عشيرته عندما أمر ابن سعد بفصل الرؤوس عن الأجساد، قامت بنو رياح وقالت: والله، لا يُقطع رأس زعيمنا وأيدينا على قوائم سيوفنا، فقال ابن سعد: احملوا جسد شيخكم، فحملته عشيرته ودفنوه في هذا المكان.

هذا وزينب واقفة تنظر إلى الحرّ وقد حملته عشيرته، والحسين عليه السلام ملقى على وجه الأرض، وكأني بها تنادي: وا حسينا، وا غريبا^(٣).

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٣.

(٢) ثمرات الأعواد: ج ١، ص ١٨٤ - ص ١٨٨.

(٣) مجمع مصائب أهل البيت عليهم السلام: ج ١، ص ١٢٥ - ص ١٢٧.

العشيرہ شالتہ ابحر الظہیرہ	الکَلّ منهم علیہ شالتہ الغیرہ
بس ظلّوا الماعدہم عشیرہ	ضحایہ بالشمس من غیر تغسیل
واللہ العشیرہ اشلون تنفع	منہا یطیح اعلیہ تفزع
او حالاً علی الروس ایتشیّع	وانہ اخوتی وین المشعشع
کَلّ منهم اعلی الثری موزع	جسمہ وچتل حتّی الرضّع

وبلا دفن خلّوہم اجمع

(أبوذیة)

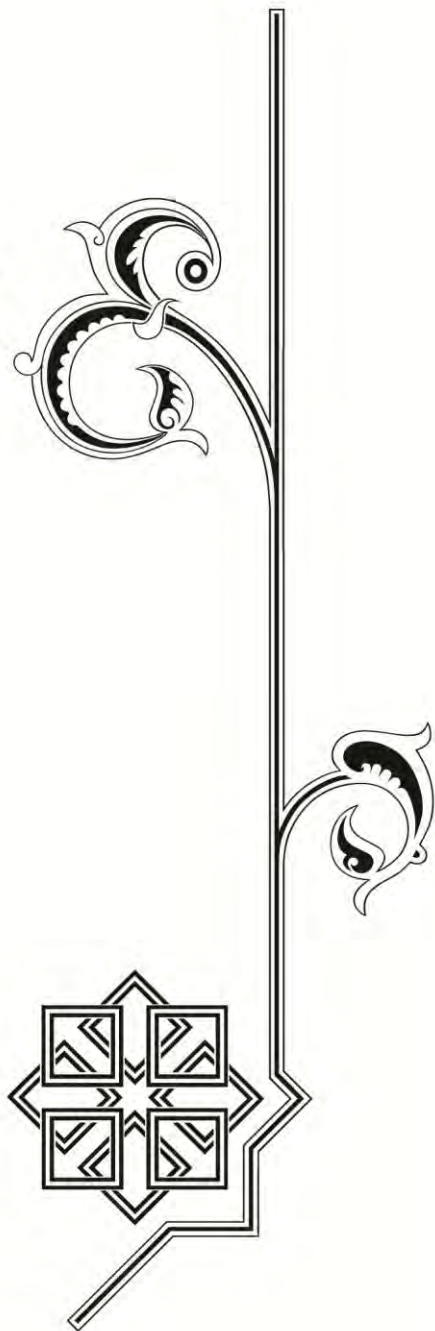
یحادی لا تسج بالظعن بیّداي	دلیلی الفگد أبو السجّاد بیّداي
ریّض خل اغسل احسین بیّداي	وادفنه لا یظل جسمہ رمیّہ

لیس الغریب غریب الأهل والوطن	بل الغریب غریب الغسل والكفن
------------------------------	-----------------------------

إنا لله وإنا إلیه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلیّ العظیم،
وسیعلم الذین ظلموا آل مُحَمَّدٍ أیّ مُنْقَلَبٍ ینقلبون
والعاقبة للمتّقین.

المحاضرة الثانية

التَّقْوَى



لست أنساه مفرداً بين جمع
يحطم الجيش رابط الجأش حتى
لم يزل يحصد الرؤوس بعصب
وإذا بالنداء عجل فلبى
عجباً للسماء لم تهو حزناً
عجباً للمهاد كيف استقرت
عجباً للنجوم كيف استنارت
حيث لولا وجوده لأهملت
ومثير الأشجان رزء الأيامي
برزت للقاء تعثر في الدليل
فرأت سرجه خلياً فنادت
وغدت وهماً بغير شعور
فرأت في الصعيد ملقى حماها
فدعت والعيون عبرى وفي
أحمى الضايعات بعدك ضعنا
أو ما تنظر الفواطم في الأسر
تُكلاً ما ترى لها من كفيل
ثم تدعو فما ترى من مجيب

أبرزوا فيه كامن الأحقاد
صبغ الأرض من دماء الأعادي
أبدأ للدماء في الحرب صادي
وهوى للسجود فوق الوهاد
فوق وجه البسيط بعد العماد
ونظام الوجود تحت العوادي
لم تغب بعد نورها الوقاد
ولساخت وبرقعت بسواد
مذ وعت بالصهيل صوت الجواد
ودامي الدموع شبه الغوادي
تلك وا والدي وذى واعمادي
نحو مشوى بقيّة الأجماد
هشمت صدره خيول الأعادي
القلب لهيب من الأسى ذو اتقاد
في يد النائبات حسرى بوادي
وستر الوجوه منها الأيادي
حسراً بين عصبة الإلحاد
لنداها غير الصدى في الوادي^(١)

(١) القصيدة للشيخ عبد الحسين شكر الله، قال عنه السيد جواد شبر الله في (أدب الطف): ج٧، ص ١٨٧.

ص ١٨٨): «الشيخ عبد الحسين بن الشيخ أحمد بن شكر النجفي بن الشيخ أحمد بن الحسن بن محمد بن شكر الجبائي النجفي. توفي بطهران سنة ١٢٨٥، وكان والده الشيخ أحمد من العلماء

تصيح بصوتها يحسين وينك جاو بني وصديّ ابعينك
يخويه ذاب غلبي من وينك يخويه ما هو غلبي صخر مرم

ناداها ابضعيف الصوت يختي مهو حچيچ كسر- غلبي اسكتي
ينور العين خليّني ابمهجتي أعالها ترى غلبي تمرمر

يخويه يابس امن العطش چيدي يخويه والشمس حرّغت خدي
يخويه والترابه احرّغت زندي دفيلي بطرف ثوبچ عن الحرّ

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾^(١).
التقوى معناها: أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك^(٢). أو بمعنى آخر:
هي الخشية والخوف من الله عزّ وجلّ، فهي أيضاً اتقاء ما يجزّ الإنسان إلى النار من خلال
امتنال أوامر الله واجتناب نواهيه، والتخلّي عن كلّ رذيلة، والتخلّي بكلّ فضيلة.

المصنّفين. رثى أهل البيت عليهم السلام بقصائد كثيرة تزيد على الخمسين، منها روضة مرتبة على
الحروف، وشعره يرويه رجال المنبر الحسيني في المحافل الحسينية، وقد تصدّى الخطيب الشهير
الشيخ محمد علي اليعقوبي لجمع ما نظمه الشاعر في أهل البيت عليهم السلام من القصائد والمقاطع من
مديح ورناء فنشره في كراسة تناهز المائة صفحة. وآل شكر أسرة قديمة من الأسر العربية
الشهيرة بالنجف عرفت باسم (شكر) أحد أجدادها الأقدمين وأصلهم من عرب الحجاز».

(١) النساء: آية ١٣١.

(٢) أنظر: بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٢٨٥، حيث فسّرها الإمام الصادق عليه السلام بهذا المضمون.

ومن هنا جعل النبي الأكرم ﷺ الكفَّ عن المحارم ثمرة الدين، وذلك عندما قال ﷺ: «جاءني حبيبي جبرئيل، وقال: يا أحمد، إنَّ مثلَ هذا الدين كمثَل شجرةٍ ثابتة، الإيمان أصلها، والصلاة عروقتها، والزكاة ماؤها، والصوم سعتها، وحسن الخلق ورقها، والكفَّ عن المحارم ثمرها، فلا تكمل الشجرة إلَّا بالثمر، كذلك الإيمان لا يكمل إلَّا بالكفَّ عن المحارم»^(١).

وروي أنَّ رجلاً استوصى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «... وقد أجمع الله ما يتواصى به المتواصون من الأولين والآخرين في خصلةٍ واحدةٍ وهي التقوى، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وفيه جماع كلِّ عبادةٍ صالحةٍ، وبه وصلَّ من وصلَّ إلى الدرجات العلى، والرتبة القصوى، وبه عاش مَنْ عاش بالحياة الطيبة والأُنس الدائم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ﴾»^(٢).

ثمَّ إنَّ المراد بالآية أنَّ الأمر بتقوى الله شريعة عامَّة لجميع الأمم لم يلحقها نسخ ولا تبديل، بل هو وصية الله في الأولين والآخرين^(٣).

فالوصية بتقوى الله أمر ضروري بحيث أكّدت الآية أنَّ اليهود والنصارى وكلَّ مَنْ كان له كتاب سماوي قبل المسلمين قد طُلب منهم جميعاً - كما طُلب منكم أيها المسلمون - مراعاة التقوى.

فهذه الآية على غرار بعض الآيات الأخرى التي تُشير إلى ثبوت بعض الأحكام في الشرائع السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص١٠٩.

(٢) تفسير البرهان: ج٢، ص٣٣٩.

(٣) التفسير الكبير: ج١١، ص٧٠.

عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾.

وللتقوى درجات متعددة تختلف باختلاف قوة الإنسان وضعفه، فنجد البعض من الناس له من التقوى ما يؤدي به إلى الاجتناب عن كل ما يلزم منه ويؤدي بصاحبه إلى الفساد، وتجد البعض منهم يجنب عن كل شبهة؛ لاحتمال وجود الفساد فيها. والبعض الآخر يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

وتجد البعض منهم يملك من مراتب التقوى الدرجات العليا، فيجتنب عن كل ما ليس لله تبارك وتعالى.

والله سبحانه وتعالى يُعطي من الأجر على قدر مرتبة التقوى عند الإنسان، فالتقوى التي يمتلكها بعض العلماء كالشيخ مرتضى الأنصاري رحمته الله - صاحب المصنّفات الدقيقة التي ربّت مئات العلماء، بل عشرات المئات - هي من النوع العالي، بل العالي جداً. في أحد الأيام جاءه رجلٌ وقال له: شيخنا، لقد رأيت البارحة في المنام عجباً! قال له الشيخ: ما رأيت؟

قال الرجل: لقد رأيت الشيطان وعلى رأسه قلنسوة ملونة بألوانٍ مختلفة، ورأيتُ بيده حبلاً غليظةً، وحبلاً دقيقةً، وسلاسل من حديد طويلة وقصيرة، ورأيت سلسلةً طويلة مقطّعة في سبع مواضع منها، فتقدّمت إليه، وقلت له: ما هذه الألوان التي تحملها معك؟ وما هذه الحبال والسلاسل التي بيدك؟

قال الشيطان: هذه هي مصائدني التي أصيد بها الناس، وأجرّهم بها إلى المهالك؛ فإنسان يأتيني باللون الأحمر، وآخر باللون الأخضر، وثالث باللون الأزرق، ورابع لا أتمكن أن أجرّه بالألوان، فأجرّه بالحبال الدقيقة، وآخرون بالحبال الغليظة، وآخرون من الزهاد والعُباد والعلماء بالسلاسل القصيرة والطويلة.

قال الرجل: فقلت له: فما هو اللون الذي تجلبني به؟ وأين الجبل الذي تسحبني

بسببه؟

فقال الشيطان: إنَّك وأمثالك لا تحتاجون إلى جبال، ولا إلى ألوان، وإنَّما أجلبكم

بإشارة خفيفة.

فسأله الرجل قائلاً: وما هذه السلسلة المقطّعة في مواضع متعددة منها؟

قال الشيطان: إنَّها سلسلة الشيخ مرتضى، فإنِّي قد جذبتُه ليلة البارحة سبع مرات بهذه السلسلة، وهي أغلظ سلاسل وأطولها، وفي كلّ مرة يقطع الشيخ السلسلة تقطيعاً، ويصرعني وينفلت من حباتي، والآن أنا آيس منه، ومتحير ماذا أصنع معه؟!

فلما انتهى ذلك الرجل من نقل منامه إلى الشيخ، تبسّم الشيخ وقال: الحمد لله ربّ العالمين. ثمّ قال الشيخ: نعم، لقد كان من قصّتي البارحة: أنّ زوجتي أخذها الطلق وألم المخاض والولادة، ولم يكن عندنا في البيت شيء يُكتفى به لأجل هذا الأمر، ففكرت ماذا أصنع في أمرها؟

فتذكّرت بأنّ هناك أمانة كانت لأحد الناس قد أودعها عندي، ويمكنني التصرّف فيها بالفحوى - فإنّه وإن لم يصرّح لي بالإذن في التصرّف فيها إذناً صريحاً، لكنّ ظاهر حاله أنّه يأذن لي إذناً فحوائياً بالتصرّف فيها - ثمّ إرجاعها بعد الوسع إلى مكانها، ومن جهة ثانية كنت مضطراً إلى الاستفادة منها.

وعلى ذلك عزمّت على التصرّف في المال وقمت لأخذه حتّى أنصرفت فيه، لكنّي رجعت وقلْتُ: لعلّ الله يُيسّر الولادة بدون حاجة إلى التصرّف في هذا المال، ثمّ بعد مدّة عاودتني الفكرة من جديد، فعزمّت ثانية على التصرّف في المال، لكنّي رجعت أيضاً دون أن آخذ المال، وفي مرّة ثالثة عاودتني الفكرة وعزمّت من جديد على أخذ المال والتصرّف فيه، لكنّي رجعت للمرّة الثالثة وانصرفت عن عزمي، وهكذا تردّدت إلى سبع مرات.

ثُمَّ عَزَمْتَ أَحْيَرًا عَلَى غَضِّ النَّظَرِ عَنِ الْمَالِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنِ التَّصَرُّفِ فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْفَجْرِ سَهَّلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْمَرْأَةِ أَمْرَ الْوِلَادَةِ، فَوَلَدَتْ بِسَلَامَةٍ وَعَافِيَةٍ مِنْ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى أَنْ آخِذٌ مِنَ الْمَالِ شَيْئًا.

فهذا نوع من أنواع التقوى، لكن من أعلى مراتبها وأنواعها، وهو ترك ما لا بأس به خوفاً من الانجرار إلى ما به البأس، ولذا ترى أَنَّ الْبَارِيَّ عَزَّ وَجَلَّ رَتَّبَ نَتَائِجَ عَلَى التَّقْوَى، مِنْهَا:

أولاً: المخرج والرزق من دون احتساب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١).

ثانياً: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجْعَلُ لِلْإِنْسَانِ الْمُتَّقِي فُرْقَانًا؛ إِذْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾^(٢)، والفرقان على ما جاء في كلام المفسرين هو الشيء الذي يفصل بين الحق والباطل^(٣).

ثالثاً: العز والهيبة حسبما جاء في كلام مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلَا عَشِيرَةٍ، وَهَيْبَةً بِلَا سُلْطَانٍ، فَلْيَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ»^(٤).

رابعاً: تعليم الله للمتقين وإلهامه لهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(٥).

خامساً: إتيان الله لصاحبها الرحمة والنور، قال تبارك وتعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾^(٦).

(١) الطلاق: آية ٢ - آية ٣.

(٢) الأنفال: آية ٢٩.

(٣) أنظر: تفسير الأمثل: ج ٥، ص ٤٠٥.

(٤) ورد بألفاظ أخرى. أنظر: خصائص الأئمة: ص ٩٩. بحار الأنوار: ج ٤، ص ١٣٩. وغيرهما.

(٥) البقرة: آية ٢٨٢.

(٦) الحديد: آية ٢٨.

والعلم في الآية المتقدمة في المورد الرابع هو نفسه النور في هذه الآية. وأمّا الشرط فنفسه، وهو التقوى.

والناس المتّقون لا يختلف عندهم الحال سواء في السراء أم الضراء؛ لذا لما صار الظهر من يوم عاشوراء، ولم يبقَ من أصحاب الحسين (عليه السلام) إلا القليل وبقية أهل بيته، التفت إليه ذلك العبد الصالح (أبو ثمامة الصيداوي) المتقي المحبّ لله ولرسوله ولإمامه، أنظر ماذا يريد في التفاتته هذه، قال: يا بن رسول الله، إنّ العدو قد اقترب منك، وإنّك لا تُقتل حتّى تُقتل دونك، وأحبُّ أن أصلي معك هذه الصلاة، وقد دنا وقتها، فرفع الحسين طرفه نحو السماء ونظر إلى الشمس وقد زالت، فقال (عليه السلام): ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلّين الذاكرين. نعم، هذا أول وقتها، فاسألوهم أن يكفّوا عنا حتّى نصلي، فرفض العدو.

وصاح الشمر (لعنة الله عليه): يا حسين، إنّها لا تُقبل. فقال له حبيب: أزعمت لا تقبل صلاة ابن رسول الله، وتقبل صلاتك؟! فوقف الحسين (عليه السلام) يُصلي صلاة الظهر بعد أن وقف رجلان من أصحابه أمامه، مواجهين للعدو؛ ليدرأوا السهام عنه، لأنّ العدو ما كف عن رشق الحسين بالسهام، فوقف سعيد بن عبد الله الحنفي (رضوان الله عليه) أمام الحسين (عليه السلام) يتلقّى السهام ب صدره وينحره إلى أن صلب الحسين (عليه السلام)، فلمّا فرغ (عليه السلام) من الصلاة سقط سعيد بن عبد الله إلى الأرض، وفيه ثلاثة عشر سهماً، وهو يجود بنفسه، فقال للحسين (عليه السلام): سيدي أوفيتُ يا بن رسول الله؟! فقال الإمام الحسين (عليه السلام): نعم أنت أمامي في الجَنَّة، اقرأ جدي رسول الله عني السلام، وقل له: إنّني تركت الحسين وحيداً فريداً.

قد صلب الإمام الحسين (عليه السلام) صلاة الخوف بأهل بيته وبمَن بقي من أصحابه، ولكن هل صلب صلاة المغرب والعشاء؟ نعم صلاها في أول وقتها، وطالت صلاته، ولكن على وجه الأرض، خدّه على وسادة التراب.

اختلف العسكر في حالة الحسين هل هو حيّ أم ميت؟ لأنّه لا حراك فيه، فيخافون أن يدنوا منه، فصاح عمر بن سعد (لعنة الله): إذا أردتم أن تعرفوا حال الحسين هل هو

حيّ أم ميّت فاهجموا على نسائه وعياله؛ لأنّه إذا سمع صراخ الأطفال لا يتمالك نفسه،
فهجم الجيش نحو مخيم الحسين، خرجت زينب عليها السلام وقفت على التل وصاحت: نور
عيني يا حسين، يا بن أمّي يا حسين، عزيزي يا حسين، إن كنت حيّاً فأدركنّا، فهذه الخيل
قد هجمت علينا، وإن كنت ميتاً فأمرّك وأمرنا إلى الله.

ما هي إلاّ ساعات وإذا بها تنظر إلى رأس أخيها الحسين عليه السلام على رمح طويل،
صاحت وأخاه وا حسيناه.

لَمَنْ شَافَتْهُ صَفْغَتْ بِدِيهَا	وَشَگَتْ ثَوْبَهَا وَيْلِي عَلَيْهَا
مَا تَنَلَّامُ مِنْ شَافَتْ وَلِيهَا	فَوَكَ الرَّمْحَ رَاسَهُ اِيْلُوحَ بِالْبَرِّ
سَالَتْ عَيْنَهَا بِدُمُوعِهَا عَلَيْهِ	وَشَالَتْ رَاسَهَا وَتَلَفَّتَتْ لِيهِ
خَفْگَ وَيْلِي گَلْبَهَا وَأَوَمَتْ عَلَيْهِ	وَصَاحَتْ بِأَجِيهِ اِبْصُوتِ الْمَذْعَرِ
يَشَايِلُ رَاسَ حَامِيْنِهِ وَوَلِيْنِهِ	رِيّضَ خَلِّي تُوْدَعُهُ اِسْكِيْنِهِ
لَيْشَ اِحْسِيْنٍ سَاكَتْ عَنْ وَنِيْنِهِ	گَلِي تَعَبَ يُوْجِرْحُهُ تَحْدَرِّ
يَا شِيَالِ نَعَشِ الْمَاتِ مَظْلُومِ	عَلَهُ الشَّاطِي وَعَنْ الْمَآيِ مُحْرُومِ
تَحُومُ گَلُوبْنَا فَوَكَ النِّعْشَ حُومِ	أَخُوِي الطَّاحِ مِثْلَ النِّجْمِ مِنْ خَرِّ

(تغريد الحزين)

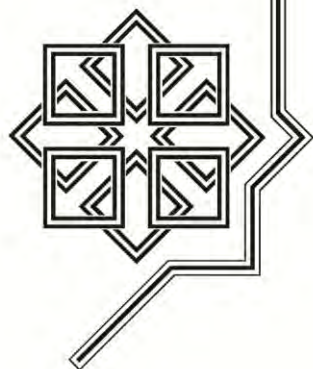
إِنْعَمْتَ عَيْنِي وَلَا شَوْفَكَ	ذَبِيحَ وَيْجَرِي دَمَ نَحْرِكَ
وَأَصْحَابُكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ	ضَحَايِهِ مَطْرَحَهُ اِبْكَرَكَ
عَسَاها اَتَعْگَرَتْ هَلْخَيْلَ	وَلَا دَاسَتْ عَلَى صَدْرِكَ

بعد الذبح يا خويه داسوك ولا راعوا العد جدك ولا بوك
چنت ذخري وتحت الخيل خلوك
فلو علمت تلك الخيول كأهلها بأن الذي تحت السنايك أحمد
لشارت على فرسانها وتمردت عليهم كما ثاروا بها وتمردوا

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أي منقلب ينقلبون
والعاقبة للمتقين.

الحاضرة الثالثة

الاستغفار وآثاره



لم أنس زينبَ بعد الخدر حاسرةً
مسجورة القلبِ إلا أن أعينها
تدعو أباهَا أميرَ المؤمنين ألا
وغاب عنا المُحامي والكفيلُ فَمَن
إن عسعسَ الليلُ وارى بذلَ أوجِهنَا
ندعو فلا أحدٌ يصبو لدعوتِنَا
فُم يا عليُّ فما هذا القعودُ وما
وتشني تارة تدعو عشيرتَهَا
قُوموا غضاباً من الأجداثِ وانتدبوا
ويل الفراتِ أباد الله غامرَه
لم يُطفِ حَرَّ غليلِ السبطِ باردُه
لم يُذبح الكبشُ حتَّى يروَ من ظمًا

تُبدي النياحةَ الحاناً فألحاناً
كالمعصراتِ تصبُّ الدمعَ عقيانا
يا والدي حكمت فينا رعاينا
يحمي حمانا ومَن يؤوي يتامانا
وإن تنفَّسَ وجهُ الصُّبحِ أبدانا
وإن شكونا فلا يُصغي لشكوانا
عهدي تغضُّ على الأقداء أجفانا
من شيةِ الحمدِ أشياخاً وشُبَّانا
واستنقذوا من يد البلوى بقاينا
وردَّ واردهَ بالرغمِ لهفانا
حتَّى قضى - في سبيلِ الله عطشانا
ويُذبحُ ابنُ رسولِ الله ضَمَاناً^(١)

يُجديَّ گوم شوف احسين مذبوح
يُجديَّ من الطبر ما بگت بيه روح
يُجدي الرمح بفاده تشّه
يُجدي الخيل صدره رضر ضنّه

على الشاطي وعلى التربان مطروح
يُجديَّ من العطش گلبه تفتّطر
يُجدي بالوجه للسيف رنّه
ولا مفصل بجسمه عيب مهشوم

(١) القصيدة لشاعر أهل البيت عليه السلام الحاج محمد علي آل كَمُونه، كما جاء في رياض المدح والثناء (ص ٦٤٨ - ص ٦٤٩) قال عنه الزركلي: «محمد علي بن محمد بن عيسى الأسدي الحائري، من آل كَمُونه: شاعر، من أعيان كربلاء، وبها وفاته. جمع شعره بعض حفدته في ديوان كبير سمّاه (الآلِي المكنونة في منظومات ابن كَمُونه) وتلف هذا الديوان، فجمع محمد السماوي ما بقي من نظمه متفرقاً في (ديوان - ط) صغير [كانت وفاته سنة ١٢٨٢هـ]» الأعلام: ج ٦، ص ٢٩٩.

قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيئٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾^(١).

«نستفيد من الآيات المختلفة في القرآن، ومنها الآيات التي هي محل بحثنا، أن الإيمان والعدالة سبب لعمران المجتمعات، والكفر والظلم والخطايا سبب للدمار، نقرأ في الآية (٩٦) من سورة الأعراف: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾، وفي الآية (٤١) من سورة الروم نقرأ: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾، وفي الآية (٣٠) من سورة الشورى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾، وفي الآية (٦٦) من سورة المائدة: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَ مِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾. وآيات أخرى من هذا القبيل.

هذه الرابطة ليست رابطة معنوية فحسب، بل هناك رابطة مادية واضحة في هذا المجال أيضاً...

والحقيقة أن الحرمان في هذا العالم سببه العقوبات على الذنوب، وفي الوقت الذي يتوب فيه الإنسان ويتخذ طريق الطهارة والتقوى، يصرف الله تعالى عنه هذه العقوبات»^(٢).

إذن هناك رابطة وثيقة بين الذنوب وآثارها من جهة، وبين الأعمال الصالحة وآثارها من جهة أخرى.

ولو رجعنا إلى قصة هذه الآيات الثلاث في سورة نوح عليه السلام، نجد أنها جاءت بعد دعوات وإنذارات كثيرة تحدّثت عنها السورة المباركة المسماة باسم نبي الله نوح عليه السلام وبشّى

(١) نوح: آية ١٠-١٢.

(٢) تفسير الأمل: ج ١٩، ص ٥٥ - ص ٥٧.

أنواع الإبلاغ وأساليبه، حتى وصل بهم المقام أن يضعوا أصابعهم في آذانهم؛ كي لا يسمعوا الحقيقة التي لا تندمج مع أهوائهم، كان صبره عليه السلام عجيباً، وأعجب ما فيه رأفته، همته واستقامته الفريدة كانتا رأس ماله في السير ومواصلة طريق الدعوة إلى دين الحق.

والأعجب من ذلك أنه عليه السلام طيلة دعوته التي دامت (٩٥٠) عاماً لم يؤمن به إلا ثمانون شخصاً، ولو قسمنا هذه المدة على عدد الأنفار يتضح لنا أن مدة هدايته لكل فرد دامت اثنتي عشرة سنة تقريباً!!^(١).

«يستمر نوح عليه السلام في تبليغه المؤثر لقومه المعاندين العصاة، ويعتمد هذه المرة على عامل الترغيب والتشجيع، ويوعدهم بانفتاح أبواب الرحمة الإلهية من كل جهة إذا ما تابوا من الشرك والخطايا، فيقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^(٢).

والآيات الشريفة المباركة جاءت لتحل مشاكل تعرض لها قوم نوح عليه السلام بسبب عصيانهم وجحودهم الحق ومخالفته، بل روي أن ذلك الأمر منه عليه السلام إنما جاء بعد أن حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة^(٣)، عندها جاء الأمر بحل هذه المصائب والبلاءات عن طريق الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل.

ولو لاحظنا جانباً آخر من حياة الأنبياء عليهم السلام نجد أن هذا الأمر قد تكرر مع نبي الله هود عليه السلام، حيث عصوه وعبدوا الأصنام، وابتلاهم الله عز وجل، إذ يقول: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(٤).

(١) أنظر: تفسير الأمل: ج ١٩، ص ٥١.

(٢) المصدر نفسه: ج ١٩، ص ٥٣.

(٣) أنظر: التفسير الأصفي: ج ٢، ص ١٣٥٧. بحار الأنوار: ج ٨٨، ص ٢٩١.

(٤) هود: آية ٥٢.

حقيقة الاستغفار

ولكي ننعم بهذه النعم المترتبة والمتفرعة على الاستغفار كان من اللازم علينا التعرف على حقيقة الاستغفار لكي نعمل به؛ لأنّ العمل فرع العلم، فما هو الاستغفار، وما هي حقيقته؟

أما الاستغفار فهو: «طلب من الله بالقلب واللسان، مثل اللهم اغفر لنا، وعدم الإصرار يكون كناية عن التوبة»^(١).

وقد يُفَرَّق بين الاستغفار والتوبة بـ«أنّ الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء والتوبة أو غيرهما من الطاعة، والتوبة الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعادة، فلا يجوز الاستغفار على الإصرار؛ لأنّه مسلبة لله ما ليس من حكمه ومشيّته ما لا تفعله»^(٢).

وقد جعل البعض بين توبة العبد، وهي انقطاع العبد إليه بالكليّة، وبين طلب المغفرة بوناً بعيداً^(٣)، وهو غريب! ووجه الغرابة فيه: أنّ طلب المغفرة مقدّمة موصلة إلى انقطاع العبد بالكليّة إلى الله عزّ وجلّ، وهو التوبة بحسب ما ذكره.

وأما الاستغفار بحسب ما حدّه لنا أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام، الذين لا يزداد على كلامهم، ولا يُتَمَم من نقصٍ إن حدّوا ووصفوا، فيبيّنه ما جاء على لسان مولى المتّقين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال - لقائلٍ قال بحضرته: استغفر الله -: «ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليّين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ:

أولّها: الندم على ما مضى. والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع: أن تعتمد إلى كلّ

(١) زبدة البيان: ص ٣٣٠.

(٢) الفروق اللغوية: ص ٤٨.

(٣) أنظر: شرح الرضي على الكافية: ج ٤، ص ٣٨٩.

فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها. والخامس: أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت، فنذيه بالأحزان حتى تلتصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله^(١).

وهذه الكلمة الشريفة صارت هي الأصل الذي تؤخذ عنه حقيقة الاستغفار والتوبة، حتى أن ابن أبي الحديد في شرحه على النهج بعد ذكره لهذه الكلمة قال: «وينبغي أن نذكر في هذا الموضع كلاماً مختصراً مما يقوله أصحابنا في التوبة، فإن كلام أمير المؤمنين هو الأصل الذي أخذ منه أصحابنا مقالته، والذي يقولونه في التوبة فقد أتى على جوامعها^(٢) في هذا الفصل على اختصاره»^(٣).

فلكي نحصل على حقيقة الاستغفار علينا أن نحقق هذه المعاني الستة، وهي وإن كانت في غاية الوضوح إلا أنها ليست سهلة الإمثال، بل تحتاج إلى عزيمة شديدة، وإرادة أكيدة، ولعل ما في دعاء كميل^(٤) يشترك مع هذه المعاني لتحقيق التوبة النصوح، إذ يقول الدعاء: «وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي، معتذراً نادماً، منكسراً مستقيلاً، مستغفراً منياً، مقراً مُدعناً معترفاً، لا أجد مفرّاً مما كان مني، ولا مفرعاً أتوجه إليه في أمري...»^(٥).

آثار الاستغفار

ثم إنه إذا تحقق الاستغفار بشروطه المتقدمة، ومعانيه الستة الآنف الذكر، فستحصل الآثار المترتبة عليه، وهي آثار مهمة يُبذل من أجلها كل غالٍ ونفيس، وهي ستة أيضاً، وهذه من نعم الله تبارك وتعالى التي تفضل بها على خلقه، بأن يُضاعف لهم في أفعالهم كما

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٩٧. ص ٩٨، رقم ٤١٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٥٦.

(٣) مصباح المتجهّد: ص ٨٤٦.

يُضَاعَفُ الْحَسَنَاتِ، حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(١).

الأثر الأول: غفران الذنوب

بمعنى أنَّ المستغفر يحصل على أوضح أثر من آثار عمله، وهو ما سُلخ من نفس العمل، وهو غفران الذنوب والمعاصي، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢).

فالآية رَتَّبَتْ على التوبة تكفير السيئات، ثمَّ دخول الجنَّات، وهذا أمر طبيعي، فكلُّ فعلٍ يصدر لا بدَّ من تحقُّق أقرب آثاره إليه، وأقرب آثاره إليه شموله إلى نفس الفعل الصادر، كما هو معلوم بالوجدان.

والملفت للنظر أنَّه تبارك وتعالى لم يقل: «إِنَّهُ غَفَّارًا»، بل قال: «إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا»؛ لأنَّه كَانَ غَفَّارًا فِي حَقِّ كُلِّ مَنْ اسْتَغْفَرَهُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَظُنُّوا أَنَّ غَفَّارِيَّتَهُ إِنَّمَا حَدَثَ الْآنَ، بَلْ هُوَ أَبَدًا هَكَذَا كَانَ، فَكَأَنَّ هَذَا هُوَ حِرْفَتُهُ وَصِنْعَتُهُ^(٣).

وعَبَّرَتْ الآية بِ(غَفَّارًا)، وَلَمْ تَعْبَرْ بِ(غَافِرًا، أَوْ غُفُورًا) لِمَزِيدِ الْعِنَايَةِ فِي كَثْرَةِ الْمَغْفِرَةِ، وَغَفَّارٌ مَنْ غَفَرَ، وَالْغَفْرُ هُوَ التَّغْطِيَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: غَفَرْتُ الْمَتَاعَ أَيَّ: جَعَلْتَهُ فِي الْوَعَاءِ^(٤).

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى اللَّغْوِيُّ الرِّوَايَاتِ الشَّرِيفَةِ فِي بَابِ التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنُوبِ وَالِاسْتِغْفَارِ. فَفِي الْكَافِي الشَّرِيفِ، عَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحًا أَحَبَّهُ اللَّهُ فَسْتَرَ عَلَيْهِ. فَقُلْتُ: وَكَيْفَ يَسْتَرُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: يُنْسِي مَلِكِيهِ

(١) الأنعام: آية ١٦٠.

(٢) التحريم: آية ٨.

(٣) أنظر: تفسير الرازي: ج ٣٠، ص ١٣٧.

(٤) أنظر: الصحاح: ج ٢، ص ٧٧.

ما كانا يكتبان عليه، ويوحى [الله] إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض: أن أكتمي عليه ذنوبه، فيلق الله عز وجل حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»^(١).

ولا معنى للستر عليه إذا لم يكن تغطية لذنوبه حتى يصير التائب والمستغفر لا ذنب عليه، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(٢).

هذا هو الأثر الأول للإستغفار، وهو غفران الذنوب، وهو أثر معنوي، بخلاف الخمس البوافي الآتية.

الأثر الثاني: كثرة الأمطار

الأثر الثاني من آثار الاستغفار (كثرة المطر) فلا يغفر لكم ذنوبكم وحسب، بل يرسل السماء عليكم مدراراً، وهي من صيغ المبالغة أيضاً، فيفيض عليكم بأمطار الرحمة، كما ينسكب الحليب من صدر الأم؛ ولذا لم تقل الآية: ينزل عليكم المطر أو الماء، كما في قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^(٣)، وإنما عبرت الآية بـ(يرسل السماء)؛ فالسما تكاد أن تهبط من شدة هطول الأمطار، وبما أنها أمطار رحمة وليست نقمة؛ فلذا لا تُسبب خراباً وأضراراً، بل تبعث على الإعمار والبركة والحياة^(٤).

من هنا ذكر العلماء في مسألة صلاة الاستسقاء المتابعة في الدعاء والاستغفار. قال المحقق الحلي رحمه الله: «يبالغ في الدعاء والاستغفار، ويُعاودون إن تأخرت الإجابة، أمّا تأكيد الاستغفار؛ فلقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٣٦، ح ١٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٧٥، ح ١٤.

(٣) الحج: آية ٥.

(٤) أنظر: تفسير الأمل: ج ١٩، ص ٥٤.

عَلَيْكُمْ مَذَرَارًا»^(١).

والأمطار الغزيرة هنا أمطار رحمة وبركة، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، فواحدة من بركات السماء التي ينزلها عزّ وجلّ عندما يؤمن أهل القرى ويتّقوا هي أمطار الرحمة^(٣). فمن علّل الجدوبة وقلة الأمطار بكثرة الذنوب والمعاصي، يرى أنّ الاستغفار يرفعها ويزيلها، ويثبت ما هو ضدها، وهو الخصب، ونزول المطر الكثير النافع.

الأثر الثالث: المدّ المالي

والأثر الثالث المترتب على الاستغفار هو المدّ المالي الذي ارتفع وانقطع، أو ضعف بسبب الذنوب والمعاصي، فإنّه يعود مرّة أخرى إليكم بعد أن تتابعوا الاستغفار والتوبة، فمن ضاقت عليه معيشتة أو قُدِرَ عليه رزقه فعليه بكثرة الاستغفار، فعن نصر بن زياد، قال: «كُنْتُ عِنْدَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ - يَعْنِي الْإِمَامَ الصَّادِقَ (ع) - فَأَتَاهُ سَفِيَانُ الثُّورِي، قَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، حَدِّثْنِي فَقَالَ: يَا سَفِيَانُ. إِذَا اسْتَبْطَأْتَ الرِّزْقَ فَأَكْثَرَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ»^(٤). فلاحظ كيف ترتّب على التوبة «إيتاء الفضل في الآخرة، وناسب كلّ جوابٍ لما وقع جواب له؛ لأنّ الاستغفار من الذنوب أوّل حال الراجع إلى الله، فناسب أن يرتّب عليه حال الدنيا، والتوبة هي المنجية من النار، والتي تُدْخِلُ الْجَنَّةَ»^(٥).

(١) المعتبر: ج ٢، ص ٣٦٦.

(٢) الأعراف: آية ٩٦.

(٣) أنظر: تفسير الميزان: ج ٨، ص ٢٠١.

(٤) الفرج بعد الشدة: ج ١، ص ٢٨.

(٥) تفسير البحر المحيط: ج ٥، ص ٢٠٢.

الأثر الرابع: المد بالبنين

والأثر الرابع المترتب على الاستغفار، المد بالبنين، وهو أثر لا يقل أهمية من المد المالي، إن لم يكن أهم، كما نرى في حياتنا اليومية الكثير من الناس ممن لهم الاستعداد في أن يذلوا كل ما عندهم من أموال في سبيل أن تكون لهم ذرية، مع أن المال والبنين كليهما زينة الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١) لكننا نسمع من هنا وهناك الكثير حول هذا الموضوع، (لا قيمة للمال إذا لم يكن عندك عيال) وهذا مما ابتلى به الباري عز وجل عباده، حيث يقول جلّت أسماؤه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوَرُ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^(٢). وهذه الآية الشريفة تعبير واضح عن هذا المصير، حتى وردت روايات كثيرة عن سؤال بعض المؤمنين للإمام المعصوم عليه السلام في تعليمهم ما يمكنهم من الحصول على الذرية، وسأقل هنا شواهد على الثلاثة الأخيرة، أعني: الجدوبة، والفقر، وعدم البنين.

فقد روي أن رجلاً أتى الإمام الحسن عليه السلام فشكا إليه الجدوبة، فقال الحسن عليه السلام: «استغفر الله»، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر، فقال له: «استغفر الله»، وأتاه آخر فشكا إليه أن يرزقني ابناً، فقال له: «استغفر الله»، فقلنا له: أذاك رجال يشكون أبواباً، ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار؟ فقال: «ما قلت ذلك من ذات نفسي، إنما اعتبرت فيه قول الله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾»^(٣) ^(٤).

(١) الكهف: آية ٤٦.

(٢) الشورى: آية ٤٩. آية ٥٠.

(٣) نوح: آية ١٠. آية ١٢.

(٤) وسائل الشيعة: ج ٧، ص ١٧٨.

الأثر الخامس والسادس: جعل الجنّات والأنهار

وهذان الأثران من الآثار المترتبة على الاستغفار لاحقاً في الدار الآخرة، وبمعنى آخر: إنَّ رحمة الله تبارك وتعالى المترتبة على الاستغفار تعدّت محيط الحياة الدنيا؛ لتنتقل إلى سعادتين أُخريين تنتظران المستغفرين، وهما سعادة الجنّات والأنهار، بمعنى دخول الجنّة، وليست الجنّة بأدنى مراتبها - مع أنّها أفضل من الدنيا بما لا يُعدُّ ولا يُحصى - بل الجنّات المشتملة على الأنهار، وأي جنّات هذه التي قسّمتها هذه الأنهار!! وأيّ حداثٍ هذه التي جُعِلت فيها الأنهار لتزيدها بهاءً وحُسناً!!.

فلا شكَّ أنّها حداثٌ ذات بهجة، إلّا أنّها ليست حداثٌ دنيوية، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَايِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾^(١)، بل هي حداثٌ أُخروية. ومن تلك الأنهار التي يتنعم بها المؤمنون يومَ القيامة في الجنّة نهر الفرات^(٢)، ولعلّه لأجل أن يتذكّر المؤمنون وهم في الجنّة تلك المصيبة التي جرت على أبي عبد الله عليه السلام على شاطئ الفرات.

ينقل شيخنا المنصوري رحمه الله:

إنَّ الله تعالى فتح باباً للزهراء عليه السلام يوم عاشوراء، وهي في مكانها المعدّ لها بعد الوفاة لتنعم به، فتح لها باباً لمشاهدة ولدها الحسين عليه السلام فرأته صريعاً يتلظى عطشاً، قعدت به كثرة الجراح من الحركة، وكان أملها أن يُداوى أو يُسقى ماءً، ولكن لما أقبل الشمر ومكّن السيف من نحره، لم تطق النظر إليه، ولكن توجّهت إلى مَنْ معها من الحور العين، وكأني بها عليه السلام تخاطب الحور العين:

يا حور گوموا زینوا جنّة الفردوس باچر تجی لیکم جنایز ما لها روس

(١) النمل: آية ٦٠.

(٢) أنظر: مستدرک الوسائل: ج ١٧، ص ٢٥، ح ٢. بحار الأنوار: ج ٥٧، ص ٤١، ح ٦.

منهم جنازة الصدر منها ابخيل مديوس جنازة حبيب الله انذبح بالغازية

ثم تلتفت إلى الأمين جبرئيل عليه السلام:

جبريل وين أجسادهم دليني بيها كلها يزهره اشلون بيك اتشاهديها

كلها بلايه روس واحزني عليها ظلت وزينب والحرم راحت سبيّه^(١)

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أي منقلب ينقلبون

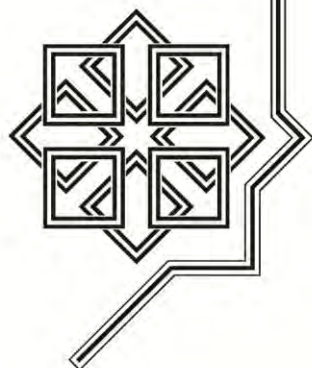
والعاقبة للمتقين.

(١) أنظر: ميراث المنبر: ص ١٥٩. والأبيات لشاعر أهل البيت عليه السلام ابن فايز عليه السلام، كما أشار إليه شيخنا

المنصوري رحمته الله في هامش كتابه القيم (ميراث المنبر).

الحافظ للربيع

عَدَاوَةُ الشَّيْطَانِ
لِبَنِي آدَمَ



أحلى وأكادت تموت السنين
وأوشك دين أبيك النبي
وهذي رعاياك تشكو إليك
تناديك مُعلنة بالنجيب
فمذ عمنا الجور واستحكموا
شخصنا إليك بأبصارنا
أتسى مصائب آبائك التي
مصائب النبي وغصب الوصي
ولكن لا مثل يوم الطفوف
غداة قضى السبط في فية
تفانوا عطاشى فليت الفرات
وأعظم ما نالكم حادث
هجوم العدو على رحلكم
تدافع بالساعدين السياط

لطول انتظارك يا بن الحسن
يمحى ويرجع دين الوثن
ماناهما من عظيم المحن
إليك ومبديّة للشجن
بأموالنا واستباحوا الوطن
شخص الغريق لمر السفن
هدم دهاها الركن
وذبح الحسين وسم الحسن
في يوم نائبة في الزمن
مصايح نور إذا الليل جن
لما ناهم ماؤه قد أجن
له الدمع ينهل غشاً هتن
وسلب العقائل إبرادهن
وتستر وجهاً بفضل الرذن^(١)

(١) القصيدة لشاعر أهل البيت عليه السلام السيد محمد القزويني رحمه الله، قال عنه في من لا يحضره الخطيب:

«السيد محمد السيد مهدي القزويني، ولد في الحلة سنة ١٢٦٢ هـ، وتوفي فيها سنة ١٣٣٥ هـ ودفن في النجف الأشرف، نال درجة الاجتهاد وكان زعيماً دينياً في الحلة، له أعمال جليلة في التربية والإصلاح، وله آثار علمية في الفقه والأدب». من لا يحضره الخطيب: ج ١، ص ٢٨٦.

طَبَّوْا لِلخِيَامِ وَفَرَّهْدُوْهَا وعزّيات النبوة سلّبوها
 اوْجَمَ طِفْلَةَ النّبِيهِمْ رَوَّعُوْهَا اوفرت من خيمها التحوم واتدور
 عَگَبَ مَا فَرَّهْدُوا ذِيْجَ الصّاوِيْن شبّوا نارهم بخيام الحسين
 اوْطَلَعَتْ هَايَمُهُ ذِيْجَ النّساوِيْن يتاماها تعثر بين الصخور

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

من السنن الإلهية في هذه الحياة الدنيا سنة الإبتلاء والإمتحان، وهي سنة عامة أكيدة، وقد أشار القرآن الكريم إلى عمومية هذه السنة في آيات عديدة، كقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢).

وهذه السنن لا تتخلّف من جيل إلى آخر، وإن كانت تختلف في صورها وأشكالها، فتصوّر تارة بالفقر، وأخرى بالشك، وثالثة بالوسوسة، وهكذا.

وخير شاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(٣).

ومن الفتن والابتلاءات: الأموال والزوجة والأولاد، وقد يصل الأمر إلى حد أن تصبح الزوجة والأولاد هم العدو الذي يصدّ عن الله وذكره.

(١) فاطر: آية ٦.

(٢) العنكبوت: آية ٢٣. آية ٢٤.

(٣) الأعراف: آية ١٣٠.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(١).

ومن أشدَّ الأعداء - مع ابتلاءات الدنيا وعقوباتها، والنفس والأولاد والزوجة - إبليس (عليه اللعنة).

ورحم الله القائل:

«إبليسُ والدُّنيا ونفسي والهوى كيفَ الخلاصُ وكُلُّهم أعدائي»^(٢)

هذا العدو الذي أقسم لأينا آدم وأمنّا حواء بأعظم الأقسام ولم يكن صادقاً، كما حكاه لنا القرآن الكريم، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٣) فهو (لعنه الله) مع القسم والتأكيد بالنصيحة يخادع ويمكر، فكيف معنا نحن البشر، الذين تعهد بأن لا يتركنا طرفة عينٍ، وأقسم بعزة الله أن يغويناً؟! كما حكى القرآن الكريم ذلك على لسانه.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَعَزَّزْتُ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٤).

وهذا تحذير رهيب وإشارة خطيرة؛ إذ مع النصيحة يخدع ويمكر، فكيف نتصور حالنا مع الأقسام المغلظة بالإغواء والخديعة، فلا شك سيكون الأمر أخطر وأمر!!
والنتيجة هي عذاب السعير، كما في الآية التي افتتحنا بها الكلام، وهكذا في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(٥).

فهو (لعنه الله) بعد أن تمَّ طرده من ساحة القدس والجلال، طلب من الله أن ينظره

(١) التغابن: آية ١٤.

(٢) الفتوحات المكية: ج ١، ص ٢٧٨. ولم ينسبه لأحد.

(٣) الأعراف: آية ٢١.

(٤) ص: آية ٨٢ - آية ٨٣.

(٥) الحج: آية ٤.

إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَبْنَئُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مَنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾^(١).

وبعد هذا الخسران الذي أصاب إبليس، وخيبة الأمل التي تعرض لها، اتخذ طريقاً للإغواء والمخادعة لبني البشر، كما حكى لنا القرآن الكريم كل ذلك، حيث يقول: ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَنْبِئَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٢).

ولكن مع شديد الأسف، هذا الشيطان الرجيم صار عند الإنسان من أقرب أصدقائه الحميمين، لا يبارحنا نحن البشر وقد اتخذناه بدلاً عن الهداية والاستقامة، فاستبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿ أَفَتُخَذُّونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾^(٣).

إبليس عدو لا كالأعداء

هذا العدو يختلف عن باقي الأعداء؛ لأنَّ المحتملات في كل الأعداء ثلاثة: إما أن تتغلب عليه، أو يتغلب عليك، أو تكون هناك هدنة أو صلح، بخلاف عدونا

(١) الحجر: آية ٣٠ - آية ٣٨.

(٢) الأعراف: آية ١٦ - آية ١٨.

(٣) الكهف: آية ٥٠.

إبليس، فالموجود إحتمالان اثنان لا ثالث لهما، وهما: إمّا أن يستسلم على أيدينا ونتغلّب عليه، أو نستسلم على يديه ويتغلّب علينا، ولا يوجد احتمال الهدنة؛ بعد أن سمعنا أقسامه المغلظة بالغواية المستمرة لنا.

من هنا سُئل رسول الله عندما ذكر أنّ لكلّ إنسانٍ شيطان، فقيل له: وأنت يا رسول الله ألك شيطان؟

فقال ﷺ: «إنّ الله أعانني على شيطان حتى أسلم على يدي»^(١).

وباستسلام إبليس وعدم قدرته على غوايتنا نكون أفضل من الملائكة، وإلاّ فنحن والبهائم على حدّ سواء، فالمسألة جدّ خطيرة.

فقد روي عن عبد الله بن سنان، قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: «قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوةً بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خيرٌ من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرٌّ من البهائم»^(٢).

طُرق الشيطان وخطواته

والشيطان له طُرقه الخاصّة به وبأباليسته، وهي المعبر عنها بالخطوات، التي نهانا الله تبارك وتعالى عن إتباعها، كما صرّح بذلك القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ١٩٧.

(٢) علل الشرائع: ج ١، ص ٥، ح ١.

(٣) النور: آية ٢١.

و(الخطوات) جمع (خطوة) وهي المرحلة التي يقطعها الشيطان للوصول إلى هدفه، وهو التغيرير بالناس. وعبرة لا تتبّعوا خطوات الشيطان، تكرّرت خمس مرات في القرآن الكريم، وكانت في موضعين بشأن الاستفادة من الأطعمة والرزق الإلهي، وهي تحذير من استهلاك هذه النعم الإلهية في غير موضعها، وحثٌّ على الاستفادة منها على طريق العبودية والطاعة، لا الفساد والطغيان في الأرض؛ للنهي عن إتباع خطوات الشيطان في استثمار مواهب الطبيعة، توضحه آيات أخرى تنهى أيضاً عن الإفساد في استثمار ما وهبه الله للناس، كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(١)، وكقوله سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾^(٢)، هذه المواهب والإمكانات ينبغي أن تكون طاقةً دافعةً نحو الطاعة، لا وسيلة لارتكاب الذنوب، وعبرة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تكرّرت في القرآن الكريم عدّة مرات بعد الحديث عن الشيطان؛ كي تحفّز الإنسان، وتجعله متأهباً لمُجابهة هذا العدو اللدود الظاهر، والآية التالية تؤكد على عداوة الشيطان، وعلى هدفه المتمثل في شقاء الإنسان، وتقول: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾.

ومنهج الشيطان يتلخّص في ثلاثة أبعاد هي:

(السوء، والفحشاء، والتقوّل على الله) الفحشاء من (الفحش) ، وهو كلّ عمل خارج عن حدّ الاعتدال، ويشمل كلّ المنكرات والقبائح المبطّنة والعلنية، واستعمال هذه المفردة حالياً بمعنى الأعمال المنافية للعفة هو من قبيل استعمال اللفظ الكلّي في بعض مصاديقه^(٣).

(١) البقرة: آية ٦٠.

(٢) طه: آية ٨١.

(٣) أنظر: تفسير الأمثل: ج ١، ص ٤٧٤ - ص ٤٧٦.

فأسلوب الشيطان هو التدرّج في أخذ الإنسان إلى الهاوية، فيبدأ معه رويداً رويداً إلى أن يرميه في الهاوية، وفي وادٍ سحيقٍ نسأل الله العونَ والهدايةَ والتنبّه من الغفلة.

ويمكن تلخيص دعوته إلى السعير بعدّة مصاديق، نذكر منها:

١- زرع الفتن والبغضاء والعداوة بين الناس، وإشعال نار الحقد والعداء بين بني البشر، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدّة آيات:

منها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِ ﴾^(٣)، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يقول إبليس لجنوده: ألقوا بينهم الحسد والبغي، فإنها يعدلان عند الله الشريك»^(٤).

٢- تزيين العمل القبيح لصاحبه، وهذا من أشدّ الأخطار على الإنسان حذرنا منه القرآن الكريم: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٥).

٣- الوعود والأمانيات الكاذبة والمخادعة الباطلة التي يفضحها لنا الباري عز وجل؛ إذ يقول: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾^(٦).

ومن هنا يُستل إيماننا الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ

(١) المائدة: آية ٩١.

(٢) الإسراء: آية ٥٣.

(٣) يوسف: آية ١٠٠.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ٣٢٧، ح ٢.

(٥) الأنعام: آية ٤٣.

(٦) النساء: آية ١٢٠.

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ وَمَنْ يَعْفُرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾، فيقول: «لما نزلت هذه الآية صعد إبليس جبلاً بمكة يُقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه. فقالوا: يا سيدنا، لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية، فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين، فقال: أنا لها بكذا وكذا. قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال: لست لها. فقال الوسواس الخناس: أنا لها، قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة»^(١).

وهذا هو الذي حصل مع أخوة يوسف عليه السلام بعينه كما قصّ لنا القرآن الكريم ذلك، حيث يقول: ﴿أَقْبَلُوا يَوْسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾^(٢).

ولكن الذي يقتل نبياً أو وصياً أو ولياً هل يوفق للتوبة؟!

ونفس هذا المعنى تكرر مع ابن سعد - لعنه الله - حيث غرّته الأمانى ووسوس له الشيطان بأنه إذا قتل الإمام الحسين عليه السلام سوف يتوب بعد ذلك، عندما عرضت عليه إمارة الرّي كان في البدء متردداً في الخروج، ثم ذهب إلى منزله وأخذ يمشي في فناء الدار وينشد:

فوالله ما أدرى وإني لصادق	أفكر في أمري على خطرين
أترك ملك الرّي والرّي مُنيّتي	أم أصبح مأثوماً بقتل حسين
حسين ابن عمّي والحوادثُ جمّة	ولكن لي في الرّي قُرّة عيني
يقولون إن الله خالقُ جنّة	ونارٍ وتعذيبٍ وغلّ يدين

(١) آل عمران: آية ١٣٥.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق: ص ٥٥١، ح ٥٥.

(٣) يوسف: آية ٩.

فإن صدقوا مما يقولون إنني أتوب إلى الرحمن من ستين

وإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمة ومليك عقيم دائم الحجلين^(١)

وهذا اللعين هو أول من رمى محييم الحسين ومعسكره مفتخراً بذلك.

يقول ابن أعثم الكوفي: «وتقدم عمر بن سعد حتى وقف قبالة الحسين على فرس له، فاستخرج سهماً فوضعه في كبد القوس، ثم قال: أيها الناس! اشهدوا لي عند الأمير عبيد الله بن زياد أنني أول من رمى بسهم إلى عسكر الحسين بن علي! قال: فوقع السهم بين يدي الحسين، فتنحى عنه راجعاً إلى ورائه، وأقبلت السهام كأنها المطر، فقال الحسين لأصحابه: أيها الناس، هذه رسل القوم إليكم، فقوموا إلى الموت الذي لا بد منه»^(٢).

هذا مبدأ أعماله وأما خاتمة الأعمال التي قام بها ابن سعد - لعنه الله - فهي أدهى

وأمر!!

ماذا صنع؟ الأمر شديد، وسباعه محرق للقلوب، ومقرح للجفون، فاستعد لسماعه لتشارك الزهراء في لوعتها ومصابها.

«نعم نادى ابن سعد - لعنه الله -: هلموا ودوسوا صدر الحسين.

ثم أمر النبي ﷺ بحمزة أن تمدّ عليه برقته، وهو في القبر وكانت قصيرة وكانوا إذا خمروا بها رأسه بدت رجلاه، وخمروا بها رجله انكشف وجهه فبكى المسلمون، وقالوا: يا رسول الله، عم رسول الله يقتل فلا يوجد له ثوب؟ فقال: بلى. فلما دفن القتلى انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرجت نساء المدينة؛ لأن إبليس صاح ألا قد قُتل محمد، فخرجن النساء باكيات صارخات، فأخبرن بأن النبي ﷺ حي ولم يصبه شيء فحلفن أن لا يرجعن إلى خدورهن حتى يرين رسول الله ﷺ، وهن واقفات حتى دخل رسول الله،

(١) اللهوف: ص ١٩٣.

(٢) كتاب الفتوح: ج ٥، ص ١٠١.

فلما رأيته ولولن وبكين، ثم دخلن خدورهن، وإلى هذا أشار بشير بن جذلم في قوله: يا أهل يثرب لا مقام لكم بها.

يعني لو كنتم صادقين في دعواكم أن لا تسكن بيوتنا حتى نرى النبي فيحق الآن أن لا تسكنوا المدينة؛ لأن الحسين عليه السلام قد قُتل. فمرَّ النبي صلى الله عليه وآله ببعض بيوتات الأنصار، فسمع بكاء النوائح على قتلاهن، فترقرت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى، ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له اليوم. فلما سمعه سعد بن معاذ قال: لا تبكين امرأة حميمها حتى تأتي فاطمة فتسعدوها في البكاء على حمزة. فاجتمعن النساء عند فاطمة وهن يسعدنها على حمزة، ومن أسعد فاطمة في البكاء على الحسين؟! أسعدها ألف نبي، وألف صديق، وألف شهيد، وألف ألف من الكرويين، وهم يسعدونها في البكاء على الحسين عليه السلام. ولما لم يكن لحمزة نوائح ناحت عليه نساء المهاجرين، والحسين كانت له نوائح، لكن إن دمعت من إحداهن عين قرع رأسها بالرمح^(١).

وكأنني بها عليه السلام تخاطب أخاها أبا عبد الله عليه السلام:

بس ما غبت وكفيت يحسين	عن كربلا صرته مضعين
خذوني يسيرة وتدمع العين	ومدري وجوه الغوم لا وين
للكوفة يو للشام ناوين	والدرب تدري يريد إله اثنين
أنصار يو أخوه المينين	ولويائي ما غير النساءوين
أباري الظعن ماليش تمكين	عاد أرضه والله يرميني البين
دليلي بجور سيف الدهر ينشاف	ولي ناظر يكت ما بعد ينشاف
زينب طولها الما جان ينشاف	يسيره تروح لولاد الدعية

(١) شجرة طوبى: ج ٢، ص ٢٨٧.

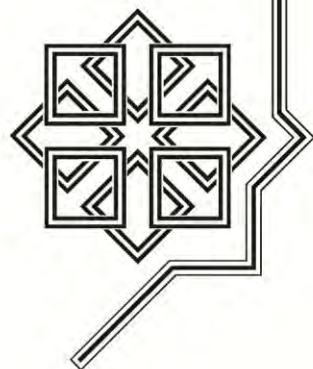
وأعظم ما يشجي الغيور دخولها إلى مجلس ما بارح اللهو والخمرا
يقارعها فيه يزيد مسبة ويصرف عنها وجهه معرضاً

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُنقلبٍ ينقلبون
والعاقبة للمتقين.

الحاضرة لا تحصى



هو حجر القدرات



إِنْ كَانَ عِنْدَكَ عِبْرَةٌ تُجْرِيهَا
 فَعَسَى نَبْلُهَا مُضَاجِعَ صَفْوَةٍ
 وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَنَازِلِ عَصْمَةٍ
 فَبَكَيْتُ حَتَّى خَلَّتْهَا سِتْجِيْنِي
 وَذَكَرْتُ إِذْ وَقَفْتُ عَقِيلَةً حِيدِرٍ
 بِأَبِي التِّي وَرَثْتُ مَصَائِبَ أُمِّهَا
 لَمْ تَلَهُ عَنْ جَمْعِ الْعِيَالِ وَحَفْظِهِمْ
 لَمْ أُنْسْ إِذْ هَتَكُوا حِمَاهَا فَانْثَنَتْ تَدْعُو
 فَتَحْتَرِّقُ الْقُلُوبُ كَأَنَّمَا
 هَذِي نِسَاؤُكَ مَنْ يَكُونُ إِذَا سَرَتْ
 أَيْسُوفُهَا زَجْرٌ بِضَرْبِ مَتُونِهَا
 فَانْزَلْ بِأَرْضِ الطَّفِّ كَيْ نُسْقِيهَا
 مَا بَلَّتِ الْأَكْبَادُ مِنْ جَارِيهَا
 ثَقُلَ النُّبُوءَةُ كَانَ أَلْقَى فِيهَا
 بُبْكَائِهَا حُزْنًا عَلَى أَهْلِهَا
 مَذْهُولَةً تُصْغِي لَصَوْتِ أَخِيهَا
 وَغَدَتْ تُقَابِلُهَا بِصَبْرِ أَبِيهَا
 بَفِرَاقٍ إِخْوَتِهَا وَفَقْدِ بَنِيهَا
 تَشْكُو لَوَاعِجَهَا إِلَى حَامِيهَا
 يَرْمِي حَشَاهَا جَهْرُهُ مِنْ فِيهَا
 فِي الْأَسْرِ سَائِقُهَا وَمَنْ حَادِيهَا
 وَالشَّمْرُ يُحْدُوهَا بِسَبَبِ أَبِيهَا^(١)

(١) الأبيات للسيد رضا الهندي رحمه الله. قال عنه السيد جواد شبر رحمه الله في أدب الطف (ج٩، ص ٢٤٢ - ص ٢٥٥): «السيد رضا الهندي شيخ الأدب في العراق، والعالم الجليل المؤرخ، والبحّثة الشهير، وهو ابن السيد محمد ابن السيد هاشم الموسوي الهندي.

ولد رحمه الله في الثامن من شهر ذي القعدة سنة (١٢٩٠ هـ)، وهاجر إلى سامراء بهجرة أبيه سنة (١٢٩٨ هـ) حين اجتاحت النجف وباء الطاعون، وكان خامسَ إخوته الستة، ومكثَ يواصل دروسه في سامراء، وكان موضع عناية من آية الله المجدد الشيرازي لذكائه وسرعة البديهة وسعة الاطلاع، وفي النجف واصل جهوده العلمية على أساطين العلم حتى نال درجة الاجتهاد... مؤلفاته: الميزان العادل بين الحق والباطل في الرد على الكتائبين (مطبوع) وبلغة الراحل في الأخلاق والمعتقدات، والواق في شرح الكافي في العروض والقوافي، سبيكة المسجد في التأريخ بأبجد (وقد فُقد)، وشرح غاية الإيجاز في الفقه.

أمّا الرائعة التي ختم بها حياته وطلب أن تكون معه في قبره، فهي هذه القطعة الوعظية:

أَرَى عُمْرِي مُؤَذَّنًا بِالْذَّهَابِ تَمُرُّ لِيَالِيهِ مَرَّ السَّحَابِ
 وَتَفْجَأُنِي بِيَضِ أَيْامِهِ فَتَسْلُخُ مِنِّي سَوَادَ الشَّابِ

وكأنّي بها عليه السلام:

ودعّتك الله يا عيوني يردون عنك يا خذوني
زجر وخولّه الياروني نخيت إخوتي وما جاوبوني
يهل الحميّة ما تجوني من إيد الأعداي تخلصوني

يحادي لا تسج بالضعن ييادي وگلبي الفگد أبو السجّاد ييادي
ريّض خل أغسل حسين ييادي ودفنه لا يضل جسمه رميّه

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾^(١).

هناك جملة من المخلوقات تشكي إلى الله يوم القيامة، وتطالب بالحقوق والمظلوميات التي أصابتها وتعرّضت لها.

وأفضل هذه المخلوقات وأكملها الإنسان، الذي فضله الله عزّ وجلّ على جميع المخلوقات، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(٢).

كانت وفاته بالمشخاب فجأة بالسكتة القلبية، وذلك بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٢ جمادي الأولى سنة ١٣٦٢هـ) المصادف (٢٦ مارس سنة ١٩٤٣م)، وحُمل جثمانه على الأعناق إلى قضاء أبي صخير في النجف في صبيحة اليوم الثاني، وكان يوماً مشهوداً حتى دفن بمقبرة الأسرة الخاصة، وأقام زعيم الحوزة الدينية السيد أبو الحسن [الأصفهاني] الفاتحة على روحه في مسجد الشيخ الأنصاري بالقرب من دار الفقيده...».

(١) الفرقان: آية ٢٠ - آية ٣١.

(٢) الإسراء: آية ٧٠.

وأفضل بني آدم بما فيهم جميع الأنبياء والرسل هو النبي الأكرم محمد ﷺ.
 وشهادة الرسول ﷺ حقيقة قرآنية، لا يمكن إنكارها؛ للتصريح بها في غير واحدة من
 الآيات، حيث يقول عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ
 هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ
 يُسْتَعْتَبُونَ﴾^(٢).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهَدَاءِ﴾^(٣).
 «وقول الرسول ﷺ هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من
 المسلمين، يشكو بين يدي الله أنهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الذي هو رمز الحياة،
 ووسيلة النجاة، القرآن الذي هو سبب الانتصار والحركة والتفوق»^(٤).

وقد يسأل سائل ويقول: كيف يشكو رسول الله ﷺ قومه ويشهد ضدهم، وفيهم من
 أهل القرآن والدين الكثير؟

والجواب: «إنَّ هذه الشكوى والشهادة لا تعم جميع أمة النبي ﷺ، وإنَّما البعض.
 كيف! وفيهم أولياء القرآن، ورجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله»^(٥).

ومما لا إشكال فيه أنَّ المراد بالرسول هنا هو شخص النبي الأكرم محمد ﷺ بقريته
 ذكر القرآن، وعبر عنه بالرسول تسجيلاً لرسالته، وإرغاماً لأولئك القادحين في رسالته
 وكتابه... وهذا القول ممَّا يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البثِّ والشكوى،

(١) النساء: آية ٤١.

(٢) النحل: آية ٨٤.

(٣) الزمر: آية ٦٩.

(٤) أنظر: الأقسام في القرآن الكريم: ص ٥٣ - ص ٥٤.

(٥) تفسير الميزان: ج ١، ص ٢٩٧.

وعلى هذا فالتعبير بالماضي بعناية تحقق الموضوع، والمراد بالقوم عامّة العرب، بل عامّة الأُمّة لكن بلحاظ الكفرة والعصاة منهم، فليس الأمر فيهم على حدّ سواء^(١).

ومن طريف القول ما وقع من النزاع بين رجلين من أُمّة النبي الأكرم ﷺ في ذلك، والأوّل هو معاوية بن أبي سفيان، حيث كان يفتخر بأنّه من قريش، حيث يقول أمام الرّجل الثاني - وهو رجل من الأنصار -: «فَضَّلَ اللهُ قَرِيشًا ثَلَاثَ:

١- ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢)، ونحن الأقربون.

٢- ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾^(٣)، ونحن قومه.

٣- ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ﴾^(٤).

فقال الرجل الأنصاري: على رَسْلِكَ يا معاوية، قال الله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾^(٥) وأنت من قومه، و﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾^(٦) وأنت من قومه، و﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٧) وأنت من قومه، فهذه ثلاث ثلاث، ولو زدتنا لزدناك. فأفحمه^(٨).
نعود إلى أصل البحث، وهو اتّخاذ القرآن مهجوراً؛ حتّى نعرف ما هو الهجر الذي يسبب الشكوى؛ لكي نجتنبه ولا نكون ممّن يتّصف به.

(١) أنظر: تفسير الميزان: ج ١٥، ص ٢٠٥.

(٢) الشعراء: آية ٢١٤.

(٣) الزخرف: آية ٤٤.

(٤) الإيلاف: آية ١.

(٥) الأنعام: آية ٦٦.

(٦) الزخرف: آية ٥٧.

(٧) الفرقان: آية ٣٠.

(٨) الصراط المستقيم: ج ٢، ص ٤٩.

الهَجْرُ لُغَةً:

الهَجْرُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ قَوْلُ الْخَنَاءِ وَالْإِفْحَاشِ فِي الْمُنْطَقِ^(١)، أَوْ قَوْلُ غَيْرِ الْحَقِّ، مِثْلُ قَوْلِ الْمَرِيضِ^(٢) أَوْ الْهَذِيانِ^(٣).

وَعَلَيْهِ نَزَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ تَفْسِيرَ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ، حَيْثُ قَالَ: «وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى اتَّخَاذِهِمُ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ اتَّخَاذُهُمْ ذَلِكَ هَجْرًا قَوْلُهُمْ فِيهِ السَّيِّئُ مِنَ الْقَوْلِ، وَزَعَمَهُمْ أَنَّهُ سِحْرٌ، وَأَنَّهُ شِعْرٌ»^(٤).

وَفِي تَفْسِيرِ الثَّعْلَبِيِّ قَالَ: «...وَقَالَ الْآخَرُونَ: هُوَ مِنَ الْهَجْرَانِ، أَيُّ: أَعْرَضُوا عَنْهُ وَتَرَكُوهُ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ»^(٥).

وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ «أَنَّ هَذَا الْهَجْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ وَصْلٍ، فَالْمُشْرِكُونَ لَمْ يَأْتُوا إِلَى الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي ظِلِّهِ؛ لِيَهْجُرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ فِي بَعْضِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٦). هَذَا مَا وَقَفْتَ عَلَيْهِ مِنْ كَلِمَاتِ أَهْلِ اللُّغَةِ.

الهَجْرُ اصْطِلَاحًا

وَأَمَّا الْهَجْرُ اصْطِلَاحًا، فَيُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِي الْخَارِجِ بِأَحَدِ الْأَنْحَاءِ التَّالِيَةِ:

النَّحْوُ الْأَوَّلُ: عَدَمُ قِرَاءَتِهِ

قَدْ يَكُونُ أَوْضَحُ مُصْداقٍ لِهَجْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ عَدَمُ التَّلَاوَةِ وَالْقِرَاءَةِ لَهُ، وَهَذَا صَرِيحٌ فِي رَوَايَاتِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ:

(١) أَنْظَر: كِتَابُ الْعَيْنِ: ج٣، ص٢٨٧. الصَّحَاح: ج٢، ص٨٥١.

(٢) لِسَانُ الْعَرَبِ: ج٥، ص٢٥٣.

(٣) مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ: ج٤، ص٤٠٦.

(٤) تَفْسِيرُ جَامِعِ الْبَيَانِ: ج١٩، ص١٣.

(٥) تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ: ج٧، ص١٣٢.

(٦) الْإِمَامَةُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ الْقُرْآنِيَّةُ: ص٣٠٧.

«أمر الناس بالقراءة في الصلاة؛ لئلا يكون القرآن مهجوراً وضعياً، وليكون محفوظاً مدروساً»^(١).

وهذا هَجْرٌ للقرآن باللسان، فقد يكون قلب الإنسان متعلّقاً بالقرآن الكريم لكنّه لم يتعاهده ولم يقرأه؛ لانشغاله بأمور دنيوية أو معاشية واجبة أو مستحبة.

ولذا قسّم الراغب الأصفهاني الهَجْرَ إلى هَجْرٍ القلب، وهَجْرٍ باللسان^(٢). ومن هنا ورد الحثُّ الأكيد، والثواب الجزيل على تلاوة القرآن الكريم وتعاهده؛ لكي لا تحصل القطيعة بين العبد وبين دستوره الأساس القرآن الكريم.

ففي الكافي الشريف عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «القرآن عهد الله إلى خلقه، فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده، وأن يقرأ منه كلّ يوم خمسين آية»^(٣).

وفيه أيضاً عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: مَنْ قرأ عشر آيات في ليلة لم يُكتب من الغافلين، ومَنْ قرأ خمسين آية كُتِبَ من الذاكرين، ومَنْ قرأ مائة آية كُتِبَ من القانتين، ومَنْ قرأ مائتي آية كُتِبَ من الخاشعين، ومَنْ قرأ ثلاث مائة آية كُتِبَ من الفائزين، ومَنْ قرأ خمسمائة آية كُتِبَ من المجتهدين، ومَنْ قرأ ألف آية كُتِبَ له قنطار من نبر؛ القنطار خمسة عشر ألف مثقال من ذهب، والمثقال أربعة وعشرون قيراطاً أصغرهما مثل جبل أحد، وأكبرها ما بين السماء إلى الأرض»^(٤).

النحو الثاني: عدم التدبّر فيه

ومن مصاديق هَجْرِ القرآن الكريم عدم التدبّر في معانيه، وعدم التأمل في مضامينه، فقد لا يكون العبد متّصفاً بالنحو الأول من الهَجْر - عدم التلاوة - بل كان يُكثر من القراءة

(١) علل الشرائع: ج ١، ص ٢٦. عيون أخبار الرضا: ج ١، ص ١١٣.

(٢) أنظر: مفردات غريب القرآن: ص ٥٣٦.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٦٠٩، ح ١.

(٤) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٦١٢، ح ٥.

له، لكنّها قراءة غير متدبّرة، بل قراءة عابرة لا تزيد على لقلقة اللسان.
وقد ذمّ الله عزّ وجلّ أقواماً لم يتدبّروا القرآن، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١).
وعن النبي ﷺ أنّه لما نزلت بعض الآيات، قال: «وَيْلٌ لِمَنْ لَا كَهَا بَيْنَ فَكَيَّةٍ، وَلَمْ يَتَأَمَّلْ فِيهَا»^(٢).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أَلَا لَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبَّرُ فِيهَا»^(٣).
بل ورد في الأدعية المروية عن أهل البيت عليه السلام الدعاء برفع الغشاوة عن البصر والقلب؛ لأجل فهم الآيات المباركة، والتدبّر في معانيها، والتأمّل في مضامينها.
فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه كان إذا قرأ القرآن يأخذ المصحف ويقول: «... اللَّهُمَّ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا كِتَابُكَ الْمُنَزَّلَ مِنْ عِنْدِكَ، عَلَى رَسُولِكَ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ... وَلَا تَطْبَعْ عِنْدَ قِرَاءَتِي عَلَى قَلْبِي، وَلَا عَلَى سَمْعِي، وَلَا تَجْعَلْ عَلَى بَصَرِي غِشَاوَةً، وَلَا تَجْعَلْ قِرَاءَتِي قِرَاءَةً لَا تَدَبَّرُ فِيهَا، بَلْ اجْعَلْنِي أَتَدَبَّرُ آيَاتِهِ وَأَحْكَامَهُ، أَخَذًا بِشَرَائِعِ دِينِكَ»^(٤).
وقال بعض الأكابر: «... وَأَمَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِتِلَاوَتِهِ بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ وَتَفْهَمٍ لِمَعَانِيهِ وَاسْتِنْبَاطٍ لِأَحْكَامِهِ، فَلَا مَرِيَّةَ أَنْ تِلَاوَتَهُ وَإِنْ قَلَّتْ أَفْضَلُ مِنْ خَتَمَاتٍ»^(٥).
ولا يخفى أنّ الثمرة من هذا الحثّ الأكيد، والطلب الشديد على التدبّر في التلاوة مرجعها إلى القاريء نفسه أولاً، فهو المستفيد الأول من هذه القراءة التي تدبّر فيها، فكم من عاصٍ اهتدى بآية، وكم من قاطع طريق اهتدى بتدبّر في استماعه لقاريءٍ لآيةٍ من

(١) محمّد: آية ٢٤.

(٢) تفسير مجمع البيان: ج ٢، ص ٤٧٠. التفسير الأصفي: ج ١، ص ١٨٨.

(٣) مشكاة الأنوار: ص ٢٤٢.

(٤) مكارم الأخلاق: ص ٣٤٣.

(٥) شرح أصول الكافي: ج ١١، ص ٤٤.

القرآن الكريم. حتى روي أن رجلاً - وهو الفضيل بن عياض - كان يقطع الطريق، وأنه عشق جاريةً وارتقى جداراً لها، فسمع تالياً يتلو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(١) فتاب ورجع، فورد مكة وجاور بها الحرم ومات بها سنة ١٨٧ هـ^(٢).

فلو لم يكن قد تأمل في هذه الآية التي تطلب الرجوع إلى الله عز وجل، والخشوع أمام عظمته وجبروته؛ لما اهتدى ولما تاب، بل مضت الآية كغيرها من آلاف الآيات التي قرأت وُسِّمت في آناء الليل وأطراف النهار.

وقد ضرب أهل البيت عليهم السلام أروع أمثلة التدبر في القرآن الكريم، فعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «لو أردت أن أختم في أقل من ثلاث لختمت، ولكن ما مررت بآية قط إلا فكرت فيها، وفي أي شيء أنزلت، وفي أي وقت، فلذلك صرت أختمه في ثلاث»^(٣).

النحو الثالث: عدم التطبيق وترك العمل بالمضمون

النحو الثالث من أنحاء الهجر هو عدم العمل بالمضمون، فقد يكون العبد كثير التلاوة والتدبر، لكن ما إن ينتهي من تلاوته وتدبره تنتهي عنده حالة التفاعل مع المضمون الذي تدبر فيه، فلا ينزله إلى الواقع الخارجي ولا يعمل بمضمونه.

فمثلاً نجد قارئاً للقرآن الكريم يقرأه على أحسن وجه، ويتدبر جيداً في قوله تعالى: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(٤)، ويتدبر فيها جيداً، ويعلم أن القرآن لا يفوته شيء لا صغير ولا كبير، حيث يقول عز من قائل: ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا

(١) الحديد: آية ١٦.

(٢) حاشية رد المختار: ج ١، ص ٦٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٦٩.

(٤) الجاثية: آية ٢٩.

أَحْصَنَهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١﴾ لَكِنَّهُ فِي التَّطْيِيقِ الْخَارِجِيِّ تَارَةً يَسْخَرُ مِنْ هَذَا، وَأُخْرَى يَكْذِبُ عَلَى ذَلِكَ، فَيُمْلِي عَلَى حَافِظِيهِ كِتَابًا مَمْلُوءًا بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي. وهذا النحو من الأنحاء الثلاثة هو أكثر ما يقع به الناس، بل أكثر ما يتورط به أهل الدراية والفهم، فلأسف الشديد تجد الكثير من هؤلاء مَن ينطبق عليه عبارة (يعرف ويحرف) فلعلَّكَ لا تجده يفارق القرآن الكريم وتلاوته، ولا يفارق التدبُّر فيه وفي مضامينه العالية، لكنَّه ما إن ينتهي حتَّى تجده يرتكب عين ما قرأه، وعين ما تدبَّر فيه، وهذه مصيبة عظيمة، ورزية كبرى، سواء كانت المخالفة على مستوى العقائد أم على مستوى الأحكام والآداب، فهو يقرأ قول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٢﴾، وبصوتٍ حسنٍ، ويتأمل فيها ويتدبَّرها جيداً، لكن عندما يريد أن يصل إلى العمل بمضمونها تراه يتردَّد؛ لأنها لا توافق معتقده ومزاجه المرُّ، ونفسه الخبيثة. وفي نفس السياق هناك آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

وقد ورد قريب من هذا المعنى في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنَّ﴾ ﴿٣﴾.

والمعنى الإجمالي للآية الشريفة هو التسلية لقلب رسول الله ﷺ «أي: كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدوًّا لك، كذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا منهم، أي: هذه من سنتنا الجارية في الأنبياء وأئمتهم، فلا يسؤنَّكَ ما تلقى من عداوتهم، ولا يشقَّنَّ عليك ذلك، ففيه تسلية للنبي ﷺ... ومعنى جعل العدو من المجرمين: أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم على

(١) الكهف: آية ٤٩.

(٢) الأحزاب: آية ٣٣.

(٣) الأنعام: آية ١١٢.

قلوبهم، فعاندوا الحقَّ وأبغضوا الداعي إليه، وهو النبيُّ، فلعداوتهم نسبة إليه تعالى بالمجازاة، وقوله: ﴿وَكُنِيَ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ معناه - على ما يعطيه السياق - لا يهولنك أمر عنادهم وعداوتهم، ولا تخافنهم على اهتداء الناس، ونفوذ دينك فيهم وبينهم، فحسبك ربُّك كفى به هاديًا، يهدي مَنْ استحق من الناس الهداية واستعدَّ له... فظهر أنَّ صدر الآية مسوق لتسلي النبيِّ ﷺ، وذيلة للاستغناء عن المجرمين من قومه^(١).

ولذا لم تنته العداوة بشخص النبيِّ الأكرم ﷺ، بل تتبعت كلَّ مَنْ له صلة وثيقة به ﷺ من أهل بيته الأطهار ﷺ؛ بيت عليٍّ وفاطمة ﷺ، فكان القوم أبناء القوم، بالأمس كان العدو للرسول الأكرم هو أبو جهل، وأبو لهب، وأبو سفيان، واليوم معاوية، ومروان، ويزيد، وأضرابهم.

ومن هنا نرى أنَّ معاوية لما قدِم المدينة صعد المنبر، فخطب ونال من عليٍّ ﷺ، فقام الحسن، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «... إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا جَعَلَ لَهُ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ، قَالَ اللَّهُ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فَأَنَا ابْنُ عَلِيٍّ وَأَنْتَ ابْنُ صَخْرٍ، وَأُمُّكَ هِنْدٌ وَأُمِّي فَاطِمَةُ، وَجَدْتُكَ قَتِيلَةً وَجَدْتِي خَدِيجَةً، فَلَعَنَ اللَّهُ الْأُمَّنَا حَسْبًا، وَأَخْلَعْنَا ذِكْرًا، وَأَعْظَمْنَا كُفْرًا، وَأَشَدَّنَا نِفَاقًا».

فصاح أهل المسجد: آمين، آمين، فقطع معاوية خطبته ودخل منزله^(٢). واستمرت عداوة المجرمين، وشياطين الجنِّ والإنس تأجج نار العداوة والبغضاء، حتَّى تجلَّتْ بأشنع صورها، وأشدَّ مظاهرها على جسد أبي عبد الله الحسين ﷺ، يعني على جسد رسول الله ﷺ؛ لأنَّه جدُّ الحسين وهو القاتل: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ»^(٣)، فقتلت

(١) تفسير الميزان: ج ١٥، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) كشف الغمّة: ج ٢، ص ١٩٦.

(٣) كامل الزيارات: ص ١١٦-١١٧.

ذرية رسول الله بأيدي أعداء الله وأعداء رسوله، والأدهى من ذلك أنهم يقتلون أولاد الأنبياء، ويتكلمون بكلام الصديقين، كما قالها ابن عفيف الأزدي أمام عبيد الله بن زياد في الكوفة^(١)، بل يتكلمون بكلام الله عز وجل، وهو ما أمر به تبارك وتعالى من تكبير وتهليل. وكما يقول الشاعر:

وَيُكَبِّرُونَ بِأَن قُتِلَتْ وَإِنَّمَا قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ^(٢)
 بل قتلوا القرآن ونحروه وضيّعوه، ولذا تقرأ في زيارة الإمام الحسين عليه السلام المطلقة:
 «...فَقُتِلَتْ مَظْلُومًا، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَ مَوْتورًا، وَأَصْبَحَ كِتَابُ اللَّهِ مِنْ أَجْلِكَ مَهْجُورًا»^(٣).

نعم، أصبح كتاب الله مهجوراً بكل أنحاء المهجر الثلاثة؛ فلم يقرؤوا الحسين ولم يتدبروه، ولم يعملوا بمضمونه ومداليه التي تخرجهم من الظلمات إلى النور، فو الله لحظهم أخطأوا، وعن ثواب الله زاغوا، وعن جوار محمد ﷺ تباعدوا^(٤).

وساعد الله قلب أمّه فاطمة الزهراء عليها السلام، كآني بها تناديه:
 مِنِّي حَاضِرَةٌ يَحْسِينُ بَيْنِي يَمَن رِيَّتْ ذَبَاحَكَ ذَبَحَنِي
 إِسْعَدَنِي عَلَى ابْنِي يَالْتَحِنِي صَوَابُهُ تَرَاهُ بَغْلَبِي وَشَعْبِي
 ونَسَانِي الضَّلْعَ وَسَوَادَ مَتْنِي

(١) أنظر: جواهر المطالب: ج ٢، ص ٢٩٣.

(٢) كتاب التعجب: ص ١١٧.

(٣) المقنعة: ص ٤٩٠.

(٤) اقتباس من قول الإمام الصادق عليه السلام. أنظر: كامل الزيارات: ص ٤٩٣.

أنا الوالدة والكلب لهفان وأدورّ عزه ابني وين ما چان
أويلي على ابني المات عطشان ولعبت عليه الخيل ميدان

وأما الموالي فينادي:

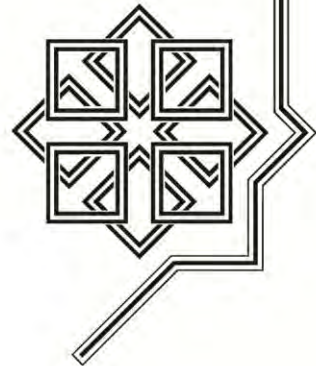
ما هو لأجل الثواب إيجيت واجره	لا جن نار بصميم الكلب وجره
إمصاب حسين أبد ما صار وجره	فرض كل يوم ننصبه عزّيه
اليمة تنصب بعاشور عشره	على الدايت ضلوعه خيول عشره
ولا تنسه الشبجت على الراس عشره	تنادي حسين خويه الحگ عليّ

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
والعاقبة للمتّقين.

الحاضرة الساهرة



التوسل
حقيقة قرآنية



دُم يَا حُسَيْنُ مَدَى الزَّمَانِ مُحَلِّدًا نَوْرًا وَصَوْتَ هَدَايَةِ لَنْ يُحْمَدَا
هَذَا طَرِيقُكَ وَهُوَ سَيْفٌ قَاطِعٌ فِيهِ نُحِطُّ مَنْ عَلَيْهِ تَمَرَّدَا
يَا سَيِّدَ الْأَحْرَارِ يَا رَمَزَ الْإِبَا لَوْلَاكَ مَا وَجَدَ الزَّمَانُ مُوَحِّدَا
شَيَّدْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ وَأَقَمَّتْهُ لَّمَّا سَلَلْتَ عَلَى الضَّلَالِ مُهَنِّدَا
وَبَذَلْتَ مَا مَلَكَتْ يَدَاكَ لِنَصْرِهِ حَتَّى اسْتَوَى رَغَمَ الْعَدُوِّ مُشِيدَا
تَاللَّهِ لَا نَنْسَاكَ يَا ابْنَ الْمُصْطَفَى فَوْقَ الصَّعِيدِ مُبْضَعًا وَمُجَرَّدَا
رَضُوا بِجُرْدِهِمْ قِرَاكَ وَأَضْرَمُوا نَارًا بِأَخْبِيَةِ الْمَكَارِمِ وَالنَّدَى
قَتَلُوكَ ضَمَانًا كَأَن لَمْ يَعْلَمُوا قَتَلُوا بِقَتْلِكَ فِي الطُّفُوفِ مُحَمَّدَا
وَسَبُّوا إِلَيْكَ كِرَائِمًا سَبَى الْإِمَا لِلشَّامِ فِي رَكْبٍ بِهِ الْحَادِي حِدَا
وَلِمَجْلِسِ الطَّاعِي جُلُوسِ حَوَاسِرَا يَنْدُبْنَ يَا جَدَّاهُ مَا بَيْنَ الْعَدَا^(١)

(١) القصيدة لأستاذنا الخطيب البارع المرحوم الشيخ محمد سعيد المنصوري رحمه الله، وهو الخطيب الكبير، محمد سعيد بن الشيخ موسى المنصوري، ولد في النجف الأشرف عام ١٣٥٠ هـ ق (في حدود ١٩٣١م)، درس المقدمات والسطوح في مسقط رأسه النجف الأشرف، ثم هاجر إلى إيران في حدود الستينيات، وسكن مدينة عبادان، وبقي ينتقل بينها وبين البصرة، وبقية محافظات العراق إلى زمان مجيء زمرة البعثيين المجرمة، ثم انتقل إلى مدينة قم المقدسة في سنة ١٩٨٠م، تتلمذ على يد مجموعة من فطاحل الخطابة أمثال أستاذه المرحوم السيد محمد سعيد العدناني الغريفي. لأستاذنا المنصوري حسٌ شعري رائع، وخطابة حسينية فريدة، ونغمة حنين نادرة، وعبرات وآهات تبكي صمّ الصخور قبل رقائق القلوب.

انتقل إلى رحمة الله وإلى جوار من أحبهم وندبهم وراثهم، وبكى عليهم ليلاً ونهاراً إلى جوار رسول الله وآله الأطهار إن شاء الله تعالى، وذلك يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادي الأول عام ١٤٢٨ هـ، فشيّع تشييعاً مهيباً من قبل العلماء وطلاب العلم وطلابه، ودفن في مثواه الأخير جنب ولده الخطيب المرحوم الشيخ عبد الحسين المنصوري الذي سبقه إلى القضاء؛ فتركه بحسرة شديدة وألم لظالمات قرائته على صفحات محياه، وذلك في قم المقدسة في مقبرة (باغ بهشت).

طبيت والديوان والناس متّجمعه من كلّ الأجناس
يهود ونصارى وكفر وأرجاس من شاهدوني مهبطه الراس
صاحوا يا زينب وين عباس

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

القرآن الكريم دستور متكامل، وكتاب هداية، يأخذ كلّ قارئ له بما يستوعبه عقله، ويحيط به فهمه، فيه العبارة، ولديه الإشارة، وفي طياته اللطائف، وفي أعماقه الحقائق. فقد يدرك البعض منه الأكثر، وقد يُدرك القليل منه الكثير، ولكن يحيط بفهمه مَنْ كان عدلاً وترجماناً له، وهم مَنْ أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا^(٢)، فإنه لا يمسه إلا المطهرون^(٣)، ولا يصل إلى حقائقه وفهمه المذنبون والمغفلون والظالمون، بل العلم والحفظ لا يؤتاه عاصي، كما في آداب المتعلمين^(٤).

للشيخ المنصوري^(٥) أسفار تبليغية في شتّى بقاع العالم الإسلامي؛ فقد سافر إلى الكويت والبحرين وقطر وعمان والإمارات وسوريا ولبنان فضلاً عن العراق وإيران وغيرها من الدول الأخرى. ترك أثاراً خالدة وصدقات جارية منها: تدريسه ثلّة من الخطباء وخدمة المنبر الحسيني. وتركه مؤلفات قيّمة في الشعر والأدب، من قبيل: مفاتيح الدّموع، وميراث المنبر، ومصابيح المنبر، وديوان السعيد، وتحفة الفنّ، وخلاصة مقتل الحسين.

فسلامٌ عليه يوم ولد ويوم مات يلهج بذكر أبي عبد الله الحسين^(٦)، ويوم يُبعث حياً.

(١) المائدة: آية ٣٥.

(٢) أنظر: الأحزاب: آية ٣٣.

(٣) أنظر: الواقعة: آية ٧٩.

(٤) أنظر: منية المريد: ص ٢٢٤.

ومن هنا روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كتاب الله عزّ وجلّ على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»^(١).

وقد اشتملت هذه الآية المباركة على أكثر هذه الأشياء الأربعة، التي أشار إليها الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام.

والخطاب في هذه الآية موجّه للمؤمنين: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾، وأمرهم أن يتّقوه ويحتنبوا معاصيه، ويتّبعوا إليه الوسيلة ويجاهدوا في سبيله لأجل الفلاح، فالآية مشتملة على أوامر ثلاثة: (التقوى، وابتغاء الوسيلة، والجهد في سبيله) وبما أنّ كلّ واحدة من هذه الثلاث تحتاج إلى بحثٍ مفصّل، سأقتصر في حديثي هنا على واحدة فقط، مع الإشارة إلى إرتباطها بالاثنتين، والواحدة هي الوسيلة والتوسّل وابتغاؤها الذي أمرنا به القرآن الكريم.

الوسيلة لغةً

قال الجوهري: «الوسيلة ما يُتقرّب به إلى الغير، والجمع الوasil والوسائل، والتوسّل واحد، يُقال: وسل فلان إلى ربّه وسيلةً، وتوسّل إليه بوسيلة، أي: تقرب إليه بعمل»^(٢).

وفي لسان العرب: «الوسيلة: المنزلة عند الله، والوسيلة الدرجة، والوسيلة القربة، ووسل فلان إلى الله وسيلةً إذا عمل عملاً تقرب به إليه، والواصل الراغب إلى الله»^(٣). فالوسيلة تشبه الذريعة إلّا أنّه يوجد بينهما فرق.

(١) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ١٠٣، ح ٨١.

(٢) الصحاح: ج ٥، ص ١٨٤١.

(٣) لسان العرب: ج ١١، ص ٧٢٤.

قال في الفروق اللغوية:

«الفرق بين الوسيلة والذريعة: أنَّ الوسيلة عند أهل اللغة هي القربة، وأصلها من قولك: سألت أسأل، أي: طلبت، وهما يتساووان أي: يطلبان القربة التي ينبغي أن يُطلب مثلها، وتقول: توسّلت إليه بكذا، فتجعل كذا طريقاً إلى بغيتك عنده، والذريعة إلى الشيء هي الطريقة إليه، ولهذا يُقال: جعلت كذا ذريعة إلى كذا، فتجعل الذريعة هي الطريقة نفسها، وليست الوسيلة هي الطريقة، فالفرق بينهما بيّن»^(١).

وكلام أهل اللغة لا يخرج عن هذا المعنى في بيان الوسيلة، وما ذكرته خلاصة ما يمكن أن يقال في الوسيلة لغةً.

الوسيلة اصطلاحاً

وأما الوسيلة عند المفسرين في الآية المباركة - بعد اتفاقهم على أنه شيء يُتوصل به إلى الله عزّ وجلّ - فقد وقع الخلاف في بيانها على أقوال:

القول الأول: أنَّ المقصود من الوسيلة في الآية المباركة محل البحث، وفي الآية الأخرى التي وردت فيها هذه المفردة، وهي قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾^(٢) هو القربة، ولعل هذا مشهور مفسري الجمهور، كالطبري^(٣) والسمرقندي^(٤) والسمعاني^(٥) وصاحب زاد المسير^(٦) في أحد قوليه، والحاكم في المستدرک^(٧).

(١) الفروق اللغوية: ص ٥٧٢.

(٢) الإسراء: آية ٥٧.

(٣) أنظر: جامع البيان: ج ٦، ص ٣٠٨.

(٤) أنظر: تفسير السمرقندي: ج ١، ص ٤١١.

(٥) أنظر: تفسير السمعاني: ج ١، ص ٤١١.

(٦) أنظر: زاد المسير: ج ٢، ص ٢٧٢.

والذي يؤخذ على هؤلاء أنّهم لم يفسّروا الماء - بعد الجهد - إلاّ بالماء؛ فإنّهم لم يزدوا على بيان الوسيلة شيئاً، فما هذه القرية التي يُتقرّب بها إليه عزّ وجلّ، فهل هي الصلاة، أم الصوم، أم ماذا؟

وعلى سبيل المثال، فالطبري قال ما نصّه: «واطلبوا القرية إليه بالعمل بما يرضيه»^(١)، ولعلّه يقصد كلّ ما يرضيه، وحينئذٍ يكون قوله كالقول الثاني الآتي.

القول الثاني: أنّ المقصود بالوسيلة الواردة في القرآن الكريم، هو: كلّ شيء يُتوسّل به إلى الله من قرابة أو صنعة أو غير ذلك، كما نصّ عليه النسفي في تفسيره^(٢).

والأمر حينئذٍ يكون واضحاً من دون حاجة للإكثار من ذكر المصاديق، فعلى هذا القول كلّ ما يمكن التقرّب به إلى الله عزّ وجلّ، من صلاة، أو صيام، أو تقوى، أو ترك غيبة، أو إحسان وما شاكل ذلك، فهو من الوسيلة التي أمر بها الله عزّ وجلّ.

قال الراغب الأصفهاني: «وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحريّ مكارم الشريعة، وهي كالقرية، والواصل الراغب إلى الله تعالى»^(٣).

وقال ابن عربي في تفسيره: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالتركية، ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ بالتحلية، ﴿وَجْهَدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ بمحو الصفات والفناء بالذات ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ من ظهور بقايا الصفات والذات^(٤).

القول الثالث: شخصُ النبي الأكرم ﷺ أو الإمام المعصوم عليه السلام، وقد دلّت على ذلك روايات من الفريقين.

(١) أنظر: المستدرک على الصحيحين: ج ٢، ص ٣١٢.

(٢) جامع البيان: ج ٦، ص ٣٠٨.

(٣) أنظر: تفسير النسفي: ج ١، ص ٢٨١.

(٤) مفردات غريب القرآن: ص ٥٢٤.

(٥) تفسير ابن عربي: ج ١، ص ٢٠١.

منها: ما ذكره في الإنصاف، قال: «قال الإمام أحمد للمروزي: يتوسّل بالنبي ﷺ في دعائه، وجزم به في المستوعب وغيره، وجعله الشيخ تقي الدين كمسألة اليمين به، قال: والتوسّل بالإيمان به، وطاعته ومحبته، والصلاة والسلام، وبدعائه وشفاعته، ونحوه، ممّا هو من فعله أو أفعال العباد المأمور بها في حقّه، مشروع اجماعاً، وهو من الوسيلة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(١).

ومنها: ما في العهود المحمدية، عن عائشة، قالت: «مفتاح قضاء الحاجة الهدية بين يديها، فإذا حمدنا الله تعالى رضي عنّا، وإذا صلّينا على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم شفع لنا عند الله في قضاء تلك الحاجة، وقد قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾. وتأمّل بيوت الحُكّام [والكلام لصاحب العهود المحمدية] تجدها لا بدّ لك فيها من الوسطة الذي له قرب عند الحُكّام، وإدلال عليه؛ ليمشي لك في قضاء حاجتك، ولو أنّك طلبت الوصول إليه بلا واسطة لم تصل إلى ذلك.

وإيضاح ذلك: أنّ مَنْ كان قريباً من الملك، فهو أعرف بالألفاظ التي يخاطب بها الملك، وأعرف بوقت قضاء الحوائج، ففي سؤالنا للوسائط سلوك للأدب معهم، وسرعة لقضاء حوائجنا، ومن أين لأمثالنا أن يعرف أدب خطاب الله عزّ وجلّ. إذا سألتكم الله حاجة فاسألوه بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وقولوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ أَنْ تَفْعَلَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ اللَّهَ مَلَكاً يَبْلُغُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويقول له: إِنَّ فُلَانًا سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى بِحَقِّكَ فِي حَاجَةٍ كَذَا وَكَذَا، فَيَسْأَلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ فِي قَضَاءِ تِلْكَ الْحَاجَةِ فَيَجَابُ؛ لِأَنَّ دَعَاءَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا يُرَدُّ. قال: وكذلك القول في سؤالكم الله تعالى بأوليائه، فَإِنَّ الْمَلَكَ يَبْلُغُهُمْ فَيُشْفَعُونَ لَهُ فِي

(١) الإنصاف: ج ٢، ص ٤٥٦.

قضاء تلك الحاجة»^(١).

ومنها: ما في مجمع البيان عنه عليه السلام أنّه قال: «سلوا الله الوسيلة، فإنّها درجة في الجنّة لا بناها إلاّ عبد واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»^(٢).

ومنها: ما أخرجه البخاري من أنّ عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقوا بالعباس بن عبد المطلب، فقال: «اللهم إنا كنّا نتوسّل إليك نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبينا فاسقنا. قال: فيُسقون» وعلّق عليه ابن حجر في فتح الباري قائلاً: «ويستفاد من قصّة العباس استحباب الإستشفاع بأهل الخير والصلاح، وأهل بيت النبوة»^(٣).

وروى الشيخ الصدوق عليه السلام عن الإمام الباقر عليه السلام رواية تنهى عن سؤال الحاجة من المخالفين، وقد علّل الإمام عليه السلام ذلك بقوله: «لا تسألوهم الحوائج؛ فتكونوا لهم الوسيلة إلى رسول الله يوم القيامة»^(٤).

وأما الروايات الواردة في خصوص طرقنا في معنى الوسيلة، وأنها الإمام المعصوم عليه السلام، فهي كثيرة، ووردت باللسن متعددة.

منها: ما عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «نحن الوسيلة إلى الله»^(٥).

منها: ما ورد بلسان أمير المؤمنين عليه السلام «أنا وسيلته»^(٦).

ومنها ما ورد في بعض الأدعية والزيارات، كما في قوله عليه السلام: «وجعلتهم الوسيلة إلى

(١) العهود المحمّدية: ص ٢٨٠.

(٢) مجمع البيان: ج ٢، ص ٣٢٦ - ص ٣٢٧.

(٣) فتح الباري: ج ٢، ص ٤١٣.

(٤) علل الشرائع: ج ٢، ص ٥٦٤، ج ٢.

(٥) بحار الأنوار: ج ٢٥، ص ٢٣.

(٦) مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٢٧٣.

رضوانك^(١)، أو «وجعلتهم الذرائع إليك، والوسيلة إلى رضوانك»^(٢) كما في دعاء الندبة. وفي دعاء الإمام السجاد عليه السلام في عرفة: «وجعلتهم الوسيلة إليك، والمسلك إلى جنتك»^(٣).

ولنعمة ما قال الشاعر:

أَلْ نَبِيِّ ذَرِيعَتِي وَهُمْ إِلَيْهِ وَسِيلَتِي
أَرْجُو بَأْنَ أُعْطِيَ غَدًا بِيَدِ الْيَمِينِ صَحِيفَتِي^(٤)

ورحم الله السيّد الحميري حيث يقول:

وَإِذَا الرِّجَالُ تَوَسَّلُوا بِوَسِيلَةٍ فَوَسِيلَتِي حَبِّي لَأَلِ مُحَمَّدٍ^(٥)

ويكفيك إذعاناً بذلك مراجعة سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا عَرِفُؤًا يَدْعُوهُمْ خَطُوطًا عَمَلًا صَلَاحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٦)، فالمروي عن المعصوم عليه السلام أنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر، وكان رسول الله ﷺ لما حاصر بني قريظة، قالوا له: ابعث إلينا أبا لبابة نستشيره في أمرنا، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا لُبابة، أئت حلفاءك ومواليك» فأتاهم، فقالوا له: يا أبا لُبابة، ما ترى ننزل على حكم محمد؟ فقال: أنزلوا واعلموا أن حكمه فيكم هو الذبح! وأشار إلى حلقه، ثم ندم على ذلك، فقال: خنت الله ورسوله، ونزل من حصنهم، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ، ومَرَّ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَشَدَّ فِي عُنُقِهِ حَبْلًا، ثُمَّ شَدَّهُ إِلَى الْإِسْطَوَانَةِ الَّتِي تُسَمَّى إِسْطَوَانَةَ التَّوْبَةِ، وَقَالَ: لَا

(١) مكيا المكارم: ج ١، ص ٣٢٦.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٩، ص ١٠٥.

(٣) إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٩١.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٣.

(٥) مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٩٩.

(٦) التوبة: آية ١٠٢.

أحلّه حتّى أموت، أو يتوب الله عليّ، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «أمّا لو أتانا لاستغرفنا الله له، فأما إذا قصد إلى الله ربه فالله أولى به». وكان أبو لبابة يصوم النهار ويأكل بالليل ما يمسك به رmqه، فكانت ابنته تأتيه بعشائه، وتحلّه عند قضاء الحاجة، فلمّا كان بعد ذلك ورسول الله ﷺ في بيت أمّ سلمة، نزلت توبته، فقال: «يا أمّ سلمة، قد تاب الله على أبي لبابة»، فقالت: يا رسول الله، أفأؤذنه بذلك؟ فقال: لتفعلن، فأخرجت رأسها من الحجرة، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر! قد تاب الله عليك، فقال: الحمد لله، فوثب المسلمون ليحلّوه، فقال: لا والله، حتّى يحلّني رسول الله، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا لبابة، قد تاب الله عليك توبةً لو ولدت من أمّك يومك هذا لكفاك»^(١).

هذا ؛ لأنّ أبا لبابة لم يقتل نبياً، ولا حجةً من حجج الله، وإلّا لما قبلت توبته؛ لما روي في الكافي الشريف: «... فأما ما يجب فيه النار فرجلٌ يقصد لرجل مؤمن من أولياء الله فيقتله على دينه متممداً، فقد وجبت فيه النار حتماً وليس له إلى التوبة سبيلٌ، ومثل ذلك مثل من قتل نبياً من أنبياء الله عزّ وجل، أو حجةً من حجج الله على دينه، أو ما يقرب من هذه المنازل فليس له توبة...»^(٢).

والذين تكاثروا على الإمام الحسين عليه السلام فقتلوه، لم يكتفوا بقتله فحسب، بل مثّلوا بجسده الطاهر، وسبوا عياله من بلدٍ إلى بلد، وكأني بالخوراء زينب عليها السلام تنادي أمّها فاطمة عليها السلام:

يا فاطمة يمم الميامين	يلگبرچ خفي مايندره وين
أخبرچ بالجره والصار بحسين	ظل علشره من غير تكفين
وعباس البطل مگطوع الايدين	واتسلّبت كلّ النساوين

(١) أنظر: تفسير القمي: ج ١، ص ٣٠٣ - ص ٣٠٤.

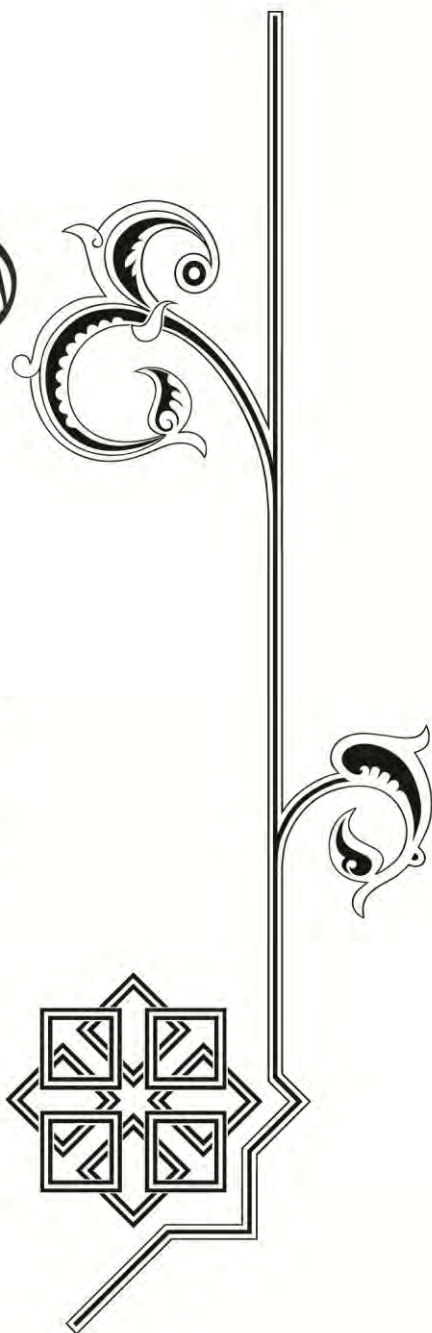
(٢) الكافي: ج ٧، ص ٢٧٧.

وأنا ادخلت يَمَّه الدواوين

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
والعاقبة للمتقين.

الحاضرة السابعة

الصَّبْرُ



حَكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي
 بِنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُجْبَرًا حَتَّى
 طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
 وَمَكْلَفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا
 وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّهَا
 فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ
 وَالنَفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ
 إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِالْدَهْرِ الَّذِي
 تُحَرَّتْ نَحْوُ رُفْهُمُ بِعَرَصَةِ كَرْبَلَا
 أَبْكِيهِمْ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَبَيْنَهُمْ
 لَمْ أَنْسَهُ وَالسَّبْطُ جَاثٍ حَوْلَهُ
 يَا كَوْكَبًا مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمْرِهِ
 عَجَلَ الْخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَوَانِهِ
 فَكَأَنَّ قَلْبِي قَبْرَهُ وَكَأَنَّه
 جَاوَرْتُ أَعْدَائِي وَجَاوَرَ رَبَّهُ
 مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
 يُرَى خَبْرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ
 صَفْوًا مِّنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
 مَتَطَلَّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةٌ نَّارٍ
 تَبْنِي الرِّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَارٍ
 وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٌ سَارٍ
 مَتَقَادَةٌ بِأَزْمَةٍ الْأَقْدَارِ
 أَوْدَى بِآلِ الْمُصْطَفَى الْأَبْرَارِ
 عَطَشًا وَمَاءَ النَّهْرِ فِيهَا جَارِي
 ثَاوِ شَيْبَةَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ
 يَدْعُو بِدَمْعٍ هَاطِلٍ مِّدْرَارٍ
 وَكَذَا تَكُونُ كَوَاكِبُ الْأَسْحَارِ
 فَطَوَاهُ قَبْلَ مَظْنَةِ الْإِبْدَارِ
 فِي طَيِّبِهِ سُرٌّ مِّنَ الْأَسْرَارِ
 شَتَانٌ بَيْنَ جَوَارِهِ وَجَوَارِ^(١)

(١) القصيدة لأبي الحسن التهامي رحمته الله، قال عنه الزركلي في الأعلام: (ج٤، ص٣٢٧). وابن خلكان في وفيات الأعيان: (ج٣، ص٣٧٨ - ص٤٧١): «هو علي بن محمد بن فهد أبو الحسن التهامي الشاعر، مولده ومنتشؤه باليمن وطراً على الشام وسافر منها إلى العراق وإلى الجبل، ولقي صاحب بن عباد وقرأ عليه، وتقلد الخطابة بالرملة وتزوج بها، وكانت نفسه تحدثه بمعالي الأمور، وكان يكتفم نسبه فيقول تارة: إنه من الطالبين، وتارة من غيرهم، ولا يتظاهر بشيء من الأمرين، نسخ شعر البحتري... أُعتقل بخزانة البنود بالقاهرة لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٦ هـ، ثم إنه

(أبوذية)

شافه والنبل نابت عليّ راح غعد عنده وصفگ راح على راح
وگام وصاح يا زينب علي راح یختي أظلمت الدنيا عليّ

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ

قُتِلَ سِرّاً فِي سَجْنِهِ تَاسِعَ جُمَادِي الْأُولَى مِنْ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَكَانَ أَصْفَرُ اللَّوْنِ، وَرُئِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي الْمَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ: غَضَرَ لِي. فَقِيلَ لَهُ: بِأَيِّ الْأَعْمَالِ؟ قَالَ: بِقَوْلِي فِي مَرثِيَةِ وَلَدٍ لِي صَغِيرٍ، وَهُوَ:

جاورت أعدائي وجاور ربّه شتان بين جواره وجواري

وهذه القصيدة قالها في رثاء ابنه، وقد عدت من عيون قصائد الرثاء والحكمة.

مَنْ رَبَّيْهِمْ وَرَحْمَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعِدُونَ ﴿١﴾.

الصبر

هو حبس النفس عما تُحب وترك الجزع عندما تكره. وهو أيضاً تحمّل الإنسان لحالة حدثت له تستدعي فيه التحمّل والهدوء، ومعالجة الأمور بتعقل ولو طالّت مدّة هذه الحالة.

مثل تحمّل المريض لمرضه، وصاحب المصيبة لمصيبته، وأيضاً تحمّل الإنسان لترك الذنوب، وتحمّل البقاء على شكر الله عند حصول النعمة، والاستمرار في طاعته وعدم معصيته.

والصبر من فروع الرضا بقضاء الله وقدره، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وضده الجزع الذي هو عدم الصبر على البلاء. وقد قُسم الصبرُ إلى أقسام وأنواع منها:

١ - الصبر على الطاعة

بمعنى أن يتحمّل المداومة التي تحتاجها الطاعة، فترى البعض من الناس ليس عنده القدرة على تحمّل ركعتي صلاة الصبح، بل أكثر من ذلك، البعض لا يستطيع أن يتحمّل الزمان الذي يستغرقه الأذان أو تستغرقه الإقامة.

حكى أن أحد الولاة - ولعله معاوية بن يزيد بن معاوية - سمع أحد الرعية يدعو عليه بالهلاك، ويقول: اللَّهُمَّ خَلِّصْنَا مِنْهُ. فخرج هذا الوالي، وقال له: علامَ أنت تدعو عليّ وأنا لم يكن لي معكم إلاّ بعض الأيام، فما لكم قد مللتموني؟! قال الرجل: أيها الوالي! إنني أبتدأ بالأذان وأشرع حتّى إذا بلغت وسطه مللتُ

(١) البقرة: آية ١٥٥ - آية ١٥٧.

فقطعته^(١).

فهذا نموذج من الناس تراهم ليس لهم القابلية على تحمّل أبسط الأمور، وهذه الحالة تعتري الكثير من بني البشر.

فالصبر على المداومة على الطاعة - بالحقيقة - هو صبر على النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان؛ بأن يصبر على الشكر لصاحب النعمة، وهو الله فيسير في طريق الإستقامة، فيصبر على الطاعة كما يصبر على أن لا يعصي خالقه، ويستمر في العبادة والصلاة لوقتها وصوم شهر رمضان وغير ذلك، وهو بتوفيق الله تعالى والمداومة يصبح يسيراً، وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّا وَجَدْنَا الصَّبْرَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِهِ»^(٢).

٢ - الصبر على عدم معصية الله

بأن يصبر أن لا يغتاب، ولا يكذب، ولا يتكبر، ولا يرتكب المحرمات، وغيرها، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اصبروا على عمل لا غنى لكم عن ثوابه، واصبروا على عمل لا طاقة لكم على عقابه»^(٣).

وهذا النوع من الصبر من الأنواع التي تحتاج إلى المجاهدة والرياضة النفسية العالية، حتى قيل: إن الصبر على عدم المعصية أفضل من كل مراتب الصبر^(٤).

٣ - الصبر على البلاء والمصائب

وهذا هو محل الكلام، فكل إنسان يعاني من هذه الأمور، فإن أراد الراحة في الدنيا والثواب في الآخرة، فعليه أن يصبر ويسلم أمره إلى الله، ويتوكل عليه ويرضى بقضاء الله

(١) لم أعرش على مصدرها، وإن كنت قرأتها من قبل في كتاب طرائف، لم يحضرني اسمه.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٢٦١، ح ٧.

(٣) أمالي الصدوق: ص ١٧٠، ضمن الحديث الخامس.

(٤) الأربعون حديثاً: ص ٢٥١.

وقدره، ويحاول أن يعالج البلاء بتعقل وهدوء.

فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الجنة مخوفةٌ بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في دار الدنيا دخل الجنة، وجهنم مخوفةٌ باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار»^(١).

ولتأملنا في الآيات التي افتتحنها بها المحاضرة، نلاحظ عدة امتحانات وبأشكال مختلفة، فتارةً يكون الامتحان عن طريق الخوف، وأخرى عن طريق الجوع، وثالثة عن طريق النقص في الأموال والأنفس من خلال الموت وما شاكلة، فالآية تعرضت للاختبار الإلهي العام، ولظواهره المختلفة، باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير، وكما كان الانتصار في هذه الاختبارات لا يتحقق إلا في ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلك: (وبشّر الصابرين)، فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات لا غيرهم.

ثم الآية التي بعدها تُعرّف الصابرين، وتقول: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، بالإقرار التام بالعبودية المطلقة لله يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا؛ لأنه سبحانه مالكننا ومالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إياها، وإن استوجبت المصلحة أخذها سلبها مِنَّا، وفي المنحة والمحنة مصلحة لنا.

والالتفات المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى الله سبحانه وتعالى، يشعُرنا بزوال هذه الحياة، وبأن نقص المواهب المادية وتوفرها عرض زائل، ووسيلة لارتقاء الإنسان إلى سلم تكامله، فاستشعار العبودية والعودة في عبارة (إنا لله وإنا إليه راجعون) له الأثر الكبير في تعميق روح المقاومة والاستقامة والصبر في النفس^(٢).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٨٩ - ص ٩٠، ح ٧.

(٢) روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه قال: «إِن قَوْلُنَا: إِنَّا لِلَّهِ، إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمَلِكِ، وَقَوْلُنَا: إِنَّا إِلَيْهِ

ومن الواضح أنَّ المقصود من قول هذه العبارة ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقة، والاتفات إلى ما تنطوي عليه من توحيد وإيمان^(١).

وقد يسأل سائل: لماذا هذا الاختبار الإلهي وبأشكاله المختلفة؟ من عادتنا نحن البشر أن نختبر الأفراد؛ لنفهم ما نجهله عنهم، فهل الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الاختبار لعباده، وهو العالم بكلِّ الخفايا والأسرار؟! وهل هناك شيء خَفِيَ عنه سبحانه وتعالى حتَّى يظهر له من خلال ذلك؟!!

والجواب: إنَّ مفهوم الاختبار الإلهي يختلف عن الاختبار البشري؛ لأنَّ اختبارات البشر بعضهم للبعض الآخر غايتها - كما ذكر آنفاً - لرفع الإبهام والجهل، وأمَّا الاختبار الإلهي فالأمر فيه ليس كذلك، بل المقصود منه التربية.

فالاختبار الإلهي يشبه عمل مزارعٍ خبيرٍ، يثر البذور الصالحة في الأرض الصالحة؛ كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة، وتبدأ بالنمو، ثُمَّ تصارع هذه البذور كلَّ المشاكل والصعاب بالتدريج، وتقاوم الحوادث المختلفة كالرياح العاتية، والبرد الشديد، والحرَّ اللاّفح؛ لتخرج بعد ذلك نبتة مزهرة أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب.

وهذا هو سرُّ الاختبارات الإلهية، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢)، فمع أنَّه تبارك وتعالى عليم بذات الصدور، ولا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض، وما تسقط من ورقة ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاَّ وهو تعالى مطلع عليه

راجعون: إقرار على أنفسنا بالهلك». نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦٤٦، الحكمة رقم ٩٩.

(١) تفسير الأمثل: ج ١، ص ٤٤٠ - ص ٤٤٢. (بتصرف).

(٢) آل عمران: آية ١٥٤.

وحاضر لديه، إلاَّ أنه يتلي عباده لا ليفهم ويطلع، بل ليري ويروض.

ومن هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة مبيِّناً سبب الاختبارات الإلهية «... وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يُستحقُّ الثواب والعقاب»^(١)، أي أنَّ الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلا بدَّ أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، والله يختبر عباده؛ ليتجلَّى ما يضمرونه في أعمالهم، ولكي تنتقل قابليَّاتهم من القوَّة إلى الفعل، وبذلك يستحقُّون الثواب أو العقاب. فإذا صبر الإنسان على ما ابتلاه به الله تبارك وتعالى من خوف، أو جوع، أو نقصٍ في الثمرات، أو الأنفس، أو غير ذلك، أعطى الصبرُ نتائجَه؛ لأنَّ لكلِّ زرعٍ ثمراً، ولكلِّ فعل ردَّ فعل.

وأولُّ نتائج الصبر هذا هو ما ذكرته الآية الأخيرة من الآيات التي صدرنا بها المحاضرة، وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرةٍ من أمرهم، في مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والأخطار؛ لذلك تقول الآية: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(٢). والنتيجة الثانية المترتبة على الصبر هي: الراحة في دار الدنيا، والثواب العظيم في الآخرة.

والنتيجة الثالثة هي: حبَّ الله تبارك وتعالى للصابرين، حيث قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

والنتيجة الرابعة هي: كون الله تبارك وتعالى معهم، إذ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٦٤٥، الحكمة رقم ٩٣.

(٢) أنظر: تفسير الأمل: ج١، ص٤٤١.

(٣) آل عمران: آية ١٤٦.

الصَّابِرِينَ ﴿١﴾.

والنتيجة الخامسة هي: التحية والسلام من الله عز وجل، قال تعالى: ﴿سَلِّمُوا عَلَيَّ كَمَا صَلَّيْتُمْ عَلَىٰ آبَائِي﴾. صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢﴾.

وهذا فيض من غيظ، وقطرة من بحر متلاطم، من النتائج المترتبة على التمسك بالصبر، وإلا فالآيات عديدة، والروايات كثيرة وكثيرة جداً في الصبر وأجره وما أعدّه الله للصابرين، ممّا قد يخرج عن حدّ الإحصاء.

لقد روي أنّ نبيّ الله عيسى عليه السلام: «مرّ برجلٍ أعمى وأبرص ومقعّد، مضروب الجنين بالفالج، قد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني ممّا ابتلى به كثيراً من خلقه. فقال له نبيّ الله عيسى عليه السلام: يا هذا، وأي شيء من البلاء تراه مصروفاً عنك؟ فقال: يا روح الله، أنا خير ممّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال: صدقت، هات يدك. فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجهاً، وأفضلهم هيئةً، قد أذهب الله عنه ما كان به» ﴿٣﴾.

هذا الرجل الذي سمعتم حكايته كان يحمّد الله على معرفته به، ولكن من المقطوع به أنّه لم يُصب كما أصاب الدهر أبا عبد الله الحسين عليه السلام، صاحب المصيبة والرزية العظمى، حيث ورد عنه عليه السلام أنّه قال بعد أن تفاقم الخطب أمامه في كربلاء، واستشهد أصحابه وأهل بيته: «هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله» ﴿٤﴾.

ما أعظمكم يا آل محمّد! انظروا ما يقول: بأبي وأمي: إنّ الذي خفف عليّ هذه المصائب، وهذه الرزايا والمحن كونها في منظر الله تبارك وتعالى، فهو يعلم بها، ويحتسبها

(١) الأنفال: آية ٤٦.

(٢) الرعد: آية ٢٤.

(٣) مُسَكَّنُ الْفُؤَاد: ص ٨٧. بحار الأنوار: ج ٧٩، ص ١٥٣. ص ١٥٤.

(٤) اللهوف: ص ٦٩، عنه البحار: ج ٤٥، ص ٤٦.

عنده ليوم لا ريب فيه.

ولكن يقول كما يقول جدّه المصطفى ﷺ: «العين تدمع، والقلب يحزن... وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١)، وكذلك: وإنا بفراقك يا عليّ الأكبر لمحزونون، وخاصّة أنّه أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً بالنبيّ الأعظم ﷺ، فالحسين يوم عاشوراء - بالحقيقة - فقد النظر إلى رسول الله ﷺ، وهذا ما يعظّم الخطب.

ولذا قالوا: إنّ أبا عبد الله الحسين عليه السلام صار في حالة احتضار عند مصرع ولده عليّ الأكبر، زينب تعلم أنّه إذا بقي الحسين عند مصرع ولده عليّ واضعاً خده على خده سوف تفارق روحه الدنيا، فأرادت زينب عليها السلام أن تحافظ على حياة أخيها الحسين، وأن تشغله عن مصيبة ولده؛ لذا خرجت من الخيمة تنادي وا عليه وا نورَ بصراه وا ثمرة فؤاده، لما سمع الحسين صوت زينب قام إليها قائلاً: أخيه زينب ارجعي إلى الخيمة، لا تُشمتي بنا الأعداء، فرجعت زينب عليها السلام، ولكن لما جيء به إلى الخيمة أقبلت حتّى رمت بنفسها على جسده، وهي تنادي: وا عليه.

هوت فوگه تحب خده وتشمه وغدت تصبغ وجهها إبيض دمه
عسه إبعيد البله تكله يعمه عله التريان نايم ليش بالحرّ

بعد ذلك جاءت إليه أمّه ليلي - بعدما أتوا به إلى المخيم - وقعت عليه، احتضنته، وهي تشمه وتضمّه، وأحاطت به عمّاته وأخواته يمينه ويندبته، وكذلك حضر والده الحسين عليه السلام، وكأني به يخاطب ولده الأكبر عليه السلام:

(١) صحيح البخاري: ج ٢، ص ٨٥.

ييويه إشلون ما تبجي الزجيّه
 ييويه جدك اوجدتك هيّه
 ييويه يا لفجعني ابفگدك البين
 اشحال أمك الظلت بالصواوين
 اوگطع بيني الدهر وصلك عليّ
 أعتنوا بيني يعزوني على فگدك
 يا روعي اوچبدتي اوشوفت العين
 تهل اعيونها اوتربي اعله دربك

أما أمّه ليلي فكأنّي بها تخاطبه:

گلبي ايبا سبب بيني وداعي
 أنا ما أطلب بحگي وداعي
 تصد عني اولا تسمع وداعي
 گلي اوداعة الله اوهاي هيّه

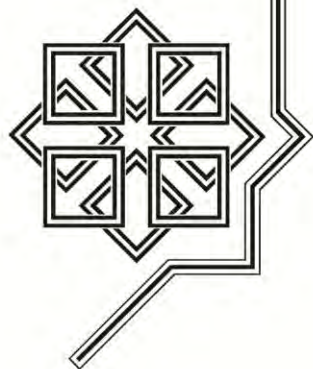
يا كوكباً ما كان أقصرَ - عمره وكذا تكون كواكب الأسحارِ

إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ،
 وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
 والعاقبة للمتقين.

الحاضرة القائمة



العناية



خانَ الزمانُ بنا فشتَّنا كما
 لم أنسه بينَ العدى وجيئته
 أفديه من بطلٍ مهيبٍ إن سطا
 شهْمُ دَعته إلى البسالة هاشمُ
 حتَّى إذا ما أثخنوه بالضُّبا
 جاءوا إلى ابن زياد فيه فمذُ رأى
 قال اصعدوا للقصر وارموا جسمه
 صعدوا به للقصر - وهو مكبَّلُ
 قتلوه ظامٍ لم يبل فؤاده
 دفعوه من أعلى الطَّمار إلى الثرى
 خانت بنو صخرٍ بيعةً (مُسلم)
 كالبدْرِ في ليلِ العجاج المظلمِ
 لفَّ الجموعَ مؤخَّراً بمقدِّمِ
 والشبلُ للأسدِ المجربِ يتمي
 ضرباً وفي وسط الحفيرة قد رُمي
 للقصر قد وافته غير مُسلمِ
 ومن الوريدين إخضبوه بالدمِ
 تجري دماؤه من الجوارح والفمِ
 أفديه من ظامٍ الحشا متضرِّمِ
 فكسَّرت منه حنايا الأعظم^(١)

(١) القصيدة للسيد مهدي الأعرجي رحمته الله، قال عنه السيّد جواد شبر رحمته الله في أدب الطف (ج ٩: ص ١٩٢-ص ١٩٨): «السيد مهدي الأعرجي ابن السيد راضي ابن السيد حسين ابن السيد علي الحسيني الأعرجي البغدادي، ولد السيد مهدي في النجف الأشرف سنة ١٣٢٢ هـ ق، درس فن الخطابة على خاله الخطيب الشهير الشيخ قاسم الحلبي، زاول نظم الشعر وعمره أربعة عشر سنة، وأول قصيدة نظمها هي قصيدة في رثاء الإمام الحسن السبط عليه السلام»:

قضى الزكي فتوحوا يا محبيه وأبكوا عليه فذي الأملاك تبكيه

درس العربية والعروض على العلامة الكبير شيخ الأدب السيد رضا الهندي رحمته الله، توفي السيد مهدي سنة ١٣٥٩ هـ ق غريقاً بشط الفرات في الحلة يوم الخامس من شهر رجب، جمع ديوانه شقيقه الخطيب السيد حبيب، وللسيد الأعرجي ظرافة وخفة روح بالرغم من الجهمة التي لا تقارق محيَّاه، فلا تكاد تقوته النادرة والنكتة، وأمّا ولاؤه لأهل البيت وتقانيه في حبِّهم فهو من ألح ميزاته، ولا زلت أتمنّاه في المآتم الحسينية يجesh بالبكاء، وقد أفنى عمره في خدمة المنبر الحسيني».

يمسلم وين ذاك اليوم عبّاس يحبك بشيمته ومفرّع الراس
اويشوفك يوم صابك نذل الأرجاس وهويت من الكصر فوك الوطيه
يمسلم وين ذاك اليوم عمّك يحبك إيعاينك غارج إيدمك
وحيد ومحمد من الناس يّمك غريب إيهل البلد مالك تجيه

(أبوزية)

عدوك چيف يا مسلم تجاره ابجل جسمك يشدونه تجاره
لمصابك دمع عيني تجاره او عليك الروح يا مسلم شجيه

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

إنّ الغاية من خلق السماوات والأرضين وجميع المخلوقات، هي العبادة والخضوع
للخالق العظيم بنية خالصة عن طريق معرفته عز وجلّ.

ومن أهمّ الأسئلة التي تختلج في صدر كلّ إنسان: لمُ خلقنا؟! وما الهدف من خلق
الناس، والمجيء إلى هذه الدنيا؟!

لا شك أنّ كلّ فردٍ عاقلٍ وحكيمٍ حين يقوم بعمل ما فإنّما يهدف من وراء عمله إلى
هدف معيّن، فكيف بالله تعالى، وهو الحكيم العليم الذي لا ينبغي قياسه بأيّ شيء، ما هو
هدفه من خلق الإنسان؟!

فهل كان يشعر بنقصٍ - أعوذ بالله - فارتفع ذلك النقص بخلق الإنسان؟!

أو كان محتاجاً - نستجير به تعالى - إلى شيء فارتفع الاحتياج بخلقنا؟!

وعليه فلا بدّ لله تبارك وتعالى من هدف؛ لأنّه سيّد العقلاء ولا يخلق شيئاً عن عبث،

(١) الذاريات: آية ٥٦.

فلا بدّ من هدف لله تبارك وتعالى وراء خلقه للإنسان.

وبحكم كونه تبارك وتعالى يمثل الكمال المطلق، وليس هناك من شيء يزيده أو ينقصه، لزم أن يكون الهدف عائداً للإنسان نفسه.

فما هو الهدف إذن؟

الهدف هو ما صرّحت به الآية المباركة، وهو العبودية، عبودية الإنسان الناقص للكمال المطلق، عبادة المحدود للمحدود.

إلا أننا لو تأملنا في بعض الآيات القرآنية الأخرى، لرأينا أنها تشير إلى أهداف أخرى، ففي بعضها يصرح القرآن الكريم بأن الهدف من الخلق هو الامتحان.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١).

وفي آية أخرى نجد أنّ الهدف من خلق الإنسان هو حتّى يعلم بقدره الله تبارك وتعالى وعلمه عزّ وجلّ.

كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٢).

وآية ثالثة تشير إلى أنّ الهدف من الخلق هو الرحمة - رحمة الله -. قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٣).

وأما الآية التي هي محل البحث فهي - كما ذكرنا - صريحة بأنّ الهدف من خلق الله تبارك وتعالى للإنسان هو العبادة، بل إنّها تحصر علّة وسبب الخلق في العبادة، فما هو الوجه

(١) الملك: آية ٢.

(٢) الطلاق: آية ١٢.

(٣) هود: آية ١١٨. آية ١١٩.

في الحصر، ونحن نجد الآيات الأخرى تذكر أسباباً أخرى هي السبب في الخلق، وخاصة الآية الثالثة فهي صريحة جداً في تعيين سبب الخلق، حيث قال تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. ولو تأملنا قليلاً في مفهوم هذه الآيات وما شابهها نرى أنه لا تضاد ولا اختلاف بينها، ففي الحقيقة بعضها تشير إلى هدف مُقدّم، وبعضها إلى هدف متوسط، وبعضها إلى هدف نهائي، وبعضها إلى النتيجة.

فالهدف الأصل هو (العبودية)، وهو ما أُشير إليه في الآية التي هي محل البحث، أمّا العلم والامتحان وأمثالهما فهي أهداف ضمن مسير العبودية لله، ورحمة الله الواسعة نتيجة العبودية لله تبارك وتعالى.

وهكذا يظهر لنا بكلّ وضوح أننا خُلقنا لعبادة الله تبارك وتعالى، لكنّ المهم أن نعرف ما هي حقيقة هذه العبادة؟!

فهل المراد منها أداء المراسم أو المناسك اليومية وأمثالها من صوم وصلاة إلى غير ذلك؟ أو هي حقيقة وراء هذه الأمور وإن كانت المناسك كلّها واجدة للأهمية؟! وللإجابة على هذا السؤال ينبغي معرفة معنى كلمة (العبد) و(العبودية) وتحليلها، فالعبد لغةً: هو الإنسان المتعلّق بمولاه وصاحبه من قرنه إلى قدمه، وإرادته تابعة لإرادته، وما يطلبه ويتبعه تبع لطلب سيده وابتغائه، فلا يملك في قبالة شيئاً، وليس له أن يقصّر في طاعته^(١).

وهذا مفهوم عام يشمل حتّى العبيد مع مواليتهم العرفيين؛ ولذا يُذكر أن عبداً شاهد مولاه مهموماً، فقال هذا العبد - وكان مؤدّباً وعاقلاً - لمولاه: لماذا أنت مهموم؟ قال المولى: إنّي مديون والتفكير في الديون سلبني الراحة، فقال الغلام: حسناً، خذني إلى سوق الرقيق، وأعرضني للبيع وبثمني سدد ديونك.

(١) أنظر: تفسير الأمثل: ج ١٧، ص ١٣٢ - ص ١٣٤.

قال: إنَّ لديَّ قروضاً كثيرة وثمرتك لا يكفي لِعُشْرِ قروضي.

قال الغلام: سَعَّرني بنفس المقدار الذي أنت مدين به.

قال المولى: إنَّهم لا يشترونك بهذا السعر، قال الغلام: قل للزبائن إنَّ هذا الغلام لديه صفة حسنة جداً وارتفاعُ سعره ناجم عن حيازته تلك الصفة، و هي أنَّه يعرف جيِّداً أسلوب العبودية.

جاء المولى بالغلام - ولم يفهم مقصود الغلام جيداً - إلى سوق الرقيق، وسعَّره بسعرٍ يعادل عشرة أضعاف سعره الطبيعي، مثلاً إذا كان السعر المتعارف لهذا الغلام عشرة آلاف دينار كان يقول إنِّي أبيع هذا الغلام بمئة ألف دينار. وكان كلُّ مَنْ يسمع ذلك يضحك، إلى أن سألَه إنسان عاقل عن سبب ارتفاع سعر الغلام.

قال المولى: إنَّ ارتفاع سعر الغلام يرجع إلى أنَّه يعرف طريقة العبودية جيداً.

قال الرجل: إذا كان كما تقول فقيمتُهُ أكثر من ذلك، إنِّي اشتري هذا الغلام بشرط هذه الصفة، وإذا لم أجدها فيه يحقُّ لي فسخ المعاملة.

وخلاصة الأمر: دفع هذا الرجل المبلغ وهو مئة ألف دينار، وأخذ الغلام للبيت، ومن أجل أن يعلم معرفة الغلام طريقة العبودية أمرَ بضربه بالسوط، والغلام لا يبكي ولا يتأوه، ولا يسأل عن سبب ضربه بالسوط!

أمر الرجل بترك الغلام، ثمَّ قال له: ألم تكن تشعر بالألم؟ قال: نعم، قال: ألم تكن تعلم أنَّك تضرب بدون سبب؟ قال الغلام: نعم، قال الرجل: إذن لماذا لم تحتجِّ على ذلك؟ قال الغلام: أنا عبد وأنت مولى، ولا يليق أن يسأل العبد عن سبب تصرُّفات مولاه، فالعبد يجب أن يكون مطيعاً لمولاه مئة بالمئة، إذا أنعمت عليَّ فأنا مطيع لك، وإذا ضربتني بالسوط أنا مطيع لك^(١)، وهذا هو معنى العبد والعبودية، فهي تعني منتهى الخضوع والتسليم للمعبود.

(١) أنظر: الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ٥٢٣ - ص ٥٢٤.

والمعبود الوحيد الذي له حقَّ العبادة على الآخرين هو الذي بذل منتهى الإنعام والإكرام، وليس ذلك سوى الله سبحانه وتعالى.

ثمَّ إنّ العبادة على أقسام، فمنها: عبادة المحيِّين والمُلتذِّين والعارفين إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي تختلف باختلاف درجات القُرب من المولى عزَّ وجلَّ، ومن هنا قسَّم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العبادة إلى أقسام ثلاثة، قال عليه السلام: «إنَّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإنَّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوه شُكراً فتلك عبادة الأحرار»^(١).

وللعبادة عدَّة شروط مذكورة في محلها، أهمها:

١ - النية الخالصة لله: فليس الهدف من العبادة إرضاء الناس أو الحصول على مكسب دنيوي، بل يعبد الله قربة إلى الله.

٢ - حضور القلب: فبدون حضور القلب تعتبر العبادة ناقصة، والطريق إلى إكمالها هو الإتيان بالنوافل، كما أشارت إليه بعض الروايات الشريفة^(٢).

٣ - العلم: فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «لا خير في عبادة لا فقه فيها»^(٣).

٤ - الصلاة على محمد وآل محمد: فقد ورد أنَّ الدعاء محجوب حتَّى يصليَّ العبد على محمد وآل محمد^(٤).

ومن هنا قال الشافعي:

يا أهل بيت رسول الله حُبُّكُمْ فَرَضُ من الله في القرآن أنزَلُهُ
كَفَاكُم من عظيم القَدْرِ أنَّكُمْ مَنْ لم يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لا صلاة لَهُ^(٥)

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٥٣.

(٢) أنظر: وسائل الشيعة: ج ٤، ص ٥٣، باب عدد الفرائض اليومية، ح ٢٢.

(٣) مشكاة الأنوار: ص ٢٤٢.

(٤) أنظر: الكافي: ج ٢، ص ٤٩١، باب الصلاة على النبي وآله، ح ١.

(٥) إعانة الطالبين: ج ١، ص ٢٠٠.

٥ - اليقين: فعن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا عبادة إلاّ بيقين»^(١).

فإذا جاء الإنسان بهذه الشروط توقع من الله عزّ وجلّ حينئذٍ الثمار المترتبة على العبادة، وأهم هذه الثمرات الفوز بالآخرة والحياة السعيدة المطمئنة الأبدية، وغيرها من الثمرات الدنيوية والأخروية. وأعبد عباد الله الأنبياء والأوصياء، ثمّ الأئمة فبالأئمة.

وإذا أردنا أن نتعلّم العبادة وحقيقتها وكنهها، فلا بدّ أن نراجع سيرة أهل البيت عليهم السلام وأولادهم والذين نشأوا في بيوتهم وتربّوا في كنفهم. كانوا يقضون أيامهم بالعبادة، أمّا الليل فصافّون أقدامهم تالين لآيات القرآن، وأمّا النهار فصائمون حُلّماء أبرار.

ومن هذه البيوت، ومن هؤلاء الذين تغدّوا من ثدي الإمامة وعاشوا في كنفها، مسلم بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام، كان في بيت طوعة، وقُبيل الفجر جاءت إليه باءٌ ليتوضأ به قائلةً: يا مولاي ما رأيتك رقدت البارحة - حيث قضى تلك الليلة قائماً وقاعداً، راکعاً وساجداً - فقال لها: اعلمي أنّي رقدت رقدة فرأيت في منامي عمّي أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول: الوحي الوحي، العجل العجل، وما أظنّ إلاّ أنّه آخر أيامي من الدنيا.

فتوضأً وصلى صلاة الفجر، وكان مشغولاً بدعائه إذ سمع وقع حوافر الخيول وأصوات الرجال، فعرف أنّه قد أتى إليه، فعجل في دعائه، ثمّ لبس لامة حربيه، وقال: يا نفس، اخرجي إلى الموت الذي ليس له محيص.

فقالت المرأة: سيدي أراك تتأهب للموت! قال: نعم، لا بدّ لي من الموت وأنت قد أدّيت ما عليك من البرّ والإحسان، وأخذت نصيبك من شفاعة رسول الله ﷺ، فاقتموا عليه الدار وهم ثلاثمائة، وقيل: سبعون فارساً وراجلاً، فخاف مسلم أن يحرقوا عليه الدار، فخرج وشدّ عليهم حتّى أخرجهم من الدار، ثمّ عادوا إليه، فحمل عليهم وهو

(١) مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ١٩٦، ح ٨.

يقاتلهم ويقول:

هو الموتُ فاصنعَ وبِكَ ما أنتَ صانعُ فأنتَ بكأسِ الموتِ لا شكَّ جارِعُ
فصبراً لأمر الله جلَّ جلاله فحكم قضاء الله في الخلق واقعُ

حتى قتل منهم واحداً وأربعين رجلاً، وكان من قوّته أنّه يأخذ الرجل بيده فيرمي به فوق البيوت، وبعدهما أكثر القتل فيهم، طلب قائد الجيش محمد بن الأشعث النجدة من عبيد الله بن زياد قائلاً: أدركني بالخيّل والرجال، فأنفذ إليه ابن زياد يقول: ثكلتك أمّك وعدموك قومك. رجل واحد يقتل هذه المقتلة العظيمة! فكيف لو أرسلتك إلى من هو أشدّ بأساً؟ - يعني الحسين عليه السلام - فأرسل إليه ابن الأشعث يقول: تظنّ أنّك أرسلتني إلى بقّال من بقّالي الكوفة؟ أو إلى جرمقان^(١) من جرامقة الحيرة؟ وإنّما وجهتني إلى بطل همام، وشجاع ضرغام، من آل خير الأنام. فأرسل إليه بالعساكر وقال: إعطه الأمان فإنّك لا تقدر عليه إلّا به.

وقد أثنى مسلم بالجراح لأنّهم أحتوشوه من كلّ جانبٍ ومكان؛ ففرقة ترميه من أعالي السطوح بالنار والحجارة، أخرى بالسيوف، وثالثة بالرماح، ورابعة بالسهام، وكان قد اشتبك مسلم عليه السلام مع بكر بن حمران فضربه بكر على فمه الطاهر فقطع شفّته العليا، فقال له ابن الأشعث: لك الأمان يا مُسلم لا تقتل نفسك، فقال: أيّ أمانٍ للغدرة الفجرة؟ وأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أقتل إلّا حُرّاً وإن رأيتُ الموتَ شيئاً نكراً
كلُّ إمريّ يوماً مُلاقٍ شرّاً أخاف أن أُخدعَ أو أُغرّاً

(١) الجُرمقان: واحده جرموق، وهو ما يُلبس فوق الخفّ، والجرامقة: قومٌ بالموصل أصلهم من العجم. أنظر: مختار الصحاح: ص ٥٥.

وكان قد أُتُخِنَ بالجراح حتَّى عجز عن القتال، فأُسند ظهره إلى جنب جدار فضر به بالسهم والأحجار، فقال: مالكم ترمونني بالأحجار كما تُرمى الكفار؟ وأنا من أهل بيت النبي المختار: ألا ترعون رسول الله في عترته؟

قال السيد ابن طاووس رحمته الله: «...وتكاثروا عليه بعد أن أُتُخِنَ بالجراح، قطعنه رجل من خلفه فخرَّ إلى الأرض، فأُخذ أسيراً»^(١).

وقيل: قد حفروا له حفيرة فوقع فيها أثناء القتال. هذا وكانت طوعة واقفة وهي تخاطب القوم بلسان الحال:

(بحراني)

ظلت تناديهم يهل كوفان أرحموه

هذا ابن أخو الكرار حيدر لا تسحبوه

خلوه يمشي - براحتيه غلبه شعبته

خافوا من الله مالكم مذهب ولا دين

صاحت يمسلم يا عظمها خجلتي بيك

شيدي وأنه حرمه وضعيفه مگدر أحميك

لو يتركونك چنت أفت گلي

إنچان اسلمت من كيدهم سلّم على احسين

گلهها يطوعه اليوم ما تحصل سلامه

أوصيچ چان اهل البلد طبو يتامه

(١) اللهوف على قتلى الطفوف: ص ٣٥.

گولي تره مسلم يبلغكم سلامه

واجرج على الله والنبي سيد الكونين

أركبوه على بغلة، وأخذوه إلى ابن زياد، فجعل يبكي، فقال له عبيد بن العباس: إِنَّ مَنْ يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل ما نزل بك لم يبك.

قال: والله، ما لنفسي بكيت ولكن أبكي لأهلي المقبلين، أبكي للحسين وآل الحسين عليه السلام.

(نعي مجاريد)

وين الذي يوصل إيهالحين لرض المدينة ويخبر إحسين
مسلم وحيد أوماله إمعين ودارت عليه الغوم صوين

چتفوه أوظل يدير بالعين

(نصاري)

يمسلم ريت لن هاشم زلمها تجي أوخفج على راسك علمها
لاچن حيف ما واحد علمها وحيد أنت وغريب أدير العيون^(١)

إِنْ كُنْتَ تَحْزَنُ لِأَذْكَارٍ قَتِيلٍ فَاحْزَنْ لَذِكْرِ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ،

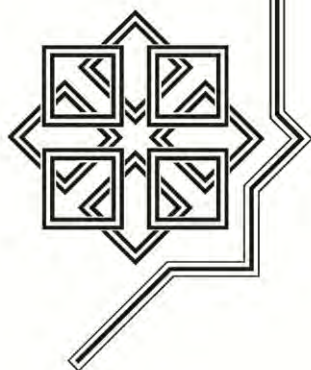
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

والعاقبة للمتقين.

(١) أنظر: مجمع مصائب أهل البيت عليه السلام: ج ١، ص ٢٥١ - ص ٢٥٢.

الحافظة التاسعة

عناية الحرف



أناعي قتلى الطّفِ لازلت ناعيا	تُهيج على طُول الليالي البواكيا
أعدّ ذكرهم في كربلاء إنّ ذكرهم	طوى جزعاً طيّ السجّل فؤاديا
ودع مقلتي تحمّر بعد ايضاضها	بعد رزايا تركّ الدمع داميا
ستنسى الكرى عيني كأنّ جفونها	حلفن بمنّ تنعاه أن لا تلاقيا
وتعطي الدموع المستهلّات حقّها	محاجر تبكي بالغوادي غواديا
وأعضاء مجد ما توزّعت الضبا	بتوزيعها إلّا الندى والمعاليا
لئن فرقتها آل حرب فلم تكن	لتجمع حتّى الحشر - إلّا المخازيا
ومّا يُزيل القلب عن مستقرّه	ويترك زند الغيظ للحشر - واريا
وقوف بنات الوحي عند طليقها	بحال بها يُشجين حتّى الأعاديا ^(١)

(١) القصيدة لشاعر أهل البيت عليه السلام السيّد حيدر الحلي، قال عنه السيّد جواد شبر رحمته الله في أدب الطف (ج٨، ص ٨ - ص ١٤): «ولد السيد حيدر في الحلة، وينتهي نسبه إلى الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، كان مولده (١٥) شعبان سنة ١٢٤٦هـ الموافق سنة (١٨٣٠م)، وقبل أن يكمل عامه الثاني من عمره فقد والده فعاش يتيماً، وتولّى تربيته عمّه السيد مهدي... كان شاعراً مجيداً من أشهر شعراء العراق أديباً ناثراً جيد الخط، نظم فأكثر ولا سيما في رثاء الحسين عليه السلام... وقال عنه الزركلي في (الأعلام): السيد حيدر شاعر أهل البيت في العراق أديب إمامي شعره حسن، وكان مترفعاً عن المدح والاستجداء، موصوفاً بالسخاء، له ديوان شعر سماه (الدرّ اليتيم)، وأشهر شعره حولياته في رثاء الحسين عليه السلام... ولا تظنّ أنّ إبداعه يقتصر على مراثي أهل البيت، فإنّ شعره في شتى النواحي مزدان بالإبداع مرصوص الجوانب كالسلاسل الذهبية... ومن آثاره الأدبية: (كتاب دمية القصر في شعراء العصر) وغيرها. توفي السيد حيدر في مسقط رأسه - الحلة - عشية الأربعاء، في الليلة التاسعة من ربيع الثاني، وعمره ٥٩ سنة، ودفن في النجف الأشرف في الجهة الشمالية من الصحن الحيدري».

من طَبَّتْ وشافت الديوان	مشحون من كلِّ بلد وامچان
ما بيهم الينغر وعوَّان	كلَّهم لأهل هالبيت عدوان
ويزيد على تحت الملك سلطان	متنومس وبالنصر—فرحان
وكام يتنشد على النسوان	گصده ايعرف زينب الخوَّان
من شافها عليها الحزن بان	تشمَّت وسبَّ داحي البيان

حنت وسال الدمع وديان

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١).

لقد بعث النبي الأكرم ﷺ إلى مجتمع تسوده عادات كثيرة نابعة من صميم الجاهلية، وتحكمه ثقافات متنوعة، وأطياف متعددة، وألوان يتلون بها بحسب المصالح والمفاسد، وليس هذا الأمر على مستوى المجتمع بها هو مجموعة من الأفراد، بل الأمر أساساً كان منعكساً على الفرد بما هو فرد، حتّى على مستوى العقيدة، فضلاً عن المستوى العبادي. وما هذه الآية الشريفة إلاّ بيان موجز عن هذه الحالات التي كانت متأصلة في هذا المجتمع، فجاءت لتبيّن لنا هذه الحالة، وتحذّرنا في نفس الوقت من التورّط فيها والتعاطي معها.

وقد ذكر الواحدي أنّها نزلت في أعرابٍ كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا قدم المدينة فإن صحَّ وعاش معافى بها، ونتجت فرسه مُهراً حسناً، وولدت امرأته غلاماً، وكثر ماله وماشيته، آمن به واطمأنّ، وقال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلاّ خيراً، وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية،

(١) الحج: آية ١١.

وأجهضت دوابه، وذهب ماله، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان، فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلاّ شراً، فينقلب عن دينه، فأُنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾^(١).

فمن أجل هكذا أناس من أهل المصالح العبادية، أمكن تقسيم المجتمع في كل زمان ومكان إلى مجموعاتٍ ثلاثة:

المجموعة الأولى: المتّقون

وهم الذين تقبلوا الإسلام في جميع أبعاده، وفي السّراء والضّراء.

المجموعة الثانية: الكافرون

ويقعون في النقطة المقابلة للمتّقين، ويعترفون بكفرهم، ولا يابون أن يظهرُوا عداءهم للإسلام في القول والعمل.

المجموعة الثالثة: المنافقون

ولهم وجهان، فهم مسلمون ظاهراً أمام المسلمين، وكفّار أمام أعداء الدين، وشخصيتهم الأصلية هي الكفر طبعاً وإن تظاهروا بالإسلام. وهذه المجموعة الثالثة تضرّ بالإسلام أكثر من المجموعة الثانية؛ ولذا نرى أنّ القرآن يقابلهم بشدةٍ أكثر من الكفّار^(٢).

وأكثر هذه المجموعة والمجموعة الثانية كانوا يعبدون الله على حرفٍ، كما وصفتهم الآية محل البحث، فهي وما بعدها تتحدّث عن هذه المجموعة، وهم ضعاف الإيمان، الذين لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وكان على طرف اللسان فقط، وقلوبهم لم تر بصيصَ

(١) أنظر: أسباب التروّل: ص ٢٠٦. ص ٢٠٧. مجمع البيان: ج ٧، ص ١٣٤. ص ١٣٥.

(٢) أنظر: تفسير الأمل: ج ١، ص ٧٥.

الإيمان إلا الشيء القليل، حيث كانت هذه المجموعة تعيش على هامش الإيمان والإسلام لا في عمقه، لأنَّ أحد معاني الحرف - كما سيأتي - هو حافة الجبل أو حافة الأشياء الأخرى، والذي يقف على الحافة لا يمكنه أن يستقرَّ. فهو قلق في موقفه هذا، يمكن أن يقع بهزة خفيفة، وهكذا ضعاف الإيمان الذين يفقدون إيمانهم بأدنى سبب.

إنَّهم يطمئنون إذا ضحكت لهم الدنيا وغمرتهم بخيراتها، ويعتبرون ذلك دليلاً على أحقية الإسلام، إلاَّ أنهم يتغيَّرون بسرعة، ويتجهون إلى الكفر إنَّ أمتحنوا بالمشاكل والقلق والفقر، فالدين لديهم وسيلة للحصول على ما يبتغون في هذه الدنيا، فإنَّ تمَّ ما يبتغونه كان الدين حقاً، وإلاَّ فلا^(١).

وهؤلاء وأمثالهم تجد الدين عندهم أشبه ما يكون بالمتاع الذي يُشترى ويُباع؛ لذا روي عن أبي سعيد الخدري أنَّه قال: «أسلم رجلٌ من اليهود فذهبَ بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أ قلني، فقال: إنَّ الإسلام لا يُقال، فقال: إنِّي لم أصب في ديني هذا خيراً، أذهب بصري ومالي وولدي، فقال: يا يهودي، إنَّ الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النارُ خبث الحديد والفضة والذهب، قال: ونزلت ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾^(٢).

ما هو الحرف؟

لأجل أن لا نقع في عبادة الحرف يلزمنا التعرُّف على ماهية الحرف وحقائقه. ففي الصَّحاح: «على حَرْفٍ، قالوا: على وجهٍ واحدٍ، وهو أن يعبد على السراء دون الضراء، والحرف الناقة الضامرة الصلبة شَبَّهت بحرفِ الجبل... وكان الأصمعي يقول

(١) أنظر: المصدر نفسه: ج ١٠، ص ٢٩٥. ص ٢٩٦.

(٢) أنظر: أسباب الترويل: ص ٢٠٧.

الحَرْف: الناقة المهزلة»^(١)، وقريب منه ما قاله ابن فارس^(٢).

وفي لسان العرب: «على حَرْفٍ أي: على شكٍّ، فهو على حرف من دينه غير متوسّط فيه ولا متمكّن، فلمّا كان وسط الشيء أفضله وأعدله جاز أن يقع صفة، وذلك في مثل قوله تعالى وتقدّس: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي عدلاً»^(٣).

وقال الراغب الأصفهاني: «﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾: مُفسر ذلك بقوله بعده ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ الآية، وفي معناه: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، وانحرف عن كذا وتحرف واحترف، والإحتراف طلب حرفة للمكسب، والحرفة حالته التي يلزمها في ذلك نحو القعدة والجلسة، والمحارف المحروم الذي خلا به الخير، وتحريف الشيء إمالته، كتحريف القلم، وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الإحتمال يمكن حمله على الوجهين، قال عز وجل: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ - ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ - ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

والحرف ما فيه حرارة ولذع كأنه محرف عن الحلاوة والحرارة، وطعام حريف. «نزل القرآن على سبعة أحرف»^(٤).

«وقيل: الحرف، الشرط، أي: ومن الناس من يعبد الله على شرط، والشرط هو قوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: خير دنيوي من رخاء وعافية وخصب وكثرة مال... ﴿وَلِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ أي شيء يفتتن به من مكروه يصيبه في أهله أو ماله أو نفسه ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتدّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر...»^(٥).

(١) الصحاح: ج ٤، ص ١٢٤٢.

(٢) أنظر: معجم مقاييس اللغة: ج ٢، ص ٤٢.

(٣) لسان العرب: ج ٧، ص ٤٢٨.

(٤) مفردات غريب القرآن: ص ١١٤.

(٥) فتح القدير: ج ٣، ص ٤٤٠.

والخلاصة: المقصود من الحرف في الآية أحد معانٍ ثلاثة:

الأول: الوجه الواحد، كأن يعبد تبارك وتعالى في حالة السَّراء دون الضراء.

الثاني: الشكّ، فهو يعبد الله تبارك وتعالى وهو على شكّ في دينه.

الثالث: الشرط، يعبد الله بشرط السَّراء دون الضراء مثلاً ويمكن أن يكون هناك وجه آخر في تفسير الحرف، أو وجوه لم أتعرّض لها؛ لرجوعها إلى ما ذكرناه، مثل الضعف في العبادة، والذي أشار إليه بعض العلماء^(١).

ما هو السبب في عبادة الحرف؟

لقد تعرّفنا على معنى الحَرْف والعبادة الحرفية المضطربة، أو قل: عبادة المصالح والشكّ والشروط، والآن نريد أن نُعالج المشكلة، ولا ريب أنّ علاج هكذا مشكلة يستدعي أولاً: بيان السبب فيها، فما هو السبب لهكذا عبادة حرفية؟

السبب المهم في هكذا عبادة يعود إلى نفس السبب الذي جاء به للعبادة، فإن كان السبب قوياً صار خروجه منها صعباً، والعكس بالعكس أيضاً.

قال المازندراني عليه السلام: «لأنّه كان داخلياً فيه بغير علم ولا يقين، فلذلك صار خروجه بغير علم ولا يقين، وقد قال العالم عليه السلام: مَنْ دخل في الإيمان بعلم، ثبت فيه ونفعه إيمانه، ومَنْ دخل فيه بغير علم خرج منه كما دخل فيه. وقال عليه السلام: مَنْ أخذ دينه من كتاب الله وستة نبيه صلوات الله عليهم زالت الجبال قبل أن يزول، ومَنْ أخذ دينه من أفواه الرجال ردّته الرجال. وقال عليه السلام: مَنْ لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتنكبّ الفتن»^(٢).

وقال الرازي: «(على حَرْف) أي: على طرفٍ من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثلاً؛ لكونهم على قلقٍ واضطرابٍ في دينهم لا على سكون [و]طمأنينة، كالذي يكون على

(١) أنظر: تفسير الثعلبي: ج ٧، ص ١٠. بحار الأنوار: ج ٩، ص ١٢٧.

(٢) شرح أصول الكافي: ج ١، ص ٥٢.

طرفٍ من العسكر، فإن أحسَّ بغنيمة قرَّ واطمأنَّ، وإلاَّ فرَّ وطار على وجهه؛ لأنَّ الثبات في الدين إنَّما يكون لو كان الغرض منه إصابة الحقِّ وطاعة الله والخوف من عقابه، فأما إذا كان غرضه الخير المعجل، فإنَّه يُظهر الدين عند السَّراء، ويرجع عنه عند الضراء، فلا يكون إلاَّ منافقاً مذموماً، وهو مثل قوله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(١).

إذن السبب في عبادة الحرف يعود إلى ضعف الإيمان بالله تعالى، وضعف السبب الذي أوصله إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن كان السبب قوياً صار الخروج من ربة هذا الإيمان صعباً جداً.

فمن هنا تبين السبب وبه يتبين العلاج، وهو أن يقوِّي الإنسان عقيدته بالله تبارك وتعالى عن طريق أخذه للمعارف الإلهية من منشأها الأصلي وطريقها الصحيح الذي يربط هذا الخلق بالحقِّ جلَّ وعلا.

فبعض الناس يريدون الدين - وللأسف - كما يشتهون وكما يحلو لهم.

قال السيّد ابن طاووس رحمته الله: «فإنَّ المستخير على غير ثقةٍ ويقين بالاستخارات، بل إن جاءت كما يريد عمل بها، وإن جاءت بخلاف ما يريد توقّف عنها، ونفر منها، وقدح في الروايات، ما يؤمّنه أن يدخَلَ تحت عموم تهديد ووعيد سلطان العالمين في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾»^(٢).

والحاصل: إنَّه لا يدخل في الدين متمكناً مستقراً^(٣).

وقال الشيخ الطوسي: «وكلَّ ذلك من عدم البصيرة»^(٤).

فهؤلاء جعلوا عبادتهم كصفقةٍ في سوق تجارة، فإن أصابه خير في دنياه اطمأنَّ،

(١) تفسير الرازي: ج ٢٢، ص ١٣. ص ١٤.

(٢) فتح الأبواب: ص ٢٨٥.

(٣) أنظر: حاشية رفيع الدين النائيبي على أصول الكافي: ص ٣٧.

(٤) التبيان: ج ٧، ص ٢٩٦.

وقال: إِنَّ دِينَنَا فِيهِ الْخَيْرُ، فَهَا هُوَ يَجْلِبُ النِّفْعَ، وَيَذَرُ الضَّرْعَ، وَيَنْمِي الزَّرْعَ، وَيَكْفُلُ الرُّوَّاجَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ وَابْتِلَاءٌ لَمْ يَتِمَّاسِكَ لَهُ، انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَاسِرًا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ^(١).
ثُمَّ قَالَتِ الْآيَةُ: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ^ط وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾.

ما المقصود من الخير والفتنة في الآية الشريفة؟

المقصود من الخير في الآية الشريفة هو ما تقدّمت الإشارة إليه في سبب نزول الآية المباركة.

فالمروي عن أبي جعفر عليه السلام فيه، قال: «فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ، يَعْنِي عَافِيَةً فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ اطمأنَّ به، ورضي به، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ، يَعْنِي بَلَاءٌ فِي جَسَدِهِ أَوْ مَالِهِ تَطَيَّرَ وَكَرِهَ الْمَقَامَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالنَّبِيِّ صلّى الله عليه وآله فَرَجَعَ إِلَى الْوُقُوفِ وَالشُّكِّ، فَنَصَبَ الْعَدَاوَةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَالْجُحُودَ بِالنَّبِيِّ وَمَا جَاءَ بِهِ»^(٢).

فالخير هنا: الصِّحَّةُ فِي الْجِسْمِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَعِيشَةِ كَمَا فَسَّرَهُ الْعَيْنِيُّ فِي الْعَمْدَةِ، وَبِخِلَافِهِ الْفِتْنَةُ، فَهِيَ الْبَلَاءُ فِي الْجِسْمِ وَالضِّيقُ فِي الْعَيْشِ^(٣).
وَقَالَ الْبَعْضُ: الْفِتْنَةُ هِيَ الْعَذَابُ أَوْ الْمَصِيبَةُ^(٤).

وَقَدْ تَسَاءَلَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ قَائِلًا: «كَيْفَ قَالَ: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾؟»
وَأَجَابَ: مِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ بَلَاءٌ وَابْتِلَاءٌ لِقَوْلِهِ ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾، وَلَكِنْ إِنَّمَا يُطْلَقُ اسْمُ الْبَلَاءِ عَلَى مَا يَشْتَمِلُ عَلَى الطَّعْنِ، وَالْمُنَافِقِ

(١) أنظر: الشفاء الروحي: ص ٩٦.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٤١٣ - ص ٤١٤، ح ١.

(٣) أنظر: عمدة القارئ: ج ١٩، ص ٦٩.

(٤) أنظر: معاني القرآن (النحاس): ج ٤، ص ٣٨٣.

ليس عنده الخير إلاّ الخير الديني، وليس عنده شرّ إلاّ الشرّ الديني؛ لأنّه لا دين له، فلذلك وردت الآية على ما يعتقدون، وإن كان الخير كله فتنة، لكن أكثر ما يُستعمل فيها يشتدّ ويثقل^(١).

وقال ابن زمنين: «هو المنافق، إن رأى في الإسلام رخاءً وطُمأنينة طابت نفسه بما يُصيب من ذلك الرّخاء وقال: أنا منكم وأنا معكم، وإذا رأى في الإسلام شدة، أو بليّة لم يصبر على مصيبتها، وانقلب على وجهه كافراً وترك ما كان عليه»^(٢).

الخُسران المبين

ثمّ إنّ هذا المتلَوّن والمضطرب في عبادته إن أصابته الفتنة انقلب إلى وجهه الحقيقي وهو الكفر، وبهذا الانقلاب عبّرت الآية بأنّه خسر الدنيا والآخرة، وهو الخسران المبين. فانقلب على وجهه وارتدّ، ورجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر، و﴿الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ﴾ الضلال الظاهر^(٣).

أمّا خسارانه في الدنيا؛ لأنّه يخسر فيها العزّة والكرامة، وإصابته الغنيمة، وأهليّة الشهادة، والإمامة والقضاء، ولا يبقى ماله ودمه مصوناً. وأمّا في الآخرة فيفوته الثواب الدائم، ويحصل له العقاب الدائم، وذلك ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ﴾^(٤).

وبعبارة مُختصرة: يخسر الجنّة وتحصل له النار^(٥).

وأما أنّه ظاهر واضح «فلاّ أنّه لا خسران أعظم وأظهر منه؛ لأنّ الخسران إمّا بفوات

(١) تفسير الرازي: ج ٢٢، ص ١٢، ص ١٤.

(٢) تفسير ابن زمنين: ج ٣، ص ١٧٣.

(٣) أنظر: عمدة القارئ: ج ١٩، ص ٦٩.

(٤) أنظر: تفسير الرازي: ج ٢٢، ص ١٤.

(٥) أنظر: تفسير التبيان: ج ٧، ص ٢٩٧.

المرغوبات الدنيوية، أو بفوات المثوبات الأخروية، أو بفواتها جميعاً، وهذا أظهر وأبين من الأولين»^(١).

«فخسر دنياه التي كان يحبها، فخرج منها، ثم أفضى إلى الآخرة وليس له فيها شيء»^(٢).

وقد روي في معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾، عن ابن مردويه: «بأسانيده عن سويد بن غفلة أنه قال: كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم، حتى بعثوا حكّامين ضالّين، ضلّ من اتبعهما. فقلت: أعيذك بالله أن تكون أحدهما، قال: فخلع قميصه، فقال: برّأي الله من ذلك، كما برّأي من قميصي. ولما جرى ليلة الهرير صاحوا يا معاوية! هلكت العرب، فقال معاوية: يا عمرو نفر أو نستأمن؟ قال: نرفع المصاحف على الرماح ونقرأ ﴿الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، فإن قبلوا حكم القرآن رفعنا الحرب ورافعنا بهم إلى أجل، وإن أبى بعضهم إلا القتال فللنا شوكتهم، وتقع بينهم الفرقة وأمر بالنداء...»^(٣).

الكثير من الناس إيمانهم هكذا، مجرد لقلقة لسان، لا ثبات له في الجنان أبداً. ومن العجيب أن يوصف بهذا الوصف سيّد شباب أهل الجنّة أبو عبد الله الحسين عليه السلام من قبل أعداء الله، حيث كان يقول عليه السلام: «أو لم يبلغكم ما قال رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟! فإن صدّقتموني بما أقول وهو الحقّ، والله ما تعمّدت كذباً منذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، وإن كذبتُموني فإنّ فيكم من لو سألتُموه

(١) شرح أصول الكافي: ج ١٠، ص ١٣٠.

(٢) تفسير مقاتل: ج ٢، ص ٣٧٨.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

عن ذلك أخبركم، سلو جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري و... و.. أما في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي؟!!

فقال له شمر بن ذي الجوشن: هو يعبد الله على حرفٍ إن كان يدري.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله، إنِّي لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك»^(١).

نعم، لقد طبع الله على قلوب هؤلاء بحيث أصبح عندهم قتال ابن بنت رسول الله ﷺ وأصحابه من أعظم القربات

قست القلوبُ فلم تمل لهدايةً تبَّتْ لهاتيكَ القلوبُ القاسية

ومن ثمَّ رَوَّعوا الأطفال وعطَّشوهم، بل أماتوهم خوفاً وعطشاً وجوعاً؛ لذا لما جمعت السيِّدة زينب عليها السلام الأطفال والعيال في مكان واحدٍ افتقدت يتيمتين، فذهبت تفتش عنهما، فوجدتهما في حفيرة وقد ماتتا من العطش، والحادثة المؤلمة، وهناك حَفَرَتَا حفرةً رجاء أن يظهر لهما الماء ليرتويا منه، فماتتا من العطش بعد أن وضعت إحداهما يدها على رقبة الثانية، ولفظتا نفسيهما، وقفت الحوراء زينب عليها السلام على مصرع الطفلتين - ساعد الله قلبها - تأكَّدت من وفاتها نادت: أُخِيَّة، أم كلثوم، إليَّ إليَّ. فأقبلت مسرعة، فقالت: ما الذي جرى؟ قالت: كما ترين، وأشارت إلى الطفلتين، وبعد إخراجهما من الحفيرة حملت السيِّدة زينب بين يديها طفلةً، وأم كلثوم الأُخرى. هذا والقوم مشرفون يرون بأُمِّ أعينهم ما جرى، فأقبلوا إلى ابن سعد، وقالوا: إمَّا أن تأذن لنا بسقي الأطفال وإلاَّ سقيناهم دون إذنك، فخشى من العاقبة، قال: اسقوهم. فهبَّ إلى الفرات منهم أربعون رجلاً، ملئوا القرب وأقبلوا بها والماء يتقاطر منهم، فلما شاهد الأطفال القرب وقد توجَّه بها القوم إليهم هربوا، والقوم من خلفهم، فصاحوا: يا أطفال الحسين، والله ما جئنا لنضربكم ولا

(١) الإرشاد: ج ٢، ص ٩٧. ص ٩٨.

لنسلبكم، وإنّا جئنا لننقذ حياتكم، جئنا بالماء فقفوا واشربوا.

قالوا: نحن ما هربنا من الضرب، ولا من السلب، ولا نهرب حتّى من القتل بعد أن قُتل الحسين، ولكن هربنا من الماء!!

قالوا: لماذا؟! كان الماء مُحَرَّمًا فحلّله لكم الآن الأمير، فضجّ الأطفال يبكّاهم وكأني

بهم:

اشلون الماي لينه تحللونه وگبل ساعة على أينا اتحرّمونه
گظه وللعلگمي شابح إعيونه وذني اثنين ماتن من هالبنات

أقبل القوم إلى زينب، قائلين لها: زينب، اشربي الماء لعلّ الأطفال يشربون إذا شربتني [كأني بها]:

تلتفت إلى أخيها الحسين وهو على رمضاء كربلاء:

من مرّت الناگة على جسمك حبّيت اظل يحسين يّمك
انعاك وبنحرك اشمّمك لكن أخاف أحچي وهظمك
يابن أمّي بس ابهاي أعلمك خذاني ابضرب السوط خصمك^(١)

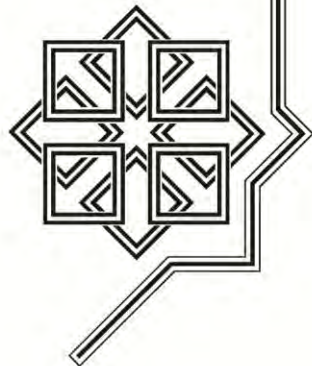
إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آل محمّد أيّ مُقلّبٍ ينقلبون
والعاقبة للمتّقين.

(١) أنظر: ميراث المنبر: ص ٩٥ - ص ١٠٠.

الحاضرة العاصرة



عبادة الرحمن



وغيضَكَ وارٍ غيرَ أَنكَ كاظُمُه	أبا صالح يأمُدرِكَ الثَّارِ كم تُرى
يروحُ ويغدو آمِنَ السَّربِ غارُمُه	وهل يَمَلُكُ الموتورُ صبراً وحوَلَه
تَنَاهَبُهُ سُمرُ الرَّدَى وصوارُمُه	أَتَنسَى أباَ الظَّيْمِ في الطَّفِّ مُفرداً
تحوُمُ عليه للوداعِ فواطمُه	أَتَنسَاهُ فوقَ الثَّرِبِ منفطرَ الحشا
من النَّبْلِ ثدياً دُرَّةُ الثَّرِّ فاطمُه	وربَّ رضيعٍ أَرْضَعْتَهُ قَسِيَّهُمُ
كما زينتُه قَبْلَ ذاكَ ثَمائمُه	فلَهْفِي لَهُ مُذْ طَوَّقَ السَّهْمُ جِيدَه
وناغاهُ من طيرِ المنيَةِ حائمُه	ولَهْفِي لَهُ لَمَّا أَحَسَّ بحرَّه
وداعاً وهلْ غيرُ العناقِ يلائمُه	هفا لِعناقِ السَّبْطِ مُبْتَسِمَ اللَّما
عليها الدَّجى والدَّوحُ ناحَتِ حائمُه	ولَهْفِي على أُمِّ الرضيعِ وَقَدْ دَجى
بشديكَ علَّ القلبَ يهدأُ هائمٌ ^(١)	بني أَفِقْ من سكرةِ الموتِ وارْتَضِعْ

(تغريد الحزين)

عبد الله أريدنُه	الرباب اتصيح يا زينب
وأريد الساعة أرضعنه	وليدي وحن عليه غلبي
صاحت بس أسمنه	تكلها بعد ما يرضع
وأعالج سهم البنحره	إن چان أكدر على جرّه
وننت ويلى اوطاحت	أجره واجذب الحسره
او هيّة امغيّره الحالّه	

(١) القصيدة للمرحوم الشيخ محمد تقي الجواهري رحمه الله، قال عنه في مَنْ لا يحضره الخطيب (ج ١، ص ٣٢٢): «الشيخ محمد تقي الجواهري، فقيهٌ وشاعرٌ، يمتاز بخلق عالٍ وتواضع جَمٍّ، ولد في النجف الأشرف سنة ١٣٤٠هـ، أبوه الشيخ عبد الرسول وإرث علوم آل الجواهري، عرف بالعلم والتقوى منذ حداثة سنّه».

تلوج اوتوّن يم زينب اونوب اعله الزمان اتلوم
 واتگول اشلون عبد الله عن صدي صبح مفطوم
 عليّه شوفته بعدت ما شفته من امس لليوم
 اشلون اگدر اعوفنه وامشي— او لا اودعنه رجواي انگطع منه
 بس قصدي اريد الساع أشوفه وأنظر حاله

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١).

الميزان والضابطة عندنا نحن البشر في إضافة الصفات الحسنة أو سلبها عن الآخرين، هي الحبّ والبغض لهم، فنصف زيدا بأنه من نواة المجتمع، وأنه من الأخيار إذا أحببناه، ولم نبغضه، وإلاّ فهو من أرذل خلق الله، هذا هو الشائع المعروف، وهذا لا يتنافى أن تكون هناك حالات أخرى عند البعض لها ضابطها الخاص أسلوبها المعين.

لو نظرنا إلى المجتمع البشري ولاسيما الإسلامي، لوجدنا هناك شخصيات خرجت من الدنيا وقد سلبت صفاتها ووُضعت لآخرين، وهناك صفات حسنة وُصِفَ بها أناسٌ إذا رجعنا إلى تاريخهم وجدناه أسود لا صلة له بالخير، لا من قريب ولا من بعيد.

وهناك أناس تسلطوا على رقاب الآخرين، وأخذوا الأوصاف الحسنة والأسماء المثيرة ووضعوها لأنفسهم، كما تجد ذلك صريحاً في أسماء والقباب بني العباس، مثل: المتوكل على الله، المعتصم بالله، المعتمد على الله، وغيرها الكثير.

ومن طريف القول أن أحداً جاء لجُحاً مستاءً أنه ليس له من هذه الأسماء والألقاب،

(١) الفرقان: آية ٦٣.

فأراد من جُحَا أن يختار له اسماً مُناسباً من هذه الأسماء والألقاب، فقال له جُحَا: لا يناسبك إلا أعوذ بالله.

والواقع أنه كذلك، فالكُلُّ أعوذ بالله، لكن اتَّخذوا لهم ألقاباً وأسماءً تُلَفَّت النظر؛ بُغية التغطية على جرائمهم وأفعالهم.

وهذا القرآن يذكر لنا عين ما نريدُّ قوله، ففرعون الذي عرفته البشرية يصف نبيَّ الله موسى بأنه مُفسدٌ، وصاحبٌ بدعةٍ يجب أن يُقتل، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(١).

وهذا هو ديدن الطغاة وأسلوبهم في كلِّ عصر، كيل التُّهم للآخرين، والافتراء عليهم؛ حتى يقطعوا صلة الناس بهم ويسقطوهم في أعين مَنْ يعتبرونهم القدوة لهم.

والعجيب أن طُغيان هؤلاء يصل أحياناً إلى مرتبة لا يروا فيها سوى أنفسهم، وأن قوام الكون بهم، ولولاهم لفسدت الحياة ومَن عليها، ويُنزِلون أنفسهم منزلة الله تبارك وتعالى، بل يُصرِّحون بذلك أحياناً، كما فعل ذلك فرعون وحكاه لنا القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(٢).

كم هو عجيبُ هذا الإنسان كيف يضع نفسه بدل جبار السموات والأرض؟! والخلاصة: وصف الإنسان للآخر أو لنفسه، على غير القياس أو القاعدة الواقعية التي يصف بها الله تبارك وتعالى الأشياء.

وصف الله تبارك وتعالى:

إذا وصف الله تبارك وتعالى أحداً فإنه يصفه بوصفه اللائق به، سواء كان هذا

(١) غافر: آية ٢٦.

(٢) القصص: آية ٣٨.

الوصف ذمّاً أم مدحاً؛ لأنّ من صفاته الثابتة له تبارك وتعالى الواقعيّة والصدق، كما في قصصه التي يقصّها على الأنبياء والمرسلين، وهذا نحو منها.

فهو تبارك وتعالى ليس عنده ما عندنا نحن البشر من المداينة أو التملّق، بل هو الحقّ تبارك وتعالى، ولعلّ ما نقوله يثبت بمجرد التأمل في هذه الآيات المباركات التي يبيّن فيها هذا المعنى في أحبّ الخلق عليه النبيّ الخاتم محمد ﷺ حيث يقول: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا يَمْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاكِزِينَ﴾^(١).

وكان سبب نزول هذه الآيات الشريفة هو تكذيب البعض لرسول الله عندما أخبرهم بأنّ عليّاً خليفته من بعده، فاتّهموه أنّه كذب على الله، وأنّه وصف ابن عمّه بغير ما يريد الله تبارك وتعالى.

فقد روى معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام في خبر: «لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ. قَالَ الْعَدَوِيُّ: لَا وَاللَّهِ، مَا أَمْرُهُ بِهَذَا، وَمَا هُوَ إِلَّا شَيْءٌ يَقُولُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني محمّداً...»^(٢).
والخلاصة: أوصافه تبارك وتعالى هي الحقّ، فعندما يصف فرعونَ بهذا الوصف: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٣)، يعني: هو كذلك واقعاً، ولم يكن هناك أيُّ شكٍّ أو شبهةٍ.

وكذلك عند ما يصف نبيّه موسى عليه السلام حيث يقول: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٤).

(١) الحاقة: آية ٤٤ - آية ٤٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٢٢٨.

(٣) يونس: آية ٨٣.

(٤) مريم: آية ٥١.

وعندما يصف النبي الخاتم مُحَمَّدًا ﷺ يقول عنه: ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، فالأمر كذلك وصفاً وواقعاً.

ومن الأوصاف القرآنية، التي جاءت لتبين لنا طائفة خاصة اتصفوا بأوصاف تليق بهم، وهي واقعية وصادقة كذلك - كما ذكرناه آنفاً - هذه الآية الشريفة التي تتحدث عن عباد الرحمن، والذي يريد أن يكون من هؤلاء العباد عليه أن يتصف بهذه الصفات التي ذكرتها الآية الشريفة، والتي هي بمثابة أوسمة على الصدور، وتيجان على الرؤوس.

الصفة الأولى: عباد الرحمن

تُبين هذه الآيات - الآية محل البحث وما بعدها - اثنتي عشرة صفة من صفات المؤمنين الخاصة، حيث يرتبط بعضها بالجوانب الاعتقادية، فمناها أخلاقي، ومنها ما هو اجتماعي، بعضٌ منها يتعلّق بالفرد، وبعضٌ آخر بالجماعة، وهي أولاً وآخرها مجموعة من أعلى القيم الإنسانية، يقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾^(٢)، وأول هذه الصفات أتهم (عباد الله) ويالها من مرتبة عظيمة أن يكون الإنسان قد اتصف بهذه الصفة: عبدُ الله! ونحن نذكرُ كلَّ يوم: أن مُحَمَّدًا ﷺ عبده ورسوله، وقد أمرنا أن نُقدِّم الشهادة بالعبودية على الشهادة بالرسالة، وهذا إن دلَّ فإنه يدلُّ على عظم هذه الصفة المضافة له تبارك وتعالى.

وقد وصف الله جلَّت قدرته أنبياءه بهذه الصفة، حيث يقول: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۚ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ۚ يَا مَعْرُوفُ أَتُوبُ وَإِلَيْهِمْ فَعِلْ الْخَيْرَاتِ ۚ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(٣).

(١) القلم: آية ٤.

(٢) أنظر: تفسير الأمل: ج ١١، ص ٣٠٥.

(٣) الأنبياء: آية ٧٢ - آية ٧٣.

وهذا هو المعنى الذي اختاره رسول الله ﷺ عندما خُيِّرَ بينه وبين غيره، ففي الكافي الشريف عن مُحَمَّد بن مسلم قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يذكر أنه أتى رسول الله ﷺ ملك، فقال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَيِّرُكَ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا مُتَوَاضِعًا، أَوْ مَلِكًا رَسُولًا، قَالَ: فنظر إلى جبرئيل وأوماً بيده أَنْ تَوَاضِعَ، فقال: عَبْدًا مُتَوَاضِعًا، رَسُولًا، فقال الرسولُ مع أَنَّهُ لَا يَنْقُصُكَ مِمَّا عِنْدَ رَبِّكَ شَيْئًا، قَالَ: ومعه مفاتيحُ خزائنِ الأرض»^(١).

وكذا كان وصف عيسى بن مريم عليه السلام عندما عرّف نفسه للمرجفين بأُمِّهِ الصديقة، حيث يحكي لنا ذلك القرآن الكريم: ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا * فَاسْأَرْتُ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *﴾^(٢).

وهو الوصف نفسه الذي فقاً أمير المؤمنين به عين البلاغة، كما روى ذلك الشعبي، حيث قال: «تكلّم أمير المؤمنين عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهن ارتجالاً، فقأن عُيُونَ البلاغة وأَيْتَمَنَ جواهر الحكمة، وقطعنَ جميع الأنام عن اللحاق بواحدةٍ منهنَّ، ثلاث منها في المُنَاجَاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب، فأما اللاتي في المُنَاجَاة، فقال: إلهي كفى لي عزّاً أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا وكفى بي فخراً أَنْ أَتَكُونَ لِي رَبًّا أَنْتَ كَمَا أَحَبَّ فَاجْعَلْنِي كَمَا تُحِبُّ»^(٣).

وهي نفس الصفة التي أنكرتها جاريةُ بشر الحافي، كما روى العلامةُ الحلي عليه السلام حيث قال: «وعلى يده (الإمام الكاظم) عليه السلام تاب بشر الحافي، لأنّه عليه السلام اجتاز على داره ببغداد، فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار، فخرجت جاريةٌ ويدها

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٢٢، ح ٥.

(٢) مريم: آية ٢٨ - آية ٣١.

(٣) الخصال: ص ٤٢٠، ح ١٤.

قيامه البقل، فرمت بها في الدرب، فقال لها: يا جارية، صاحبُ هذه الدار حُرٌّ أم عبدٌ؟ فقالت: بل حُرٌّ. فقال: صدقتِ، لو كان عبداً خاف من مولاه! فلمَّا دخلت قال مولاها - وهو على مائدة السكر -: ما أبطأك علينا؟ فقالت: حدَّثني رجُلٌ بكذا وكذا، فخرج حافياً حتى لقيَ مولانا الكاظم عليه السلام، فتاب على يده»^(١).

فالصفة الأولى - إذن - العبودية لله وكفى بها من صفةٍ، وكفى العباد فخراً حيث يتّصفون بها.

الصفة الثانية: التواضع

وثاني هذه الصفات بعد صفة عباد الرحمن تأتي صفة نفي الكبر والغرور والتعالي، الذي يبدو في جميع أعمال الإنسان حتى في طريقة المشي؛ لأنَّ الملكات الأخلاقية تظهر نفسها في حنايا أعمال وأقوال وحركات الإنسان، بحيث يصبح من الممكن جداً تشخيص بعض أخلاقه بدقة من كيفية مشيته. نعم، إنَّهم متواضعون، والتواضع مفتاح الإيمان، في حين يعتبر الغرور والكبر مفتاح الكفر، لقد رأينا بأنَّ أعيننا في الحياة اليومية، وقرأنا مراراً في آيات القرآن: أنَّ المتكبرين المغرورين لم يكونوا مستعدين حتى ليصغوا إلى كلام القادة الإلهيين، وكانوا يتلقون الحقائق بالسخرية، ولم تتجاوز رؤيتهم أبعد من أطراف أنوفهم، ترى أيمكنُ أن يجتمع الإيمان في هذه الحال مع الكبر؟!^(٢).

وبالجملة فاعلم أنَّ التواضع مفتاح كلِّ خيرٍ، والتكبر مفتاح كلِّ شرٍّ؛ لأنَّه يمنع صاحبه من تحصيل الفضائل، وتجنّب الرذائل، ولتفصيل الكلام في ذلك مقام آخر.

والتواضع أمرٌ إضافي، تتعدّد أقسامه بحسب ما يُضاف إليه، كالتواضع لله تعالى ولأنبيائه ولأوليائه، والتواضع للمشايخ، والتواضع للوالدين، وللمعلّم، وللمتعلّم،

(١) منهاج الكرامة: ص ٥٩.

(٢) أنظر: تفسير الأمثل: ج ١١، ص ٣٠٥.

وللمؤمنين، وللشرفاء، وللعلماء، والتواضع في المسكن، وفي المجلس، والمطعم والمشرّب، والملبس، والمنكح، والمشي، والكلام، إلى غير ذلك من الأقسام، ولكل من هذه الأقسام فوائد عظام، يوجب ذكرها الإطناب في الكلام والخروج عما هو المقصود في هذا المقام^(١).

والهون - كما في المفردات - «الهوان على وجهين: أحدهما تذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة فيمدح به، نحو قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ونحو ما روي عن النبي ﷺ: المؤمن هين لئن. الثاني: أن يكون من جهة متسلط مستخف به فيذم به»^(٢).

وبعبارة مختصرة: الذين يمشون على الأرض متواضعين لله عز وجل، ومتواضعين للناس غير مستكبرين، والتواضع لله يكمن في إطاعة أوامره والتذلل في عبادته، فيرفعه الله عز وجل، فعن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «مَنْ تواضع لله رفعه الله»^(٣).

وعن النبي ﷺ: «ثلاثة لا يزيد الله بهن إلا خيراً: التواضع لا يزيد الله به إلا ارتفاعاً، وذلل النفس لا يزيد الله به إلا عزاً، والتعفف لا يزيد الله به إلا غناً»^(٤).

وهذه الصفة هي التي رفع الله بها بعض عباده المتّصّفين بها، وأذلّ آخرين بتركها والتلبس بلباس التكبر الذي نهى الله عن ارتدائه، ففي الحديث القدسي إن الله يقول: «الكبرياءُ ردائي فمن نازعني ردائي قصمته»^(٥).

وهذا الذي حصل لإبليس (لعنه الله)، حيث طرده الله من الجنة بالتكبر والتمرد على أوامر الله تبارك وتعالى، قال تعالى مبيناً قصته: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ *

(١) أنظر: مكيال المكارم: ج ١، ص ٤١٢.

(٢) مفردات غريب القرآن: ص ٥٤٧.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ١٢٢، ح ٣.

(٤) عدة الداعي: ص ١٦٦.

(٥) المستدرک على الصحيحين: ج ١، ص ٦١.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ^ط اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ^ط لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فِعِزَّنِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ^(١).

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد هذا المضمون القرآني: «اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية. وأدرك لباس التعزّز، وخلع قناع التذلل، ألا ترون كيف صغره الله بتكبره، ووضع به بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعدّ له في الآخرة سعيراً، ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهز العقول رواؤه^(٢)، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل، ولو فعل، لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة، ولكن الله سبحانه يتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم، فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذا أحبط عمله الطويل وجهده الجهد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى أَمِنْ سني الدنيا أم سني الآخرة عن كبر ساعة واحدة، فَمَنْ ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصية؟ كلا، ما كان الله سبحانه ليُدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إِنَّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوة في إباحة حمى حرّمه على العالمين، فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفرّكم بندائه، وأن

(١) ص: آية ٧١ . آية ٨٥.

(٢) الرواء: . بضم ففتح . حسن المنظر.

يجلب عليكم بخيله ورجله...»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: أن يا موسى أتدري لم اصطفتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب ولم ذاك؟ قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: أن يا موسى إني قلبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذل لي نفساً منك، يا موسى إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب. أو قال: على الأرض»^(٢).

هذا كله في التواضع لله عز وجل، وأما التواضع للناس وعباد الله فيكفيك ما قصه لنا القرآن الكريم في موعظة لقمان لابنه، حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَنُ لِبْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ، يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝ وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝﴾^(٣).

وفي صفة المؤمنين يقول تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾^(٤).

كما أن الله تبارك وتعالى يأمر خاتم الأنبياء والمرسلين عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَخُفِضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾^(٥)، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر الناس تواضعاً، كما جاء في وصفه عليه السلام: «ويردف خلفه عبده أو غيره، ويركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار، ويركب الحمار بلا سرج وعليه العذار، ويمشي راجلاً وحافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، ويشيع الجنائز ويعود المرضى في أقصى المدينة، يجالس الفقراء ويواكل المساكين ويناوهم بيده، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل

(١) نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٣٨ - ص ١٣٩، خطبة ١٩٢ (القاصعة).

(٢) الكافي: ج ٢، ص ١٢٣، ح ٧.

(٣) لقمان: آية ١٣ وآية ١٨.

(٤) المائدة: آية ٥٤.

(٥) الحجر: آية ٨٨.

ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم إلاّ بها أمر الله، ولا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه»^(١).

علامات المتواضعين:

للمتواضعين علامات يُعرفون بها قد ذكرها لنا الأئمة عليهم السلام، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ثلاث هُنَّ رأس التواضع، أن يبدأ بالسلام من لقيه، ويرضى بالدون من شرف المجلس، ويكره الرياء والسمعة»^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ من التواضع أن يرضى الرجل بالمجلس دون المجالس، وأن يُسلم على من يلقي، وأن يترك المراء وإن كان محقاً، ولا يُحبَّ أن يُحمد على التقوى»^(٣).

الصفة الثالثة: اللامبالاة المقترنة بالعزّة، وليست الناشئة من الضعف، هذه هي الصفة الثالثة التي أشارت إليها الآية المباركة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

فالسلام دليل عدم المقابلة بالمثل حيال الجهلة، وليس السلام هنا بمعنى التحية التي هي علامة المحبة والرابطة للصدقة والإخلاص، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهْلِينَ﴾^(٤).

هذا هو رد نبيّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾^(٥).

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ١٢٧.

(٢) كثر العمال: ج ٣، ص ٧٠١، ح ٨٥٠٦.

(٣) الخصال: ص ٢٨١، ح ٩.

(٤) القصص: آية ٥٥.

(٥) مريم: آية ٤٧.

وذهب العلامة الطباطبائي رحمته الله في بيان ذلك إلى القول: «أي إذا خاطبهم الجاهلون خطاباً ناشئاً عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم، كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف، أجابوهم بما هو سالم من القول، وقالوا لهم قولاً سلاماً خالياً عن اللغو والإثم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿﴾ الواقعة: ٢٦، ويرجع إلى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل. وهذه - كما قيل - صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس، وأما صفة ليلهم فهي التي تصفها الآية التالية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ ^(١).

ومن طريف الرؤيا ما ذكره في المناقب حيث قال: «كان إبراهيم بن المهدي شديد الانحراف عن أمير المؤمنين عليه السلام، فحدث المأمون يوماً، قال: رأيتُ علياً في النوم فمشيت معه حتى جئنا قنطرةً، فذهب يتقدمني لعبورها، فأمسكته وقلت له: إنما أنت رجلٌ تدعي هذا الأمر بأمره، ونحن أحقُّ به منك، فما رأيته بليغاً في الجواب، قال: وأي شيء قال: لك؟ قال: ما زادني على أن قال: سلاماً سلاماً. فقال المأمون: قد والله، أجابك أبلغ جواب، قال: كيف؟ قال: عرفك أنك جاهلٌ لا تُجاب، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ^(٢).

وللسلام مظاهرٌ وتجلياتٌ يظهر بها، مثل الصبر والحلم وسعة الصدر، خصوصاً إذا كان الإنسان مُتصدِّياً وقائداً، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الْأَلَةُ الرَّئِيسَةُ سَعَةُ الصَّدْرِ» ^(٣)، وكم هو صعب أن يعفو الإنسان عمن ظلمه، ويُقابله بالإحسان بعد مقابله بالإساءة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ

(١) تفسير الميزان: ج ١٥، ص ٢٤٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٦٢.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص ١٨.

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُوحَضِلٍ عَظِيمٍ *
وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾.

وهذا الخلق هو الذي قابل به رسول الله ﷺ أهل مكة عند الفتح، كما رواها لنا التاريخ ورواه أهل الحديث، قال العلامة المجلسي رحمه الله: «وسعى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، وأخذ غرزه فقبله، وقال: بأبي أنت وأمي، أما تسمع ما يقول سعد؟ إنه يقول:

اليوم يوم الملمحة اليوم تُسبى الحرمة

فقال ﷺ لعليّ عليه السلام: أدركه فخذ الراية منه، وكن أنت الذي يدخل بها، وأدخلها إدخالاً رقيقاً. فأخذها عليّ عليه السلام وأدخلها كما أمر، ولما دخل رسول الله ﷺ مكة، دخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يُرفع عنهم، فأتى رسول الله ﷺ ووقف قائماً على باب الكعبة، فقال: لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مالٍ ومأثرةٍ ودمٍ يُدعى تحت قدمي هاتين إلا سدانة الكعبة، وسقاية الحاج، فإنهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إن مكة محرمةٌ بتحريم الله، لم تحل لأحدٍ كان قبلي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، وهي محرمةٌ إلى أن تقوم الساعة، لا يختل خلاها، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تحلُّ لقطتها إلا لمنشد. ثم قال: ألا لبئس جيران النبي كُنتم، لقد كذبتكم وطردتم وأخرجتم وأذيتهم، ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلون، اذهبوا فأنتم الطلقاء» (٢).

فكانت هذه العبارة صارت علماً لهؤلاء من ذلك اليوم، ويُقال لأبي سفيان ومعاوية وغيرهم من قريش: الطلقاء، يعني طلقاء رسول الله ﷺ، وإلى هذا أشارت الحوراء زينب عليها السلام في خطبتها في مجلس يزيد بقولها ﷺ: «أمن العدل يا بن الطلقاء - يعني يا يزيد -

(١) فصلت: آية ٣٤ - آية ٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ج ١، ص ١٠٦.

أتعرف مَنْ أنت وَمَنْ أبوك وجدك؟ أو تدري ما صنع جدِّي مع جدِّك وأبيك في يوم فتح مكة حين مكَّنه اللهُ مَنْ رقابهم وسلَّطه عليهم وأخذهم أسراء؟ فكلَّ ما أراد أن يفعل بهم كان له أن يفعل، ومع ذلك عفى عنهم وأطلقهم، وقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، يا يزيد، فهذا جزاؤه! بأن قتلتَ حُسيناً وقتلتَ أصحابه وأهل بيته وسبيت نساءه وعياله وأطفاله من بلدٍ إلى بلدٍ! ^(١) وهونفس الاستغراب والتعجب الذي نقله لنا ابنُ خَلِكان في وفيات الأعيان، حيث يقول: «وقال الشيخ نصر الله بن مجلي مشارف الصناعة بالمخزن وكان من ثقات أهل السنَّة: رأيتُ في المنام عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقلتُ له: يا أمير المؤمنين تفتحون مكة فتقولون من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثمَّ يتَّم على ولدك الحسين يوم الطَّف ما تمَّ! فقال: أما سمعتَ أبيات ابن الصفي في هذا؟ فقلت: لا. فقال: اسمعها منه. ثمَّ استيقظت فبادرتُ إلى دار حيص بيص، فخرج إليَّ فذكرتُ له الرؤيا فشهِق وأجهش بالبكاء وحلف بالله إن كانت خرجتُ من فمي أو خطي إلى أحدٍ، وإن كُنتُ نظمْتُها إلَّا في ليلتي هذه، ثمَّ أنشدني:

ملكنّا فكان العفو مناسجيةً	فلما ملكتم سأل بالدم أبطح
وحللتُم قتل الأسارى وطالما	غدونا على الأسرى نعف ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا	وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح ^(٢)

نعم، ماترك الطلقاء شيئاً إلَّا وفعلوه، حتى الطفل الرضيع، جاءت الحوراء زينب عليها السلام لأخيها الحسين عليه السلام وهي تحمل بيدها ولده الرضيع، فقالت له: «يا أخي، إنَّ ولدك عبد الله ما ذاق الماء منذ ثلاثة أيام، فاطلب له من القوم شربة تسقيه. فأخذه ومضى به إلى القوم، وقال: يا قوم، لقد قتلتم أصحابي وبني عمِّي وإخوتي وولدي، وقد بقي هذا

(١) شجرة طوبى: ج ٢، ص ٣٠٣.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٢، ص ٣٦٥.

الطفل، وهو ابنُ ستّةِ أشهر، يشتكي من الظمأ، فاسقوه شربةً من الماء.

فبينما هو يخاطبهم إذ أتاه سهم فوق في نحر الطفل فقتله... يقول الحسين عليه السلام: اللهم
إنّك شاهدٌ على هؤلاء القوم الملاعين، إنهم قد عمدوا أن لا يبقوا من ذرية رسولك صلّى الله عليه وآله.
وهو يبكي بكاءً شديداً^(١)

وكأنّي بأُمّه الرباب تواسي أباه الحسين عليه السلام ببكائها:

ميّاتم للحزن نصب ونبني	رمازي حرمله إبسهمه ونبني
الطفل عاده يفظمونه ونبني	انفطم ياناس بسهام المنيه

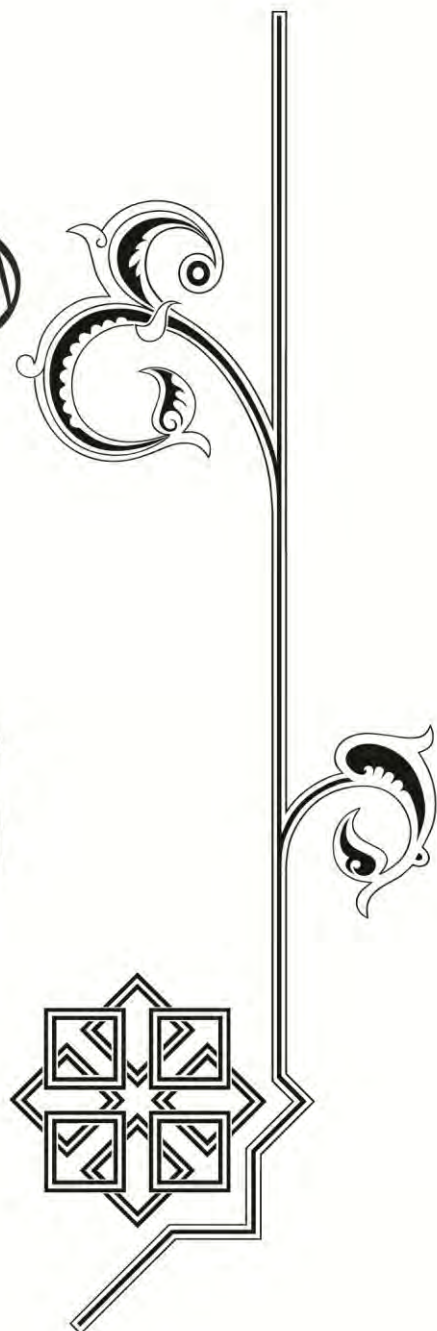
ورضيّعه بدم الوريـ	د مخضب فاطلب رضيّعه
--------------------	---------------------

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
والعاقبة للمتّقين

(١) ينابيع المودة: ج ٣، ص ٧٩.

الحاضرة الخالدية عشرة

الأشجار



حامي الظعينة أين منه ربيعة
 ماراعهم إلا تقحم ضيغم
 صبغ الخيول برمحه حتى غدت
 عرف المواعظ لا تفيد بمعشر
 فانصاع يحطب بالجهام والكلا
 وهوى بجنب العلقمي فليته
 ومشى لمصرعه الحسين وطرفه
 ألفاه محبوب الجمال كأنه
 فأكب منحنياً عليه ودمعه
 قد رام يلثمه فلم ير موضعاً
 نادى وقد ملأ البوادي صيحة
 أأخي من يحمي بنات محمد
 هوت يا بن أبي مصارع فتيتي
 هذا حسامك من يذب به العدى
 أم أين من عليا أيه مكدّم
 غضبان يعجم لفظه ويدمدّم
 سيان أشقر لونها والأدهم
 صموا عن النبأ العظيم كما عموا
 فالسيف يثر والمتقف ينظم
 للشارين به يداف العلقم
 بين الخيام وبينه متقسم
 بدر بمنحطم الوشيح ملثم
 صبغ البسيط كأنها هو عندم
 لم يدمه عض السلاح فيلثم
 صم الصخور لهولها تتألم
 إن صرن يسترحمن من لا يرحم
 والجرح يسكنه الذي هو ألم
 ولوالك هذا من به يتقدم^(١)

(١) القصيدة للسيد جعفر الحلي^{رحمته الله}، أنظر رياض المدح والثناء: ص ٢٤٣، قال عنه السيد جواد شبر^{رحمته الله} في أدب الطف: (ج ٨، ص ٩٩ - ص ١١٠): «السيد جعفر كمال الدين الحلي النجفي. عرفت هذه الأسرة بالانتماء الى الجد السادس لصاحب هذه الترجمة، وهو السيد كمال الدين بن منصور، فهو جد الأسرة الكمالية المنتشرة في الحلة وضواحيها والنجف والكوفة، وقد كتب عنها مفصلاً الخطيب البغدادي في (البابليات)، كما أقام الشواهد على شاعريته وسرعة البديهة عنده، وديوانه أصدق شاهد على سمو شعوره، وكان من حقه أن يطلق اسم (سحر بابل وسجع البابل) على ديوانه قبل أن يجمع، والذي جمعه أخوه السيد هاشم بعد وفاة الشاعر. توفي فجأة في شعبان لسبع بقين من سنة ١٣١٥ هـ، ودفن في وادي السلام بالنجف الأشرف عند قبر والده على مقربة من مقام الإمام المهدي^{عليه السلام}... نشأ السيد جعفر فاستطرق قدر حاجته من مبادئ النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان، وصار

ناده احسين يعباس هذا لواءك

ظل يندب ومهرك بالحرب ينعاك

إنكسر — ظهري ولا أگدر لفرگاك

يختلف إلى مدارس العلماء وحوزاتها الحافظة بالفقه، وهو في كلّ ذلك حلو المحاضرة، سريع البداهة حسن الجواب نبهه خاطر متوقد القريحة جريّ اللسان... برع في نظم الشعر وهو دون الثلاثين، وأصبح من الشعراء المعدودين الذين تلهج الألسن بذكرهم وتتغنى بشعرهم... وأشهر قصيدة له رائعة التي مطلعها:

وجه الصباح عليّ ليل مظلم وربيع أيامي عليّ محرّم

وهذه القصيدة التي تزيد على السبعين بيتاً كلّها من الشعر المنسجم...».

وافراگك ییو فاضل علی یصعب

یعباس حسّ احسین یمّك

ییچی و خلط دمعہ بفیض دمّك

وحایر ییو فاضل ابلّمك

وسكنه تسلي الطفل باسمك

تگله ساعه ویجیب المای عمّك

یخویه أیست سکنه من المای

تجی یمی ذلیلہ وتوگف احذای

یخویه من العطش رادت تجی اویای

تگلك وین وعدك یلمشكر

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

الإيثار:

هو أرفع درجات الجود والسخاء، وهو أن يجود الإنسان بما لديه من مالٍ، أو نفسٍ، أو غيرهما مما هو نفيس؛ ليُقدّم غيره عليه.

روى الثعلبي - وهو من مفسري العامة المعروفين - في تفسيره: أن النبي ﷺ لما أراد الهجرة إلى المدينة خلف علي بن أبي طالب بمكة؛ لقضاء ديونه وأداء الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلة خروجه من الدار وقد أحاط المشركون بها بأن ينام على فراشه، وقال له: اتّشح ببردي الحضرمي الأخضر، ونم على فراشي، وإنّه لا يصل منهم إليك مكروهٌ إن شاء الله تعالى. ففعل ذلك عليّ فأوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل: إني آخيتُ بينكما، وجعلتُ عُمرَ أحديكما أطول من الآخر، فأَيُّكما يؤثّرُ صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتم مثل علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين محمد، فبات على فراشه يُقدّيهِ بنفسه ويؤثره بالحياة؟! انزلا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه.

فتزلا فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجله، وجبرائيل يُنادي: بخ بخ، مَنْ مثلك يا علي، يباهي الله تبارك وتعالى بك الملائكة، فأنزل الله على رسوله وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي (هذه) الآية^(٢).

ولهذا سُمّيت هذه الليلة التاريخية بليلة المبيت.

ويقول أبو جعفر الإسكافي: إنَّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر، فلا يجحده إلاّ

(١) البقرة: آية ٢٠٧.

(٢) أنظر: تفسير الثعلبي: ج ٢، ص ١٢٦.

مجنونٌ وغيرُ خالطٍ لأهلِ الملة^(١).

هذا نوع من أنواع الإيثار، والذي يُعتبر من أهم أنواع الإيثار؛ لأنه إيثار بأعز شيء وهو النفس، وكان مصداقه في الآية الشريفة أمير المؤمنين عليه السلام.

والجود بالنفس أقصى غاية الجود^(٢)

وهناك نوع آخر من الإيثار، وهو نوعٌ مهم لا تقل أهميته عن سابقه، وهو ما أكد عليه النبي الأكرم صلوات الله عليه، وعمل به الأنصار مع المهاجرين،، حتى نزلت فيهم آية، بل آيات. قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْآيَمَنَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٣).

يقول ابن عباس: «إن الرسول صلوات الله عليه بين للأنصار - يوم الانتصار على يهود بني النضير - إذا كنتم ترومون المشاركة في حصّة المهاجرين من الغنائم فشاطروهم بتقسيم أموالكم وبيوتكم، وإذا أردتم أن تبقى بيوتكم وأموالكم لكم فلا شيء لكم من هذه الغنائم. فقال الأنصار: علام نتقاسم بيوتنا وأموالنا معهم؟ نقدّم المهاجرين علينا ولا نطمع بشيء من الغنائم. فنزلت هذه الآية تعظم هذه الروح العالية»^(٤).

نعود للآية، فهي بالرغم من أنها تتعلق - كما ذكرنا آنفاً - بحادثة هجرة النبي صلوات الله عليه وتضحية الإمام علي عليه السلام ومبيته على فراشه صلوات الله عليه، ولكن مفهومها ومحتواها الكلي عام وشامل، وفي الحقيقة إنها تقع في النقطة المقابلة للآيات السابقة عليها^(٥)، التي تتحدث عن

(١) أنظر: تفسير الأمثل: ج ٢، ص ٧٢ - ص ٧٣.

(٢) أنظر: تفسير مجمع البيان: ج ٢، ص ٣٥.

(٣) الحشر: آية ٩.

(٤) تفسير الأمثل: ج ١٨، ص ١٩٤.

(٥) وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَهِكُمُ اللَّهُ﴾ البقرة: آية ٢٠٤ - آية ٢٠٦.

المنافقين الذين يحاولون أن يحققوا لأنفسهم في المجتمع عزّة وكرامة عن طريق النفاق، ويتظاهرون بالإيمان بأقوالهم، بينما أفعالهم ليس فيها سوى الإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل.

أما الطائفة الثانية الذين يشرون أنفسهم، فتعاملهم مع الله وحده، حيث يُقدّمون أرواحهم رخيصةً في سبيله ولا يبغون سوى رضاه، ولا يطلبون عزّة ولا رفعةً إلا بالله، وتضحيات هؤلاء تصلح أمر الدين والدنيا، ويستقيم بها شأن الحق والحقيقة، وتصفو ببركتها حياة الإنسان وتثمر شجرة الإسلام.

ومما يُلفت النظر: أن البائع هو الإنسان والمشتري هو الله تعالى، والبضاعة هي النفس، وثمرتها رضوان الله تعالى، في حين نرى في موارد أخرى أن ثمن مثل هذه المعاملات هو الجنة الخالدة والنجاة من النار، من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(١).

هذه الآية وحين الالتفات إلى سبب النزول المذكور آنفاً نجد أنها تقدّم أعظم الفضائل للإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وإن كانت فضائله قد جاوزت الحصر والعدّ، ولكن هذه الفضيلة كانت في صدر الإسلام من الوضوح بمكان، دعت معاوية العدو للدود للإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يرشي (سمرة بن جندب) بأربعمائة ألف درهم؛ كي يروي حديثاً مختلقاً يثبت فيه فضيلة هذه الآية لعبد الرحمن بن ملجم، وقد اختلق هذا المنافق الجاني هذه الفرية^(٢)، ولكن أحداً لم يقبل منه حديثه المجهول.

وهناك نوع ثالث من الإيثار، وهو الإيثار بالطعام والشراب، وهو كسابقه؛ الإيثار بالنفس والإيثار بالأموال ونحوه، وكان من أبرز مصاديق هذا الإيثار، بل المعلم له هو

(١) التوبة: آية ١١١.

(٢) أنظر: شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٣.

النبي الأعظم ﷺ وأهل بيته ﷺ.

ولذا روى الثعلبي، وغيره من المفسرين: «إن الحسن والحسين ﷺ مرضا فعادهما جدّهما رسول الله ﷺ، وعادهما عامّة العرب، فقالوا: يا أبا الحسن، لونذرت لولديك نذراً، فقال ﷺ: إن برئ ولداي ممّا بهما صمت ثلاثة أيام شكراً لله تعالى. وقالت فاطمة: مثل ذلك، وقالت جاريتها فضة: إن برئ سيّداي ممّا بهما صمت ثلاثة أيام شكراً لله تعالى عزّ وجلّ. فألبسا العافية، وليس عند آل محمد ﷺ لا قليل ولا كثير، فأجر علي ﷺ نفسه ليلة إلى الصبح يسقي نخلاً بشيء من شعير وأتى به إلى المنزل، فقسمته فاطمة ﷺ إلى ثلاثة، فطحنت ثلثاً، وخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد منهم قرص، وصلى أمير المؤمنين ﷺ صلاة المغرب مع رسول الله، ثمّ أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، فجاء مسكين فوقف بالباب، وقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة، فسمعه علي ﷺ فقال: أطعموه حصّتي. قالت فاطمة ﷺ: كذلك، والباقون كذلك فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا إلاّ الماء القراح. فلما كان اليوم الثاني طحنت فاطمة ﷺ ثلثاً آخر وخبزته، وأتى أمير المؤمنين ﷺ من صلاة المغرب مع رسول الله ﷺ فوضع الطعام بين يديه، قال: فجاء يتيم من أيتام المهاجرين، وقال: استشهد والدي يوم العقبة، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة، فسمعه عليّ وفاطمة ﷺ والباقون، فأطعموه ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا إلاّ الماء القراح. فلما كان اليوم الثالث قامت فاطمة ﷺ إلى الثلث الباقي وطحنته وخبزته، وصلى علي ﷺ مع النبيّ صلاة المغرب، ثمّ أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، فجاء أسير فوقف بالباب، وقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، تأسرونا ولا تطعمونا أطعمكم الله من موائد الجنّة، فإني أسير محمد ﷺ، فسمعه علي ﷺ فأثّره وآثروه معه، فمكثوا ثلاثة أيام لبليالها لم يذوقوا إلاّ الماء القراح، فلما كان اليوم الرابع، وقد وفوا بنذرهم أخذ علي ﷺ

الحسن بيده اليمنى والحسين بيده اليسرى وأقبل نحو رسول الله ﷺ، وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، فلما بصر بهم النبي ﷺ قال: يا أبا الحسن، ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم، انطلق بنا إلى ابنتي فاطمة. فانطلقوا إليها وهي في محرابها تصلي وقد لصق بطنها بظهرها من شدة الجوع، فلما رآها النبي ﷺ قال: وا غوثاه، أهل بيت محمد يموتون جوعاً! فهبط جبرائيل عليه السلام وقال: خذ يا محمد، هنالك الله في أهل بيتك. قال: وما أخذ يا جبرائيل؟ قال: هل أتى على الإنسان، إلى آخر السورة^(١).

وقد جُمع الإيثار بأنواعه المتقدمة بالنفس وبالمال والطعام والشراب، أقول: جمع كُل ذلك ابنُ أمير المؤمنين عليه السلام، أبو الفضل العباس عليه السلام الذي كان يلازم الحسين مثل الخادم الملازم لسيدته، ويتمنى أن يقوم بخدمة للحسين عليه السلام، يقول الشيخ الكاشي رحمه الله: كان أبو الفضل عليه السلام جالساً في مجلس فيه أمير المؤمنين عليه السلام فعطش الحسين عليه السلام، فطلب من قنبر أن يأتيه بالماء، فقام العباس عليه السلام مسرعاً - وكان صبيّاً آنذاك - إلى أمّه أمّ البنين عليه السلام منادياً: أمّاه! إن أخي الحسين عطشان، وقد طلب الماء من قنبر، وأحبّ أن أوصل إليه الماء قبل قنبر، قامت أمّ البنين ملأت ركوةً ووضعتها على رأس العباس، جاء العباس والإناء على رأسه والماء يراق على كتفيه.

لما رآه أمير المؤمنين عليه السلام صاح: «إيه يا عباس، هذا يوم تحمل الماء إلى أخيك فراق الماء على كتفيك، ويوم آخر تحمل الماء إلى أخيك فراق مخّ رأسك على كتفيك»^(٢). نعم تناثر مخّ رأسه على كتفيه على أثر ذلك العمود؛ لأنّ العباس وقف متحيراً لا يدري ما يصنع، يده اليمنى مقطوعة، ويده اليسرى مقطوعة، الماء أريق على وجه الأرض، لحظات حرجة مرّت على العباس، لا يدري ما يفعل يستمرّ في سيره نحو الخيام؟ حينها

(١) أنظر: تفسير الثعالبي: ج ١٠، ص ٩٩ - ١٠١. كشف الغمّة: ج ١، ص ٣٠٧ - ٣١٠.

(٢) الطريق إلى منبر الحسين عليه السلام: ص ١٨٩ - ١٩٠.

كيف يواجه سُكينة وهي واقفة بانتظاره؟ وقد وعدّها بالماء، والماء قد أُريق، يُقاتل كيف يقاتل وقد قطعت يده؟

بينما هو في تلك الحال، جاء لعين من القوم، قال له: يا عباس أين شجاعتك؟ أين بسالتك؟ فقال له العباس عليه السلام: يا هذا جئتني إلّا أن ويدي مقطوعتان، فقال له اللعين: يا عباس، إن كانت يداك مقطوعتين فيدي سالتان، أجركم الله! فضربه بعمود من حديد على أُمِّ رأسه ففلق هامته، ووقع من على ظهر فرسه منادياً: أخي يا أبا عبد الله، ادركني ^(١).

أيس وگف عاف العمر من ساسه رايد مماته ولا غدر نوماسه
ضربوا ابعامود الضغايين راسه طاح ونخه سيد شباب الجنة
حين الوصل لحسين صوت إعميده جاء وگف عنده ونده لعضيده
عباس عگبك للعمر ما ريده شيفيدني ومنك گطعت الظنه
سمع حسه الحسين وركب وارزم وعدى إعله الخيل وطلعها إمن المخيم
ردّيمه وشافه سابح إيدم تحوصر فوگ راسه والدمع خر
لما صرع العباس صار الحسين عليه السلام بين أمرين، أولاً: نداء العباس (أخي يا أبا عبد الله، ادركني)، ثانياً: الجيش زحف على مخيم الحسين؛ لأنّه بمجرد أن سقط العباس زحف جيش العدو إلى مخيم الحسين، كأنّهم استضعفوا جانب الحسين بمصرع أبي الفضل العباس فلا يدري أيدفع الجيش عن المخيم، أم يلبي نداء العباس؟!

أخيراً رأى دفع العدو عن الخيام أولى، فحمل على الجيش وأبعدهم وهو يقول: إلى أين تفرون وقد قتلتم أخي؟ ولما أبعد الجيش عن الخيام توجه نحو مصرع أبي الفضل العباس، وأراد الحسين حمله ولكنّ العباس أبى، وهذا الإيثار الثاني، فالأول: كان في

(١) المصدر السابق.

شرب الماء قبل الحسين عندما ملك المشرعة، والثالث: أنّه كلّما أراد الحسين عليه السلام وضع رأس أبي الفضل عليه السلام في حجره لم يرَضْ أبو الفضل، قال له الحسين: أخي يا أبا الفضل، مالي كلّما جعلت رأسك في حجري أخذته ومَرَّغته في الأرض؟! قال أبو الفضل عليه السلام: أخي، إن جعلت رأسي في حجرك فَمَنْ الذي يجعل رأسك في حجره. لا حظوا الإيثار، الله أكبر!!

صاح احسين يا خويه يا عباس يا نور العين يا تاجي على الراس
خويه أنت الدرع والسيف والطاس اشلون اتروح وأنا أبكى امحير

جواب أبي الفضل العباس عليه السلام بلسان الحال:

يغله احسين يا زهرة اخيامي يا خويه نَحَلت سكنه عظامي
درخصني أريد الحگ عمامي أريد الثار گلبي دم إِنْفُور

وكانّي بأخته العقيلة عليها السلام تناديه:

يعبّاس يا نور العيون رحت عنك سيّية ويه الظعون
والي سبون ما يرحمون طول الدرب بينه يضربون
وسياطهم تلعب على متون خواتك ييو الغيرة يمزبون

او تشتكي العطش الفواطم عنده وبصدرِ صعدته الفُراتُ المفعمُ

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتقين.

الحاضرة الثانية عشرة

الرحمة



طمعت أن تسومه القوم ضيًّا	وأبى الله والجسام الصنيعُ
كيف يلوي على الدنية جيدًا	لسوى الله مالواه الخضوعُ
فأبى أن يعيش الأعرزًا	أو تجلّى الكفاح وهو صريعُ
زوّج السيف بالنفوس ولكن	مهرها الموت والخضاب النجيعُ
بأبي كائنًا على الطف خدرًا	هو في شفرة الحسام منيعُ
قطعوا بعده عُراه ويا حبل	وريد الإسلام أنت القطيعُ
قوّضي يا خيام عليا نزار	فلقد قوّض العماذ الرفيعُ
واملئي العين يا أمية نومًا	فحسين على الصّعيد صريعُ
وسروا في كرائم الوحي أسرى	وعداك ابن أمها التّريقُ
فترفق بها فما هي إلاّ	ناضر دامع وقلب مروع ^(١)

عگب الخدر ذاك ودلاي	أمشي — بيسر — يحسن تالي
وراسك يشيلونه اگبالي	يا محنتي ومحنة أطفالي

مشينه على الهزل ومچتفينه	اوخذونه بها اليسر — غصبن عليه
اوياکم نضل لو يحصل بدينه	لمن يحسن يلفينه المحتم

(١) الأبيات من قصيدة للسيد حيدر الحلي^{رحمته}، كما في ديوانه: ج ١، ص ٣٦، وقد تقدّمت ترجمته في

(أبودية)

يخويه تعلم بحالي وداري بغيّت أرعى يتاماكم وداري
سمية دورها تزهى وداري عگبكم يخوتي ظلت خليه

عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أربع مَنْ كُنَّ فيه بنى الله له بيتاً في الجنة: مَنْ أوى اليتيم، وَرَحِمَ الضَّعِيفَ، وَأَشْفَقَ عَلَى والدِهِ، وَرَفَقَ بِمَمْلُوكِهِ»^(١).

الرحمة:

هي مبعث الخيرات، ومعدن الفضائل؛ فبالرحمة تتجمع الصلوات، وتتوحد البشرية، بها يبرّ الولد أباه، وبها يصل المرء قريبه، وبها يالف الزوجان أحدهما الآخر، وبها يكفل اليتيم، ويُسبغ الجائع، ويكسى العريان، ويهتم حتى بالحيوان. والرحمة شعور طيب، به يشارك الإنسان الآخرين آلامهم، محاولاً أن يُخفّف عنهم وطأتها، وينسيهم أثقالها.

رحمة الله عزّ وجلّ لمخلوقاته:

فعن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «... ما ظنّك بالرؤوف الرحيم الذي يتودّد إلى مَنْ يؤذيه بأوليائه، فكيف بمن يؤذى فيه، وما ظنّك بالتوّاب الرحيم الذي يتوب على مَنْ يعاديه، فكيف بمن يترصّاه ويختار عداوة الخلق فيه»^(٢).

ولذا روي أنّ إبليس يطمع في رحمة الله عزّ وجلّ يوم القيامة.

فقد حُكي أنّ نبيّ الله موسى (على نبينا وآله وعليه السلام) التقى بإبليس (لعنه الله)

(١) الخصال: ص ٢٢٣، باب الأربعة.

(٢) تحف العقول: ص ٣٩٩.

فدار بينهما حديث، ثم قال نبي الله موسى ﷺ: سترى ماذا سيحل بك غداً؟!

قال إبليس: وأنت أيضاً سترى ماذا سأفعل غداً؟!

قال موسى: وما أنت فاعل؟

قال إبليس: أطلبُ الله بوعده، واحتجُّ بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١) وأنا شيءٌ، فوجب أن تتسع لي رحمته، وإذا كنتُ أنا لا شيء فبالاشيء لا يُحاسب ولا يُعاقب.

قال موسى ﷺ: «إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَتَّبِعُ لِمَنْ فِيهِ الْأَهْلِيَّةُ وَالْقَابِلِيَّةُ لَهَا، وَأَنْتَ بَعِيدٌ عَنْهَا كُلَّ الْبَعْدِ»^(٢).

ولذا نرى أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَتْ وَاسِعَةً يَطْمَعُ فِيهَا حَتَّى إِبْلِيسَ، لَكِنْ الَّذِي لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَلَيْسَ فِيهِ الْقَابِلِيَّةُ عَلَى اسْتِلَامِهَا فَلَا تَشْمَلُهُ، فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مُسْتَحَقِّهَا، وَلِذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

موجبات الرَّحْمَةِ؟

هناك عدَّةُ أمورٍ تسبب الرحمة الإلهية، بحيث إنَّ الإنسان لو فعلها صار محلاً لرحمة الله تبارك وتعالى، أو قل: موجبات لنزول الرَّحْمَةِ، ومنها:

١- الطاعة: فعن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَعَرَّضُوا لِرَحْمَةِ اللَّهِ بِمَا أَمَرَكَ مِنْ طَاعَتِهِ»^(٤).

٢- الذكر: عن أمير المؤمنين ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بِذِكْرِ اللَّهِ تُسْتَنْزَلُ الرَّحْمَةُ»^(٥).

٣- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة للرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

(١) الأعراف: آية ١٥٦.

(٢) آيات منتخبة من القرآن الكريم: آية ١١.

(٣) الأعراف: آية ٥٦.

(٤) تنبيه الخواطر: ج ٢، ص ١٢٠.

(٥) عيون الحكم والمواعظ: ص ١٨٨.

وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١﴾.

- ٤- رحمة خلق الله ورحمة النفس: فعن النبي ﷺ أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن يوم القيامة، إرحم من في الأرض يرحمك من في السماء»^(٢).
- ٥- معرفة الإنسان نفسه: فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «رَحِمَ الله امرءاً عرف قدره ولم يتعدَّ طوره»^(٣).

موانع الرَّحمة؟

- ١- رحمة من لا يرحم: فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «رحمة من لا يرحم تمنع الرحمة»^(٤).
- ٢- منع الرحمة: فعنه عليه السلام أنه قال: «من لم يرحم الناس منعه الله رحمته»^(٥).

الأمر الأول: رحمة الأيتام

رُوي أنه كان النبي ﷺ يتكفلُ يتيماً، وكان كُلُّما يجلس على طعامه يحضره ويأكل معه، فلما مضى زمان مات اليتيم فلم يأكل النبي في الليلة طعاماً، وكان يتأسف على فوته، فقال له أصحابه: كم تُحزن قلبك بفوته وحرمانك منه؟! نحن سنأتيك بيتيم آخر فتكفله، قال ﷺ: «هذا اليتيم كان سيء الخلق، وأنا كنتُ تحمّلتُ سوء أخلاقه، فلا يحصل لي من غيره ما يحصل من الفيض»^(٦).

وهكذا تكون مسألة اليتيم من المسائل التي اهتمَّ بها النبي الأكرم ﷺ لأجل إهتمام

(١) النور: آية ٥٦

(٢) بحار الأنوار: ج ٧، ص ١٦٧.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص ٢٦١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٧٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤٢٨.

(٦) أنظر: الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ١٨٤.

الباري عزَّ وجلَّ، حتى أنَّه تبارك وتعالى جعل أكل مال اليتيم أكلاً للنار، حيث قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١).

وقد يغفر الله تبارك وتعالى للإنسان ذنباً كبيراً؛ لأجل اهتمامه بالأيام، فقد حدث بعض الثقات أنَّ رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في نواحي البصرة، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته؛ لتنفّر الطباع منه، فاستأجرت من حمل الجنازة إلى المصلّى فما صلّى عليه أحد، فحُمِلَ إلى الصحراء للدفن، وكان على جبلٍ قريبٍ من الموضع زاهدٌ مشهورٌ، فرأوه كالمنتظر للجنازة، فقصدوها ليُصلّى عليها، فانتشر الخبر في البلد أنَّ فلاناً الزاهد نزل يُصلّي على فلان، فخرج أهل البلد فصلّوا معه عليها، وتعجّب الناس من صلاة الزاهد، وقيل له في ذلك، فقال: رأيتُ في المنام من أمرني أن انزل إلى الموضع الفلاني ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلّ عليها فإنه مغفور له، فازداد تعجّب الناس من ذلك، فاستدعى الزاهد امرأة الميت وسألها عن حاله، فقالت: كان طول نهاره مشغولاً بشرب الخمر، فقال: هل تعرفين له شيئاً من أعمال الخير؟

فقالت: نعم، ثلاثة: الأوّل: كان كلّ يوم يفيق من سكره وقت الصُّبح، فيبدّل ثيابه ويتوضأ ويُصلّي الصُّبح.

الثاني: أنّه كان لا يخلو بيته من يتيّم أو يتيمين، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده.

الثالث: أنّه كان يفيق من سكره في أثناء الليل فيبكي، ويقول: يا ربَّ أي زاوية من زوايا جهنم تُريد أن تملأها بهذا الخبيث^(٢).

(١) النساء: آية ١٠

(٢) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ١٨٤.

ومن هنا كان إيواء اليتيم يشكّل ركناً من الأركان الأربعة التي يبنى الله تبارك وتعالى بها بيتاً في الجنة للعبد الذي يتّصف بها، كما تقدّم في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام.

الأمر الثاني: رحمة الضعيف

وهي لا تختصّ بالإنسان، بل تشمل حتّى الحيوان؛ فرحمة الله تبارك وتعالى عامّة وشاملة لجميع المخلوقات: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١)، ولكن أهمّ شيء أن يرحم الإنسان أخاه الإنسان، ويهتمّ به، خاصّةً إذا كان ضعيفاً من الناحية البدنية والمادية، بل وحتّى المعنوية.

فإذا رحم الإنسان أخاه الإنسان المسلم سوف ينزل الله تبارك وتعالى رحمته عليهما. وقد يصل الإنسان إلى منزلة دنيوية وأخروية عالية بسبب رفقه بالحيوانات ورحمته للضعيف منها.

نُقل أنّ السلطان المقتدر (سبكتكين) كان صيّاداً من سُكّان نيشابور، ولم يكن له من متاع الدنيا إلّا فرس، فركبه يوماً وذهب للصيد كعادته، فرأى ظيياً معه فصيله فقصدتهما، ففرّ الظبي واصطاد الفصيل، فشده على رديفه ورجع، فلمّا ذهب قدراً من الطريق نظر إلى خلفه، فرأى الظبي يسير خلفه وينظر إليه نظر حسرة، فعلم من حاله أنّه يطلب فصيله، ولهذا يمشي خلفه فرّق وأشفق عليه في نفسه، وقال محدّثاً نفسه: الصيد وإن كان حلالاً ومباحاً لي، لكنّ التّرحم على هذا الظبي أولى من هذا الصيد، فوضعه على الأرض فأخذ مع أمه بطريقهما، وكان (السبكتكين) ينظر إليهما فرأى الظبي قد رجع، وهو ينظر إليه كأنّه يدعو له، وفي تلك الليلة رأى رسول الله ﷺ في منامه وهو يقول له: يا سبكتكين، إنّ الله أعطاك السلطنة والدولة العظمى بشفقتك وترحمك على الظبي، فيجب عليك أن تراعي ذلك في رعيّتك لتدوم دولتك، فما مضى زمان حتّى استقر على سرير الملك الكبير^(٢).

(١) الأعراف: آية ١٥٦.

(٢) أنظر: الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ١٨٨.

الأمر الثالث: الشفقة على الوالدين

وهذا هو الركن الثالث والمهم في الحديث، وهو أن الإنسان يشفق على والديه ويرحمهم وينظر إليهم نظرة رحيمة، فإن: «رضا الله مع رضا الوالدين، وسخط الله مع سخط الوالدين»^(١).

وهما الباب الذي إذا أراد الإنسان أن يرضي الله تبارك وتعالى يرضيه عن طريقهما حتى قرن سبحانه وتعالى عبوديته بالإحسان إليهما، حيث قال عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٢).

سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٣)، ما هذا الإحسان؟ فقال: «الإحسان صُحبتُهما، وأن لا تكلفُهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنين. أليس يقول الله عز وجل: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾»^(٤).

فمن حقنا أن نعرف ويعرف كل ذي لب: أن الأب وإن عظم حقه لما يقوم به للولد من بذل في سبيل تثقيفه وتأديبه، فيما ليس بإمكان الأم أن تقوم ببعض منه إلا نادراً هو أقل منها حقاً على الولد، كيف ولماذا؟! لأنها تحمّلت في حمله والمخاض به في (ساعات الطلق) الموصوفة بسكرات الموت، تحمّلت ما لم يستطع الوالد لوكلّف تحمّل بعضه، إضافة إلى ما تحمله الأم للولد من حنانٍ فائق.

هذا أمير المؤمنين عليه السلام ووصي رسول رب العالمين يُحاطب ولده الحسن الزكي عليه السلام مظهراً شدة حبه له: «[بني] وجدتك بعضي، بل وجدتك كُلّي، حتى كان شيئاً [أو

(١) روضة الواعظين: ص ٣٦٨.

(٢) الإسراء: آية ٢٣.

(٣) البقرة: آية ٨٣.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ١٥٧، ح ١.

سهماً] لو أصابك أصابني، ولو أن الموت أتكأ ثاني^(١)، يخاطبه بهذا الخطاب والحسن عليه السلام يومها بتمام الصحة وريعان الشباب لم يُصب بشيء، لكن الإمام عليه السلام يصف شفقتة عليه وتألمه لأجله، لو قدر أنه يُصابُ بسهم أو بجرح يقول له الإمام عليه السلام: إن ذلك السهم باللحظة نفسها سيصيبني، وما ذلك إلا من شدة الحب والصفاء والولاء الذي بينهما، فصار ما يؤلمه يؤلم الإمام وما يُصيبه يُصيب الإمام عليه السلام.

وقال حُكماء العرب: إصابة السهم أخفُّ ألماً من إصابة الهم والغم.
ولذا يقف الإمام الحسين عليه السلام على ابن أخيه القاسم بن الإمام الحسن عليه السلام، وكأنا وقف الإمام على ولده؛ لأنه هو الذي رباه واعتنى به، وكأني به يخاطبه^(٢):

صاح يا جسام أوعد راسه گعد ويل گلبي ينحب او گلبه انمرد
يبن أخوي العرس چا المن بعد اوها متك من سيف الأزدي مشرگه
ثم أخذ عمه الحسين يناشده:

يعمّي اشگالت من الطبر روحك يجاسم ما تراويني اجر و حك
لون أبكي يعمّي چنت أنو حك بگلب مثل الغضة و بدمع مُحمر

إن ييكه عمّه حزناً لمصرعه فما بكى قمرٌ إلا على قمرٍ

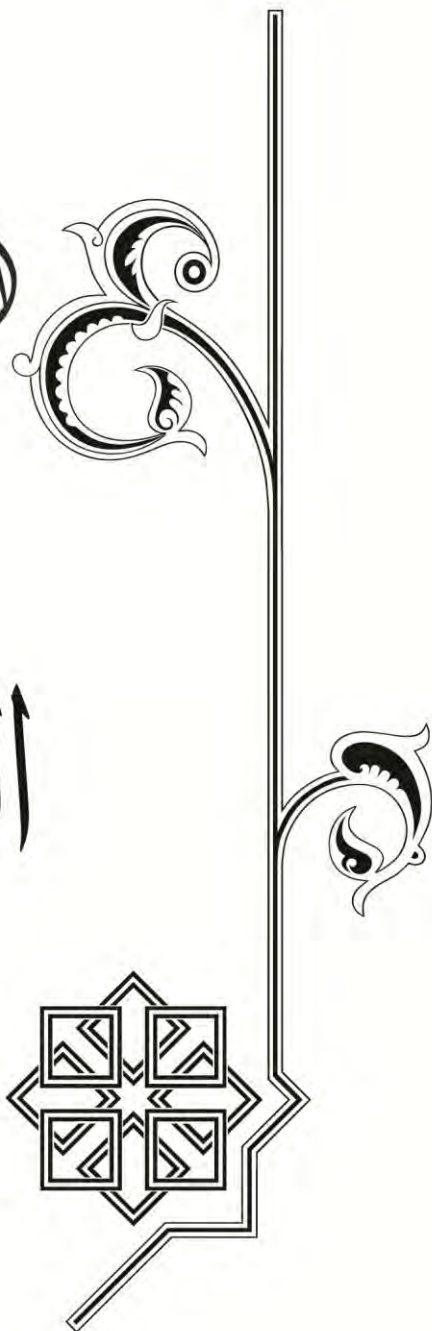
إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُقلبٍ ينقلبون
والعاقبة للمتقين

(١) بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ١٩٩.

(٢) من دروس شيخنا الأستاذ محمد سعيد المنصوري رحمه الله، وقد تقدّمت ترجمته في المحاضرة السادسة.

الحاضنة الثالثة عشرة

القناعات



راحلٌ أنتَ والليالي نُزولُ
 لا شجاعٌ يقى فيعتنقُ الـ
 غاية النَّاسِ في الزمانِ فناء
 إنما المرءُ للمنية مخبوء
 عادةً للزمانِ في كلِّ يومٍ
 كلُّ بالكِ يُكى عليه وإن
 أيُّ يومٍ أدمى المدامع فيه
 يومٌ عاشورِ الذي لا أعان
 يا بن بنت النبي ضيّعتِ العهدَ
 ما أطاعوا النبيَّ فيكَ وقد
 أتراني أذمَّاءٌ ولما
 أتراني أعيرَ وجهي صوناً
 ومضرٌّ بك البقاء الطويلُ
 بيضٌ ولا أملٌ ولا مأمولُ
 وكذا غايةُ الغصونِ الذبولُ
 وللطعنِ تُستَجَمُّ الخيولُ
 تنني جيرةً وتبكي طلولُ
 طال بقاؤه والثاكل المشكولُ
 حادثٌ رائعٌ وخطبٌ جليلُ
 الصحبُ فيه ولا أجارَ القبيلُ
 رجالٌ والحافظون قليلُ
 مالت بأرماحها إليك الذحولُ
 يُرو من مهجة الإمام الغليلُ
 وعلى وجهه تجولُ الخيولُ^(١)

(١) القصيدة للشريف الرضي رحمه الله، قال عنه في أدب الطف: (ج٢، ص٢١٦، ص٢١٨): «الشريف الرضي ذو الحسين أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المنقبتين أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر عليه السلام، ولد سنة ٣٥٩ هـ ببغداد، وتوفي سنة ٤٠٦ هـ في السادس من المحرم، ودفن بداره في بغداد، ثم نُقل إلى مشهد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء. نظم الشعر في عهد الطفولة ولم يزد عمره على عشر سنين، فأجاد وحلق وحاز قصب السبق بغير منازع، قال عنه صاحب عمدة الطالب: كانت له هيبه وجلالة، وفيه ورع وعفة وتقشف ومُراعاة للأهل والعشيرة، ولي نقابة الطالبين مراراً وكانت له إمارة الحج والمظالم، كان يتولّى ذلك نيابة عن أبيه ذي المناقب، ثم تولى ذلك بعد أبيه مستقلاً، وحجَّ بالناس مرات.

أمّا مكانته العلميّة: فهو أُوحد علماء عصره، وقد قيل: إنّ الرضي أعلم الشعراء لولا المرتضى، والمرتضى أشعر العلماء لولا الرضي، وهذه مؤلفاته تعطينا صورة جلية عن براعته، فهذا (حقائق التأويل في متشابه التتريل) كما يقول ابن جنّي: صنّف الرضي كتاباً في معاني القرآن الكريم يتعدّر وجود مثله، و(كتاب المجازات النبوية) و(تلخيص البيان عن مجازات القرآن) وغيرها. وهو الذي جمع كلام أمير المؤمنين وأسماء نهج البلاغة...».

طلعت زينب تنادي	من سحكت عليه الخيل
وياروح النبي الهادي	اويلي عليك يابن أمي
تبرد جمرة أفادي	بعدهاي المصيبة اشلون
عسه ولا شاهدت عيني	عمت عيني يخويه حسين

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَنَعَ مِنَ اللَّهِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْمَعَاشِ رَضِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ»^(١).

القناعة:

هي الاكتفاء بقدر الحاجة والضرورة من المال وغيره من أمور الدنيا، وهي صفة فاضلة، ومن أعظم الوسائل للوصول إلى السعادة الأبدية، والقنوع مرتاح البال، متفرغٌ لأمر الدين وسلوك طريق الآخرة^(٢).

فضل القناعة:

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «خَمْسٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ لَمْ يَتَهَنَّأْ بِالْعَيْشِ: الصَّحَّةُ، وَالْأَمْنُ، وَالْغِنَى وَالْقَنَاعَةُ وَالْأَنْيَسُ الْمَوَافِقُ»^(٣).

قيل لبعض الحكماء: رأيت شيئاً أفضل من الذهب؟ قال: نعم، القناعة. وإلى هذا ينظر قول بعض الحكماء: استغناؤك عن الشيء خيرٌ من استغنائك به.

كان ديوجانس الكلبي من أساطين حكماء اليونان، وكان متقشفاً زاهداً لا يقبطني شيئاً

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٣٨، ح ٣.

(٢) أنظر: الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ٣٧٩.

(٣) مشكاة الأنوار: ص ٢٦٠ - ص ٢٦١.

ولا يأوي إلى منزل، دعاه الإسكندر إلى مجلسه فقال للرسول: قل له: إنَّ الذي منعك من المسير إلينا هو الذي منعنا من المسير إليك، منعك إسغناؤك عنَّا بسُلطانك، ومنعني استغنائي عنك بقناعتي^(١).

هذه هي القناعة وضدّها الطمع، وهو تمني ما في أيدي النَّاس، وأن يحصل على ما عندهم، وبعبارة أخرى: اشتهاء الشيء والرغبة فيه والحرص عليه، وهو من الرذائل المهلكة^(٢).

إلاَّ أنّه يُمدح في بعض الموارد، وهي:

١- الطمع بعفو ورحمة الله عزَّ وجلَّ.

٢- الطمع بنعيم الآخرة وسعادتها.

وأما مطلق الطمع فهو مذموم أشدَّ الذمِّ؛ لأنَّه يؤدِّي في بعض الأحيان إلى قتل الإنسان.

رُوي: «أنَّ المسيح ﷺ خرج يوماً إلى البرية ومعه ثلاثة من أصحابه، فلما توسَّعوا في البرية رأوا لبنة من ذهب مطروحة في الطريق، فقال عيسى ﷺ: هذا الذي أهلك من البرية مَنْ كان قبلكم، إياكم ومحبة هذا، فمضوا عنها فما مضى ساعة حتَّى قال واحد منهم: يا روح الله، ائذن لي في الرجوع إلى البلد فإنِّي أجدُّ الألم، فأذن له، فأتى إلى اللبنة ليأخذها فجلس عندها.

فقال الثاني: يا روح الله، ائذن لي في الرجوع فأذن له، وكذلك الثالث، فاجتمعوا عند تلك اللبنة ليأخذوها، فقالوا: نحنُ جِيع، فليمضِ واحد منَّا إلى البلد ليشتري لنا طعاماً حتَّى ندخل البلد، فمضى واحد فأتى إلى السوق واشترى طعاماً فقال في نفسه: إنِّي

(١) سفينة البحار: ج٧، ص٣٧٥.

(٢) أنظر: الأخلاق والآداب الإسلامية: ص٣٧٧.

أجعل فوقه سماً فيأكلان فيموتان، فتبقى تلك اللبنة لي وحدي، فوضع في الطعام سماً. وأما الآخرون فتعاقدوا على أن يقتلاه ويأخذا اللبنة، فلما جاء بالطعام بادرا إليه وقتلاه وجلسا يأكلان الطعام، فما أكلا قليلاً حتى ماتا فصاروا كلُّهم أمواتاً حول تلك اللبنة، فلما رجع عيسى عليه السلام مرَّ على تلك اللبنة، فرأى أصحابه أمواتاً فعلم أن تلك اللبنة هي التي قتلته، فدعا الله فأحياهم لأجله، فقال لهم: أما قلْتُ لكم: إنَّ هذا هو الذي أهلك من كان قبلكم فتركوا اللبنة ومضوا»^(١).

نتائج القناعة:

هناك عدّة نتائج للقناعة منها:

- ١- العزّ: فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ثمرة القناعة العزّ»^(٢).
- ٢- الاكتفاء والرضى بما عنده.
- ٣- صلاح النفس: فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أعوّن شيء على صلاح النفس القناعة»^(٣).
- ٤- القناعة راحة: فعن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «القنوع راحة الأبدان»^(٤).
- ٥- سهولة الحساب ويسره يوم القيامة.

من قصص القناعة:

عن أبي بصير قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أرسل عثمان إلى أبي ذرٍّ رضي الله عنه موليّن له و معها مئتا دينار، فقال لهما: انطلقا إلى أبي ذرٍّ فقولا له: إنَّ عثمان يقرئك

(١) زهر الربيع: ص ٤٠٦.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ص ٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ١١٢.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١٢٨ باب وصايا الحسين عليه السلام.

السلام، ويقول لك: هذه مئتا دينار فاستعن بها على ما نابك. فقال أبو ذر: هل أعطى أحداً من المسلمين مثل ما أعطاني؟ قالوا: لا، قال: إنما أنا رجلٌ من المسلمين يسعني ما يسع المسلمين. قالوا له: إنه يقول: هذا من صُلب مالي وبالله الذي لا إله إلا هو ماخالطها حرام ولا بعث بها إليك إلا من حلال. فقال: لا حاجة لي فيها وقد أصبحتُ يومي هذا وأنا من أغنى الناس. فقالوا له: عافاك الله وأصلحك، ما نرى في بيتك قليلاً ولا كثيراً مما يُتمتع به، فقال: بلى، تحت هذا الأكاف الذي ترون رغيفاً شعيرٍ قد أتى عليهما أيام، فما أصنع بهذه الدنانير، لا والله حتى يعلم الله أنّي لا أقدر على قليل ولا كثير، وقد أصبحتُ غنياً بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام وعترته المهادين المهديين الراضين المرضيين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون. وكذلك سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: فإنه لقبيحُ بالشيخ أن يكون كذاباً، فرُدّها عليه وأعلمه: إنّني لا حاجة لي فيها ولا فيما عنده حتى ألقى الله ربّي فيكون هو الحاكم فيما بيني وبينه»^(١).

فهكذا تعلّم أبو ذر الغفاري من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ومن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، تربّى على أن لا يكون عبداً مسترقاً، وإن كلفه ذلك أن يموت وحيداً وغريباً، وكذا تربّى وعاش أبو الفضل عليه السلام على أن لا يكون مسترقاً فقد تعلّم الصرخة الحسينية: هيهات منا الذلة... ولذا ترى أنّه عليه السلام لما جاء إليه الشمر (لعنه الله) ومعه كتاب من ابن زياد فيه الأمان للعباس وإخوته، بحيث لو رضي به العباس وإخوته لحصل الشمر على جائزة من عبيد الله بن زياد (لعنه الله). فصاح الشمر: أين العباس وإخوته؟ وكان العباس وقتئذٍ جالساً بين يدي الحسين عليه السلام، فأطرق برأسه حياءً من الحسين، فصاح الشمر ثانياً وثالثاً، فالتفت الحسين عليه السلام إلى أخيه أبي الفضل العباس عليه السلام قائلاً: أجبه يا أخي ولو كان فاسقاً. ركب أبو الفضل عليه السلام جواده، وأتى نحو الشمر وقال: ما تريد يا بن ذي الجوشن؟

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٣٩٨، ح ٥٥.

فقال: يا أبا الفضل هذا كتاب من ابن زياد، يذكر فيه بأنك أنت وإخوتك آمنون وأنت الأمير على هذا الجيش، فلا تعرض نفسك للقتل! فقال له العباس عليه السلام: لعنك الله ولعن آمانك، أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له، ويلك، أفيالموت تخوفني؟! وأنا المميت خواض المنايا، أترك من خلقي الله لأجله وأدخل في طاعة اللعين وأولاد اللعناء^(١).

نعم كيف يترك إمام زمانه وسيده ومولاه، ولذا نراه قد وفي لسيد الشهداء عليه السلام، فقدّم كل مايمكن أن يقدمه مأموم لإمام زمانه، إلى أن وقع على رمضاء كربلاء، ونادى: أخي يا حسين أدرك أخاك.

أقبل أبو عبد الله عليه السلام نحو مصرعه، كشف الأعداء عن جسد أبي الفضل العباس عليه السلام. يقول حميد بن مسلم: لما وصل بالقرب من العباس طأطأ رأسه إلى التراب وحمل شيئاً وقبله، نظرنا وإذا هي يمين العباس، بعد ذلك طأطأ رأسه مرة ثانية وحمل شيئاً آخر وقبله، وإذا هي شمال العباس عليه السلام، بعد ذلك أخذ شيئاً آخر وقبله، نظرنا وإذا بها عمامة العباس ملطخة بالدماء... وصل إليه أخذ رأسه وضعه في حجره أرجعه أبو الفضل وعفره بالتراب، أرجعه الحسين مرة ثانية إلى حجره، أرجعه العباس إلى التراب، وهكذا ثالثة، فالتفت إليه الحسين عليه السلام قائلاً: الوداع الأخير يا بن والدي!

فقال العباس: أخي أبا عبد الله يا بن الزهراء، الآن أنت تأخذ برأسي تضعه في حجرك، ولكن روحي فداك أبا عبد الله من بعدي من الذي يأخذ برأسك؟ من الذي يمسح الدم والتراب عن وجهك؟^(٢)

(١) أنظر: الإرشاد: ج ٢، ص ٨٩. تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣١٥. بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٩١.

(٢) الطريق إلى منبر الحسين عليه السلام: ص ١٨٣. ص ١٨٤.

خويه من يغمضلك اعيونك يا هو اللي يگف يحسين دونك
 عله افراگي آشوف انخطف لونك وتضل بعدي ييو سکنه محير
 يا عباس لمن صدت العين مني لعد ايديك الاثنين
 دمهن يسيل اوشفت چفين فوگ الثرى ناديت صوتين
 واحد نواعي او واحد ونين يعباس صارت طيحتك وين
 يعباس أنه اعضيدك احسين مگدر على افراگك يلحنين

وسفه يفرگ بينه البين

(أبوزية)

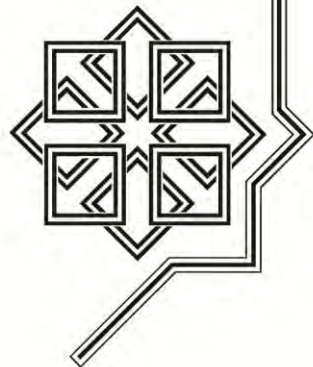
چنت عوني ونه بالكون عونك غضيت الي عليك اوفزت عونك
 لچن يا هو من أصيح يصيح عونك يخويه حسين بس أمر علي

ما خلتُ بعدك أن تشل سواعدي وتكف باصري وظهري يُقصمُ

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
 وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أي منقلب ينقلبون

الحافظه لكر البعث عسرة

الرضا بقضاء الله



يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى الْبُكَاءِ عَيُونِي دَعَهَا تُخَفُّ لَوْعَتِي وَشَجُونِي
 مَنْ مُبْلَغُ أُمِّ الْبَنِينَ رِسَالَةً مِنْ وَالِهِ بِشَجُونِهِ مَرَهُونِ
 لَا تَسْأَلُ الرُّكْبَانَ عَنْ أَبْنَائِهَا فِي لَوْعَةٍ لِفِرَاقِهِمْ وَحْنِي
 أَوْ مَا دَرَتْ بِفِعَالِهِمْ يَوْمَ الْوُغَى فِي كَرْبَلَاءَ وَهُمْ أَعَزُّ بَنِينَ
 فَلَتَأَتْ أَرْضَ الطِّفْلِ تَنْظُرُ وَلَدَهَا ثَاوِينَ بَيْنَ مَقْطَعٍ وَطَعِينِ
 وَمُؤَسَّدِينَ عَلَى الصَّعِيدِ فَدَيْتُهُمْ صَرَعَى بِلاَ غُسْلٍ وَلَا تَكْفِينِ
 وَقَضُوا ضَحَايَا كَالْحُسَيْنِ زَعِيمِهِمْ مَا بَلَّلُوا أَحْشَاءَهُمْ بِمَعِينِ^(١)

(١) القصيدة للشيخ حسن قفطان، قال عنه السيد جواد شبّر في أدب الطف (ج٧، ص١٠٥، ص١٠٧):
 « الشيخ حسن بن علي بن عبد الحسين بن نجم السعدي الرباعي نسبة إلى آل رباح؛ فخذ من بني سعد العرب المعروفين بالعراق، قال السيد مهدي القزويني في (أنساب القبائل العراقية): بنو سعد بطن من العرب منهم في الدجيل ومنهم في كربلاء، الدجيلي الأصل للملومي المحتد، النجفي المولد والمسكن والمدفن، الشهير بقفطان، ولد في النجف الأشرف سنة ١١٩٩هـ، وتوفي بالنجف سنة ١٢٧٩هـ، عن عمر يناهز الثمانين، كما في الطليعة، ودفن في الصحن الشريف العلوي عند الإيوان الكبير المتصل بمسجد عمران، كان فاضلاً ناسكاً تقياً محباً للأئمة الطاهرين، وأكثر شعره فيهم، درس الفقه على الشيخ علي ابن الشيخ الأكبر الشيخ جعفر، حتى نبغ فيه وعدّه من الأعلام الأفاضل، واختصّ أخيراً بصاحب الجواهر، وكان يعدّ من أجلّ تلامذته وأفاضلهم، اتخذ الوراقة مهنة له، وورث ذلك عنه أبناؤه وأحفاده إلاّ أنّه كان يمتاز عنهم باتقان الفقه واللغة والبراعة فيهما، وهذا ما حدا بأستاذه أن يحيل إليه وإلى ولده الشيخ إبراهيم تصحيح الجواهر ومراقبته حتى قيل: إنّ لولاهما لما خرجت الجواهر؛ لأنّ خط المؤلف كان ردياً، وقد كتب النسخة الأولى عن خط المؤلف، ثمّ صاروا يحترقان بكتابتها وبيعها على العلماء وطلاب العلم، وأكثر النسخ المخطوطة بخطهما، وهذا دليل على أنّ المترجم كان يعرف ما يكتب، وكان جيد الخط والضبط، ويظهر من ترجمة سيدنا الصدر له أنّه كان جامعاً مشاركاً في العلوم بأكثر من ذلك، فقد قال في (التكملة): كان في مقدمي فقهاء الطائفة مشاركاً في العلوم فقيهاً أصولياً حكيماً إلهياً؛ وكذلك له التقدّم والبروز في الأدب وسبك القريض، وله شعر من الطبقة العليا. توفي سنة ١٢٧٥هـ كما في التكملة، أو ٧٧ كما في (الطليعة)، وقال: ودفن في الصحن العلوي الشريف عند الإيوان الكبير المتصل بمسجد عمران، وترك آثاراً هامةً، منها: (أمثال القاموس) و(الأضداد) و(طبّ القاموس) ورسالة في الأفعال اللازمة المتعدية في الواحد. وخلف من الذكور: الشيخ إبراهيم والشيخ أحمد والشيخ حسين والشيخ محمد والشيخ علي والشيخ مهدي، وفي (الكرام البررة) أنّ الشيخ حسين توفي في حياة أبيه حدود

(بحراني)

بالله استعدي للبواجي يمّ البنين
 ردوا يتامى وانذبح عبّاس واحسين
 يمّ البنين اتذبحوا كلّهم على الكاع
 وحسين ظلّ امجرّد ومكسور الأضلاع
 ومخدره حيدر علي فرت بلا اقناع
 وفيه الحرم والنار تسعر بالصواوين
 يمّ البنين الأربعة أنذبحوا ظمايا
 وظلّوا ثلث تيّام بالغبره عرايا
 ليتج نظرتي عالنهر صاحب الراية
 مفضوخ راسه إمكطعه إشماله واليمين
 وكأني بها صاحت:

(قطيفي)

يا ليت عندي من الولد سبعين مولود
 بالمرجله كلّها مثل عبّاس وتزود
 تنذبح وابن المصطفى لدياره يعود
 سالم ولا تنظام زينب والخواتين

عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، وَلَمْ يَشْكُرْ لِنِعْمَائِي، وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِي، فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ»^(١).

الرضا بقضاء الله تبارك وتعالى معناه أن الإنسان يترك الاعتراض والسخط على قضاء الله وقدره.

والرضا بقضاء الله وقدره متعلق بالحب، فإذا حصلت المحبة بين الإنسان وربّه حصل الرضا بالقضاء النازل من المولى عز وجل؛ لأن الحبيب لا يتوقع من حبيبه إلا الخير، بل يحمل جميع أفعاله وما يصنع به على أحسنها وأتمّها وأقومها. والرضا بقضاء الله هو أحد أركان الإيمان على ما ورد في بعض الروايات.

منها: ما روي عن النبي الأكرم ﷺ أنه سأل طائفة من أصحابه، فقال: «ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نصبر عند البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء. فقال ﷺ: مؤمنون وربّ الكعبة»^(٢).

وحكي أن أحد الصالحين كان له ولدٌ مريضٌ، فرآه صاحبه في حالة من الحزن والارتباك والخوف على طفله، وشاهده يدخل ويخرج من باب بيته، ويدعو الله عز وجل أن يشفيه، وبعد ساعات مضت، رآه وقد خرج من منزله وهو مرتاح، فظن أن الطفل شُوفي فقال له: الحمد لله على شفاء الولد، فقال له الرجل الصالح: لقد مات الطفل! فتعجب الرجل وقال له: رأيتك أثناء مرضه وأنت حزين خائف مرتبك، والآن وقد مات أراك مرتاحاً.

فقال له الرجل الصالح: كان علينا أن ندعو الله عز وجل أثناء مرضه، وأن نأتي

(١) بحار الأنوار: ج ٥، ص ٩٥، ح ١٨.

(٢) مسكن الفؤاد: ص ٧٩.

بالطبيب والدواء، ولكن الطفل قد مات وقد رضينا بقضاء الله وقدره^(١).
ثم إنه لا شك أن هناك أموراً تساعد الإنسان على الرضا بقضاء الله وقدره. وأول
هذه الأمور هو المعرفة والعلم، فالإنسان الذي يعلم أن الله عادل وحكيم، ولا يقدر لعبده
إلا ما هو خير له، لا يسخط على أمر الله عز وجل، فالطفل حينما يهرب من الطبيب لا
يعلم أن هذا الطبيب سوف يعالجه، وذلك لمصلحته، وكذلك الجاهل بقدرة الله وعظمته
وحكمته يغضب ويسخط إذا ما أصابه قضاء الله.
فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله عز
وجل»^(٢).

إذن، المعرفة والعلم هما الأمران اللذان يُساعدان الإنسان على الوصول إلى الدرجات
العالية، ويجعلانه يرضى بقضاء الله وقدره.
ومن ثم أن هناك أموراً حتمية لا مجال لتغييرها.
فالموت - مثلاً - قضاءٌ محتم، ولا مدخل فيه للإرادة الإنسانية، فينبغي للإنسان أن
يُسَلِّم للإرادة الإلهية، وفوق التسليم أن يرضى بقضاء الله وقدره، ولا يغضب لذلك.
نعم، بعض الأمور تحتاج إلى السعي مثل ذهاب الإنسان المريض إلى الطبيب، وطلب
الرزق، وغير ذلك، أما نفس الموت، فماذا يصنع له الإنسان وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٣).

لكن في كل الأحوال الواجب علينا هو الرضا بقضاء الله وقدره؛ ولذا ترى النبي
الأعظم عليه السلام عندما توفي ابنه إبراهيم عليه السلام حزن وبكى، وروي عنه عليه السلام أنه قال: «العين

(١) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ٤٧١ - ص ٤٧٣.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٦٠ باب الرضا بالقضاء، ح ٢.

(٣) الأعراف: آية ٣.

تدمعُ، والقلبُ يحزن ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا»^(١).

وكيف لا؟ وقد قال تعالى عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢). فمن هنا ينبغي لنا نحن المسلمين الاقتداء بالنبي الأكرم ﷺ.

وإذا رضي الإنسان بقضاء الله وقدره وصبر على ما ابتلاه به المولى عزَّ وجلَّ، سوف يشعر حينئذٍ بالثمرات التي يلمسها بيده، ويحسها بقلبه، ويحصل على تلك النتائج الباهرة بصورة ملموسة وظاهرة.

وأول هذه النتائج وأهمها الراحة، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَنْ رضي بما قُسم له استراح بدنه»^(٣).

ومنها: ذهاب الحزن، فلم يحزن على ما فاتته، ويكون قريباً من الله تبارك وتعالى. إلى غير ذلك من النتائج العالية التي يلمسها الإنسان في الحياة الدنيا. وأما ما أعدّه الله تبارك وتعالى له في الآخرة فهو الجنة بإذنه عزَّ وجلَّ. ومن عجيب قصص الرضا بقضاء الله وقدره، ما رواه ذو النون المصري، حيث قال: دخلت المقبرة فرأيت امرأةً شابةً جالسةً، وبين يديها قبور أربعة، وهي تنشد هذه الآيات:

صبرتُ وكان الصبر خير مطيَّةٍ	وهل جزع يجدي تراه فأجزعُ
صبرت على ما لو تحمَّل بعضه	جبالٌ برضوى أصبحت تتصدعُ
فسالت دموعُ العين ثمَّ رددتها	إلى ناظري والعينُ في القلب تدمع

فقلت: ما الذي نزل بك، وما شأنك؟

قالت: أعجب شأن، أصبحت ولي بنون ثلاثة ولي زوج عطوف، وأمسييت وقد

(١) مسكن الفؤاد: ص ٩٣.

(٢) القلم: آية ٤.

(٣) الخصال: ص ٦٣٢.

فارقتهم جميعاً، أفنتهم أيدي الزمان.

قلت: وكيف ذلك؟

قالت: إنَّ بعلي قام إلى شاةٍ لنا في البيت فذبحها، وكان لي ابنان صغيران جعلاً ينظران إلى ما فعل أبوهما، فلما خرج أبوهما قال أحدهما للآخر: هَلُمَّ يا أخي حتَّى أذبحك كما ذبح أبوك الشاة، فقال: نعم، قام إليه وأخذ السكين وذبحه، وأنا كنت مشغولةً ببعض الأمور، فلما أتيتُ إذا به يخور في دمه، ويتمرغ فيه، فصحت به ويلك ما صنعت بأخيك، ذبحته، أفٍ لك! فارتعد واضطرب، وخاف وهرب إلى الصحراء، فدخل أبوهما ووقف على الأمر ثمَّ خرج إلى الصحراء يطلب ابنه، وإذا هو بذئبٍ قد وثب على الغلام ومزقه، وتناول لحمه، وبقي بعض أعضائه، فحمله أبوه ليدفنه، فبينما هو يسير أصابه عطشٌ شديد، وقد اشتدَّ حُزنه على ولديه، فسقط ومات، فبينما أنا باكية حزينة على ولدي المذبوح، إذا أخبرتُ وأُنبتُ بموت زوجي وولدي الآخر، فخرجت لأستبين الخبر وإذا هو كما قالوا، ولما رجعت إلى الدار إذا بولدٍ آخر لي، وهو طفل صغير قد أقبل إلى القدر وهو على النار فوق في القدر ونضج ومات، وهذه قبورهم، وأنا أصبر على ذلك؛ لأنِّي أعلم أنَّ الصبر أحجى وأجمل.

ذكرني حال هذه المرأة الصالحة الصابرة حال أم البنين، كانت تأتي إلى البقيع، وتصنع أربعة قبور رمزية، وبين يديها يتيمان لقمر بني هاشم العباس بن علي عليه السلام، وهما عبد الله والفضل، وتندب بنهما أشجى ندبة وترثيهم^(١).

ولذا لما رجعت عائلة الحسين عليه السلام إلى المدينة قالت زينب عليها السلام: لا أريد أحداً يدخل عليَّ إلّا مَنْ فقدت لها عزيزاً في كربلاء. وجلست في منزلها، وجعلت جاريها على الباب، وإذا بالباب تُطرق، فقالت الجارية: مَنْ على الباب؟ فإنَّ سيدي زينب لا تُريد أحداً يدخل

(١) شجرة طوبى: ص ٤٠٦.

عليها إلاّ مَنْ فقدت لها عزيزاً في كربلاء.

فقالت لها: قولي لسيدتك: إنّي شريكُها في هذا العزاء، وأريد أن أدخل عليها وأساعدُها، فإنّي مثلها في المصاب، فلمّا أخبرت الجارية زينب. قالت: سليلها مَنْ هي حتى تكون مثلي في المصاب، ثُمَّ قالت: إن صدق ظنّي فإنّها أمّ البنين، فرجعت الجارية وقالت لها: سيدي تقول مَنْ أنت التي مثلها في المصاب؟

قالت: أنا الثاكلة!! قالت: أوضحي لي من تكونين؟ قالت: أو ما عرفتيني، أنا أمّ البنين، قالت الجارية: لقد صدقت سيدي في ظنّها، وإنّك والله كما تقولين أمّ المصيبة العظمى والفاجعة الكبرى:

صاحت صوت آيا فكد الأطياب والله إشموحشه يا دور الأحاب
إهناك اوسمعن الصرخة على الباب أنا أمّ عباس جيتج لا تفترين

ثمّ فتحت لها الباب، فلمّا دخلت استقبلتها زينب، واعتنقتها وقالت:
عظّم الله لك الأجر في أولادك الأربعة.

فأجابتها أمّ البنين: وأنتِ عظّم الله لك الأجر في الحسين (عليه السلام).

بجت زينب اونادات تلكنها بالله اوياي گومن ساعدنها
هاي أمّ البنين الراح منها صنايد أربعة او بالحرب نفلين
بجت زينب اوصاحت آيخزني اولفتها أمّ البنين ابضلع محني
تصيح ابصوت آيخسين يبني هاي امصيتك بجت الدارين
اشلون أمّ البنين اصياح صاحت اهنا يخسين يبني روي راحت
تلكنها الحرم عجت او ناحت زينب بالعزه كسرت الصوين

(١) مجمع مصائب أهل البيت (عليه السلام): ج ٢، ص ١٩٦. ص ١٩٧.

(أبودية)

على الأولاد زيدي النوح يمهم ابفرد ساعة الدهر بالطبغ يمهم
أحب أكصد وجاور كون يمهم أجاورهم لما اتجيني المنية

(تخميس)

يا ميثاً ترك الأبواب حائرة تناوشته سهام البغي رامية
وأعظم الخطب في الإسلام داهية عار تجول عليه الخيل عادية

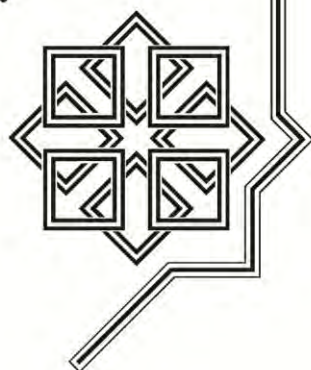
حاكت له الريح ظافي منزر وردا

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُنقلبٍ ينقلبون
والعاقبة للمتقين.

الحافظه الخمس عشره



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَعَقُّوْهُمَا



ماتَ التَّصَبُّرُ فِي انتِظَارِكَ أَيُّهَا الْمُحْيِي الشَّرِيعَةَ
 فَانْهَضْ فَمَا أَبْقَى التَّحَمُّلُ غَيْرَ أَحْشَاءٍ جَزْوَعَهُ
 كَمْ ذَا الْقَعُودُ وَدِينُكُمْ هُدِمَتْ قَوَاعِدُهُ الرِّفْعِيَّةُ
 تَنْعَى الْفُرُوعُ أَصُولَهُ وَأَصُولُهُ تَنْعَى فُرُوعَهُ
 مَاذَا يَهْجُوكَ إِنْ صَبَرْتَ لَوْعَةُ الطَّفِّ الْفُطَيْعَةِ
 أَتُرَى تَجِيءُ فَجِيعَةً بِأَمْضٍ مِنْ تِلْكَ الْفَجِيعَةِ
 حَيْثُ الْحُسَيْنُ عَلَى الثَّرَى خَيْلُ الْعِدَى طَحْنَتْ ضُلُوعَهُ
 قَتَلَتْهُ أَلْ أُمِّيَّةٌ ظَامٍ إِلَى جَنْبِ الشَّرِيعَةِ
 وَرَضِيعُهُ بِدَمِ الْوَرِيدِ مُحْضَبٌ فَاطْلَبُ رَضِيعِهِ
 مَا هَزَّ اضْلُعَكُمْ حِدَاءُ الْقَوْمِ بِالْعَيْسِ الظَّلِيلِ عَهْدُهُ^(١)

(نصاري)

مَشِينُهُ أَعْلَهُ الْهَزْلُ وَامْجْتَفِينُهُ
 أَوْ خَذُونَهُ إِيَّاهَا الْيَسْرُ - غَضَبًا عَلَيْهِ
 أَوْ يَأْكُمُ نَضْلَ لَوْ يَحْصِلُ بِدِينِهِ
 لِمَنْ يَحْسِنُ يَلْفِينُهُ الْمُحْتَمِ

(١) الأبيات من قصيدة رائعة للسيد حيدر الحلبي رحمته الله يرثي بها جده الإمام الحسين عليه السلام ويستنهض الحجة

المهدي المنتظر عليه السلام. أنظر: ديوانه: ج ١، ص ٣٧، وقد تقدّمت ترجمته في المحاضرة التاسعة.

مشت فوك الظعن والحرم تنحب
 او عليها أسياط شمر اوز جر تلعب
 حتّاه الظعن للكوفة تگرب
 لا بن زياد لمبشر تجدم

(فايزي)

من گال للكوفة العقيلة اميسرة اتروح
 فوك الجمال الظالعة أو بين العده اتروح
 اتعاین الروس إخوانها جدامها اتلوح
 فوك الرماح ابديرة الكوفة ادخلوها
 وكأني بزینب تخاطب حامل الرأس:

یشایل راس حامينه اوولينه ریض خلی اتودعه إسکینه
 لیش حسین ساچت عن ونینه گلي تعب یو جرحه تخدر

(أبوزية)

حرت ما بین هالنسوه والأیتام او بگینه أیسر- ما عدنه ولیتام
 لون عبّاس یبرالی والأیتام ما واحد کفو یجسر علیّ

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ١﴾.
 برُّ الوالدين هو الإحسان إليهما، وهو من أفضل القربات إلى الله عز وجل.
 وضده عقوق الوالدين، وهو الإساءة إليهما.

وكلا الأمرين يتحقق بالأعم من القول أو الفعل، بل أحياناً نجد أن الإيذاء باللسان أقوى تأثيراً من الإيذاء بالفعل الخارجي؛ فقد تكون كلمة تصدر من الإنسان أشد من جرح السيوف.

قال الشاعر واصفاً ذلك:

جراحاتُ السننِ لها التَّأْمُ ولا يلتأمُ ما جَرَحَ اللِّسَانُ^(١)

وهذا الموضوع - برُّ الوالدين وعقوقهما - من الموضوعات التي اهتم بها الباري عز وجل اهتماماً منقطع النظير، حتى أنه تبارك وتعالى قرن برَّ الوالدين والإحسان إليهما بالتوحيد، وكأنه عز وجل يريد أن يقول للمجتمع: إنَّ درجة برِّ الوالدين درجة بالغة الأهمية، تكاد تصل إلى درجة الإيمان بي.

ولذا، تجد أن أربع آيات في الكتاب العزيز قرنت برَّ الوالدين بالتوحيد.
 الآية الأولى: في سورة البقرة آية ٨٣، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾.

والآية الثانية: في سورة الأنعام آية ١٥١، حيث قال عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾.

والآية الثالثة: في سورة النساء حيث قال عز وجل من قائل في آية ٣٦ من السورة المذكورة:

(١) الإسراء: آية ٢٣.

(٢) فيض القدير: ج ٦، ص ١٧٩، ونسبه للسيد المرتضى رحمته الله.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا...﴾.

بالإضافة إلى الآية المذكورة في صدر المحاضرة والتي هي محل البحث.

فهذه الآيات قرنت بين الإيمان بالله تبارك وتعالى وبين برّ الوالدين.

وأما الآيات التي حثّت على برّ الوالدين بصورة عامّة من غير القرن بالتوحيد فهي كثيرة، منها في سورة لقمان آية ١٥، ومنها في سورة الأحقاف آية ١٥٠، وغيرها. وهذا كلّ ترغيب وحثّ مؤكّد من القرآن الكريم.

وأما ما ورد في الحثّ على برّ الوالدين والتجنّب عن عقوقها على لسان النبيّ الأعظم ﷺ، وأهل بيته ﷺ في أحاديثهم الشريفة فكثير، إذ ورد عنهم ﷺ: «إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة فوجد ریحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام إلا صنف واحد، قلت: من هم؟ قال العاق لوالديه»^(١).

ولهذا أكّد الحقّ سبحانه وتعالى على قضية الإحسان لهما، فتراها جلّت عظمتها تارةً يوصي، وتارةً ينذر، وأخرى ينهي حفظاً لعباده من العقوق وعاقبته السيئة، ألا ترى أنّه أمر بذلك بعد نهيّه عن عبادة سواه، وهذا نفسه دليل واضح على ما لهذا الأمر من قيمة راجحة عنده تعالى، هذا والمصلحة في كلا الأمرين ترجع للعبد لا إلى المعبود سبحانه وتعالى، وهكذا الإحسان للأبوين أو لغيرهم تعود الفائدة الكبرى منه للمحسن، وهذا القرآن وهذه حكمته ناطقة بذلك معبرة عمّا هنالك، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾^(٢).

فإحسان الولد لأبويه وبرّهما إنّما يرجع إليه سواء كان عاجلاً في دار الدنيا أم آجلاً في

(١) الكافي: ج ٢، ص ٣٤٨، ح ٣.

(٢) من دروس شيخنا الأستاذ محمد سعيد المنصوري رحمه الله، والآية ٧ من سورة الإسراء.

دار الآخرة التي هي الحياة الأبدية: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ﴾^(١).

لذا روي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابنٌ طفل وكان له عَجَلَةٌ، فأتى بها إلى غيضة (مزرعة) وقال: اللَّهُمَّ إِنِّي استودعك هذه العجلة لأبني حتى يكبر، ومات الرجل فشبت العجلة في الغيضة وصارت عواناً (متوسطة السن)، وكانت تهرب من كلِّ مَنْ رامها، فلما كبر الصبي كان باراً بوالدته، وكان يقسم الليلة ثلاث أثلاث، يصلي ثلثاً، وينام ثلثاً، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق واحتطب على ظهره، ويأتي السوق فيبيعه بما شاء، ثُمَّ يتصدَّق بثلثه، ويأكل ثلثه، ويعطي والدته ثلثاً.

فقالت له أمه يوماً: إِنَّ أَبَاكَ وَرَثَتُكَ عَجَلَةٌ وذهب بها إلى غيضة كذا واستودعها، فانطلق إليها وادعُ إليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردّها عليك، وإنَّ من علامتها أَنَّك إذا نظرت إليها يُحِيلُ إليك أَنَّ شعاع الشمس يخرج من جلدّها، وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها وصفاء لونها، فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فأقبلت تسعى حتّى قامت بين يديه، فقبض على عنقها وقادها، فتكلّمت البقرة بإذن الله تعالى، وقالت: أَيُّهَا الْفَتَى الْبَارُّ بوالدته اركبني فَإِنَّ ذلك أهون عليك، فقال الفتى: إِنَّ أُمِّي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها، قالت البقرة: بإله إسرائيل بنبيِّ إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر عليّ أبداً، فانطلق فَإِنَّك لو ركبتني أمرت الجبل أن يقتلع من أصله وينطلق معك لفعل؛ لبرك بوالدتك. فسار الفتى بها فاستقبله عدو الله إبليس في صورة راعٍ، فقال: أَيُّهَا الْفَتَى إِنِّي رجل من رعاة البقرة اشتقت إلى أهلي، فأخذت ثوراً من ثيراني فحملت عليه زادي ومتاعي حتّى إذا بلغت شطر الطريق ذهبت لأقضي حاجتي فقد أوسط الجبل وما قدرت عليه، وإني

(١) العنكبوت: آية ٦٤.

أخشى على نفسي الهلكة، فإن رأيت أن تحملني على بقرتك وتنجينني من الموت، وأعطيك أجرها بقرتين مثل بقرتك، فلم يفعل الفتى، وقال: اذهب فتوكل على الله، ولو علم منك اليقين لبغك بلا زاد ولا راحلة، فقال إبليس: إن شئت فبعنيها بحكمك وإن شئت فاحملني عليها وأعطيك عشرة مثلها، فقال الفتى: إن أمي لم تأمرني بذلك، فبينما الفتى كذلك إذا طائر طائر بين يدي البقرة فهربت البقرة في الفلاة وغاب الراعي، فدعا الفتى باسم إله إبراهيم فرجعت البقرة إليه، فقالت: أيها الفتى البارّ بوالدته لا تمرّ إلى الطائر الذي طار؛ فإنه إبليس عدو الله اختلسني، أما أنّه لو ركبني لما قدرت عليه أبداً، فلما دعوت إله إبراهيم جاء ملك فانتزعني من يد إبليس وردني إليك ببرك بأمك وطاعتك لها.

فجاء الفتى إلى أمّه، فقالت له: إنّك فقير لا مال لك، ويشقّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها، قال لأُمّه: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي، وكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثة دنانير، فانطلق الفتى إلى السوق، فعقبه الله سبحانه ملكاً ليرى خلقه وقدرته؛ ليخبر الفتى كيف برّه بوالدته وكان الله به خبيراً، فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير واشترط عليك رضاء أمي فقال له الملك: ستة دنانير ولا تستأمر أمك. فقال له الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضاء أمي. فردّها إلى أمّه وأخبرها بالثمن، فقالت: ارجع فبعها بستة دنانير على رضائتي فانطلق بالبقرة إلى السوق، فأتى الملك، فقال: أستأمرت والدتك؟ فقال الفتى: نعم، إنّها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها، قال له الملك: تأتي أعطيك اثني عشر على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمّه وأخبرها بذلك، فقالت: إن ذلك الرجل الذي يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك في صورة آدمي؛ ليجرّبك، فإذا أتك فقل له: أأمر أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل ذلك، فقال الملك: اذهب إلى أمك وقل لها: امسكي هذه البقرة، فإن موسى يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل فلا تبيعوها إلا بملء جلدّها دنانير، فأمسكوا تلك البقرة، وقد أراد الله تعالى من بني

إسرائيل ذبح البقرة بعينها، مكافأة على برّه بوالدته فضلاً منه ورحمة، فطلبوها فوجدوها عند الفتى، فاشتروها بماء مسكها - جلدتها - ذهباً^(١).

هذا نموذج بسيط زائل في الحياة الدنيا لمن برّ بوالدته، وأمّا ما أعدّ الله له في الآخرة فلا يعلمه إلا هو عزّ وجلّ.

والآية التي افتتحنا بها المحاضرة جامعة مانعة، قالت: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أول ما حكمت به وألزمت وفصلت ووضعت الحدّ والنهية في أن لا تعبدوا إلا الله تبارك وتعالى، أمر منه عزّ وجلّ بأن لا نعبد إلا إياه جلّ جلاله، ونخلص العبادة له عزّ وجلّ؛ لأنّها أوجب الواجبات، كما أنّ معصيته وهو الشرك بالله سبحانه أكبر الكبائر الموبقة، وإلى الشرك تعود جميع المعاصي بحسب التحليل، ولعظم هذا الأمر قدّمه الباري عزّ وجلّ على جميع الأحكام الخطيرة شأنًا، كعقوق الوالدين ومنع حقوقهما، والتبذير، وقتل الأولاد، والزنا، وقتل النفس المحترمة، إلى غير ذلك. ثمّ انتقلت الآية - بعد الأمر بالتوحيد - إلى حكم آخر يأتي بالمرتبة الثانية من الأهمية بعد التوحيد لله تبارك وتعالى، وهو ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، بمعنى وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وقضى ربك بأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، والإحسان يقابل الإساءة كما هو معلوم، وهذا بعد التوحيد لله الذي هو من أوجب الواجبات، كما أنّ عقوقهما من أكبر الكبائر، كما وردت الإشارة إلى ذلك في عدة مواضع من كلامه تبارك وتعالى.

ثمّ انتقلت الآية إلى أمر آخر، وحقيقة أخرى، حيث قالت: ﴿إِذَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (بلوغ الكبر) يعني بلوغ كبر السن، و(أفّ) كلمة تفيد الضجر والإنزجار^(٢) وقد ورد عن

(١) بحار الأنوار: ج ١٣، ص ٢٧٥. قصص الأنبياء، الجزائري: ص ٣٢٦.

(٢) تفسير الميزان: ج ١٣، ص ٧٩ - ص ٨٠.

الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عن جدّه أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لو علم الله كلمة أوجز في ترك عقوق الوالدين من (أف) لأتّى بها» وفي رواية أخرى، قال: «أدنى العقوق (أف) ولو علّم الله شيئاً أيسر وأهون منه لنهى عنه»^(١).

وتخصيص حالة الكبر بالذكر؛ لكونها أشقّ الحالات التي تمرّ على الوالدين فيحسّان فيها بالحاجة إلى إعانة الأولاد لهما، وقيامهم بواجبات حياتها التي يعجزان عن القيام بها، وذلك من آمال الوالدين التي يأملانها من الأولاد حين يقومان بحضانتهم وتربيتهم في حال الصغر، وفي وقت لا قدرة لهم على شيء من لوازم الحياة وواجباتها. فالآية تدلّ على وجوب إكramهما ورعاية الأدب التام في معاشرتهم ومحاورتهما في جميع الأوقات، وخاصّة في وقت تشتدّ حاجتهما إلى ذلك، وهو وقت بلوغ الكبر من أحدهما أو كليهما^(٢).
هذا كلّ في برّ الوالدين في حياتهما.

وأما بعد وفاتهما وانتقالهما إلى الدار الآخرة فهناك عدّة طرق لبرّهما، منها: أن يصلي صلاة برّ الوالدين، وهي ركعتان يقرأ في الركعة الأولى - بعد سورة الحمد - عشر مرات «رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»، وفي الركعة الثانية - بعد الحمد أيضاً - عشر مرات: «رب اغفر لي ولوالدي ولّمؤمنين والمؤمنات»، ويقول بعد التسليم والانتهاء من صلاته عشر مرات: «رب ارحمهما كما ربياني صغيراً»^(٣)، وأن يتصدّق عنهما وأن يقضي ما فاتهما من صلاة وصيام، وما عليهما من ديون، ويحجّ عنهما ويزور المراقد الشريفة، ويدعو لهما في صلاة الليل وصلاة الفريضة، فإن فعل ذلك فقد فتح لنفسه أبواب الرحمة والسعادة في النشأتين وتمت أعماله

(١) تفسير البرهان: ج ٢، ص ٥١٨، ح ١٢ و ١٣.

(٢) أنظر: تفسير الميزان: ج ١٣، ص ٨٠.

(٣) أنظر: مكارم الأخلاق: ص ٣٣٤. بحار الأنوار: ج ٨٨، ص ٢٢٠. ص ٢٢١.

بحسن العاقبة وذلك منتهى الغاية، ويتعهد بزيارة قبورهم، يدعو لهم، يرضيهم بأية حال من الأحوال، وإلا إذا انتقل الإنسان من هذه الدنيا إلى الحياة الآخوية، الله يعلم ماذا سيجري عليه هناك؛ ولذا يروى: أنه كان رسول الله ﷺ جالساً في أحد الأيام في المسجد، وفجأةً هبط عليه جبرئيل الأمين وقال له: السلام عليك يا رسول الله، انقل أقدامك الشريفة إلى المقبرة، لكي تتبرك القبور بتراب أقدامك، ولكي يشم حيسو هذه القبور الضيقة المظلمة نسيم رحمتك الذي سيهب عليهم بقدمك عليهم، فقام رسول الله ﷺ مع طائفة من أصحابه، ويمّموا وجوههم نحو المقبرة، وكان أصحابه يحيطون به عن يمينه وعن شماله، وفي الأثناء وصل أمير المؤمنين عليه السلام إلى هناك وسأل الرسول ﷺ عن نيتهم في هذا المسير، فقال له: نريد أن نذهب إلى مقبرة البقيع، وعندما وصلوا إلى هناك تداعى إلى أسماع الرسول ﷺ صوت شخص يستغيث ويقول: الأمان يا رسول الله، فانتبه سيد الرسل إلى هذا الصوت وقال: يا صاحب القبر، أخبرني عن سبب عذابك؟

فأجابه: يا شفيع المذنبين وقدوة المؤمنين، إنّ سخط والدتي عليّ سبّب لي هذا العذاب؛ لأنني أذيتها في حياتي، الأمان الأمان يا رسول الله، فأمر الرسول ﷺ بلالاً أن ينادي في المدينة على الناس بأن يجتمعوا فنأدى بلال بصوت جهوري: يا أيها الناس، اجتمعوا على قبور الآباء والأمّهات والأقرباء بأمر من رسول الله ﷺ، وعندما سمعوا نداء بلال هبوا مسرعين إلى المقبرة، فغصّت المقبرة بالناس، ومن بين الحضور كانت عجوزٌ محدودبة الظهر تتوكأ على عصاها، جاءت ووقفت بالقرب من رسول الله ﷺ فسلمت عليه وقبّلت التراب بين يديه وقالت: يا رسول الله ما الخبر؟

فقال: أيتها العجوز هذا ولدك؟

فأجابت: نعم يا رسول الله.

فقال لها ﷺ: إنّ ولدك الآن في محنة وعذاب، اغفري له وارضي عنه. فقالت العجوز:

يا رسول الله، لا أغفر له ولا أرضى عنه أبداً!!

فقال لها: لماذا؟

قالت: لقد غذيته من لبني، وعاش في كنفني، وتحملتُ من أجله الصعاب، فلمّا كبر واشتد عوده فبدلاً من أن يحسن لي أخذ يتلذذ بأذيتي وعذابي.

فقال لها رسول الله ﷺ اعطفي عليه وارحميه لينجو من عذابه، ورفع رسول الله ﷺ يديه بالدعاء وقال: إلهي بحق الخمسة من آل الكساء أسمع هذه الأمّ صوت استغاثة ولدها؛ كي يرقّ قلبها عليه وتعطف عليه وتغفر له، عندها أمر العجوز بأن تضع أذنّها على قبر ولدها وتسمع صوت ولدها يئنّ بألم وحسرة، فلم تتمالك عن البكاء وقالت: يا سيد المرسلين وشفيع المذنبين، إنّه يستغيث، ويقول: فوقني نار وتحتي نار وعن يميني نار وعن شمالي نار وبين يديّ نار، الأمان الأمان الأمان!!!

عندها رقّ قلبُ العجوز بسبب سماعها استغاثة ولدها وقالت: إلهي لقد عفوت عن تقصير ولدي، فألبسه الله سبحانه وتعالى لباس رحمته وعفا عنه فوراً، فنادى الولد: أيتها الوالدة عفا الله عنك كما عفوت عني^(١).

هكذا كان أثر دعاء الوالدة لولدها، ولذا ترى أنّ الإمام الحسين عليه السلام يوصي أمّ علي الأكبر بقوله: ليلي ادعي لولدك، إنّي سمعت جدّي رسول الله ﷺ يقول: «دعاء الأمّ مستجاب بحق ولدها»، وبالفعل دخلت ليلي إلى الفسطاط، نشرت شعرها، رفعت يديها إلى السماء قائلة: إلهي بغربة أبي عبد الله، إلهي بعطش أبي عبد الله، يا رادّ يوسف إلى يعقوب، أردد إليّ ولدي علي. ما هي إلاّ لحظات وإذا بعليّ الأكبر يرجع سالماً، واستجاب الله دعاء ليلي بحق ولدها، ولكنّ المصيبة الكبرى عندما وقع القضاء، وشاء الله أن تراه على رمضاء كربلاء مقطّع إرباً إرباً^(٢).

(١) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ١٢٣ - ص ١٢٤.

(٢) أنظر: مجمع مصائب أهل البيت عليه السلام: ج ١، ص ٣٩٣ - ص ٣٩٤.

وكأنّي بأُمّه ليليّ تخاطبه:

ردتك ذخريّام شيبني يوسفه إنكطع منك نصيبني

(مجاريد)

فجيدة يا عليّ ييني فجيدة بعيدة شوفتك صارت بعيدة
المدايده عليك انشلت ايده اوشرابه لا هنه ولا طاب له الزاد

يا عليّ ييني النوب ذليت والموت ياخذني تمنيت
عمود الوسط يا شاييل البيت ييني بعد عندي اشخلّيت

(أبوزية)

ردتك ما ردت دنيه ولا مال تحضرني لو وگع حملي ولا مال
ياكبر خابت إظنوني والأمال عند الضيغ ييني إكطعت بي

رجوتك يا عليّ تعيش بعدي وتوسد جثتي رمس اللحود

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم،

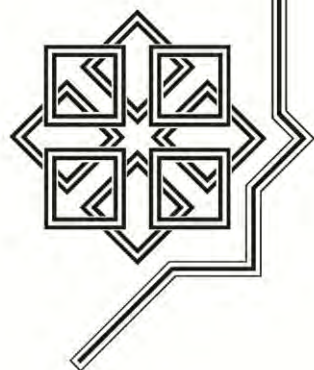
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُنقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتقين.

الحافظة السادسة عشر



صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ



البدارَ البدارَ آلَ نزار	قد فُنيتم ما بينَ بيضِ الشِّفارِ
سوموا الخيلَ واطلقوها عراباً	واتركوها تشق بيد القفارِ
وابعثوها ضوايحاً فأُمِّي	وسمت أنفَ مجدكم بالصغارِ
لا تلدها شميةً علويّاً	إن تركتم أميةً بقرارِ
أنزارُ نضوا برود التهاني	فحسينٌ على البسيطة عاري
لا تمدوا لكم عن الشمس ظلاً	إن في الشمس مهجة المختارِ
لا تذوقوا المعينَ واقضوا ظمأيا	بعد ظامٍ قضى بحد الغرارِ
حق أن لا تكفّنوا هاشمياً	بعدا كفّن الحسينَ الذاري
لا تشقّوا لآلٍ فهو قبراً	فابنُ طه مُلقى بلا إقرارِ
طأطؤوا الرؤوسَ إنَّ رأسَ حسينٍ	رفعوه فوق القنا الخطارِ ^(١)

فعندما رأت العقيلة زينب عليها السلام رؤوسَ إختوتها وأولادها وأولادِ عموميتها على القنا، تذكّرت عزّها وتوجّهت نحو كافلها أبي الفضل العباس.

(بحراني)

صاحت دخيلك يالمقطع بالشرية

جاها النده ردي ترى اچفوفي گطيعه

للخيم ردي لليتامي يالوديعة

تدرين بيه امگطعه ايمني واليسار

(١) القصيدة للشيخ عبد الحسين شكر رحمته الله، وقد تقدّمت ترجمته في المحاضرة الثانية.

امطبر ومن جوفي انزفت كل هاي الدموم
 روعي العلي الأكبر يزنب بلجن يگوم
 أيسست منه اوباليتامي ردت تحوم
 اتنخي او من كثر النواخي كلبها طار

صاحت صوت يا عباس وينك گوم او جرّد الماضي بيمينك
 وخلها تصد واتشوف عينك آيا حانا الفاگدينك

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).

لقد دعا الإسلام إلى الألفة والمحبة بين جميع الناس، وأوصاهم أن يتعارفوا ويتألفوا، وأكد على ذلك، وشدد عليه في حق القرابة المعبر عنها بالرحم، التي أوصى الله بصلتها، ونهى عن قطيعتها، وحذر الأرحام من التدابر والتقاطع.

وليس معنى ذلك أن تصبح القرابة صنماً يتحكم بعواطف الناس وعقائدها، وتتحول الأرحام إلى آلهة تجرف في طريقها كل عدلٍ وحقٍّ، ويتحول على أساسها الباطل إلى حقٍّ والحق إلى باطل... بل معناها أن يكون بين الأرحام تواصلٌ وتعاطف وتوادٍ في الله ومن أجل الله، فتتحول هذه الصلة إلى طهر ونزاهة، يجتمع فيها الأرحام على طاعة الله وتقواه، ولا يفصمها ولا يزلزلها حادث عابر، أو قضية تافهة، ومن هنا كان للأرحام حقوق أشد وأقوى من حقوق سائر المسلمين، يحسن بنا أن نمر عليها ونتدبرها^(٢).

(١) النساء: آية ١.

(٢) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ٨٤٧.

فقد ابتدأت الآية المباركة بالأمر بالتقوى، قائلة: (واتقوا الله)، وذلك لأهمية التقوى ودورها في بناء قاعدة المجتمع الصالح، الأمر الذي اقتضى أن تذكر مجدداً في نهاية الآية محل البحث، وأن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غاية الأمر أنه تعالى أضاف إليها جملة أخرى؛ إذ قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾.

بمعنى: اتقوا الله العظيم، الذي تذكرون اسمه عندما تطلبون حقوقكم وحوائجكم فيما بينكم.

إن ذكر هذا الموضوع هنا يدلّ أولاً على الأهمية الفائقة التي يُعطيها القرآن الكريم لمسألة الرحم وشيعة القربى إلى درجة أنه يذكر اسم الأرحام بعد ذكر اسم الله سبحانه، وفيه إشارة - ثانياً - إلى الأمر الذي ذكر في مطلع الآية، وهو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، وهو أنكم جميعاً من أب واحد وأم واحدة، وهذا يعني: أن جميع أبناء آدم أقرباء وأرحام، وهذا الارتباط والترابط يستوجب أن يتحاب الجميع، ويتوادوا دون تفريق أو تمييز بين فرد وآخر، وقبيلة وأخرى، تماماً كما يتحاب أفراد القبيلة الواحدة^(١).

مَنْ هُم الْأَرْحَامُ؟

الأرحام مفهومٌ يُعَيِّنُهُ العرف^(٢)، والقدر المتيقن منه الآباء والأبناء والإخوة والأعمام والأخوال وأولادهم المباشرون، وهؤلاء أمرنا الله بصلتهم وفرض علينا التعاون معهم

(١) أنظر: تفسير الأمل: ج ٣، ص ٨١ - ص ٨٢.

(٢) قال الشهيد الثاني رحمته الله في مسالك الإفهام (ج ٦، ص ٢٣٢): «لا إشكال في صحة الوصية للقربة؛ لما فيه من الجمع بين الصدقة وصلة الرحم، ولكن اختلف الأصحاب في أن القربة مَنْ هُمْ؟ لعدم النصّ الوارد في تحقيقه. والأكثر على ما اختاره المصنّف من رده إلى العرف؛ لأنّه المحكم في مثل ذلك حيث لا معين له من الشارع، وهو دال على أنّ المراد به المعروفون بنسبه عادة، سواء في ذلك الوارث وغيره».

ونحفظهم ونرعاهم.

رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «أول ناطقٍ من الجوارح يوم القيامة الرحم، تقول: يا ربّ مَنْ وصلني في الدنيا فصل اليوم ما بينك وبينه ومَنْ قطعني في الدنيا فأقطع اليوم ما بينك وبينه»^(١).

آثار قطيعة الرحم:

وإنّ من الذنوب الكبيرة والجرائم العظيمة أن يقطع الإنسان رحمه وينصب له العدا، ويقف في وجهه شاهراً لسانه مُعلنًا غضبه، إنّ قطيعة الرحم من الكبائر، وهي لا تجوز بأي شكل من الأشكال في قاموس المسلمين.

وقد يترتب على قطع الرحم آثار سيئة وعقوبات جسيمة، وعذاب من الله شديد، وإليك بعض آثار قطيعة الرحم:

١- إنّها تدخل النار، وتغضب العزيز الجبار؛ فإنّ الله توعّد عليها بعذاب أليم لمن قطع رحمه.

فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أخبرني جبرائيل أنّ ریح الجنة توجد من مسيرة ألف عام ما يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان»^(٢).

٢- من أثارها أن تتحوّل الأموال إلى أيدي الأشرار.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «إذا قُطعت الأرحام جُعِلت الأموال في أيدي الأشرار»^(٣).

٣- قطيعة الرحم من الذنوب التي تُعجلُ الفناء، ففي خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام يقول:

«أعوذ بالله من الذنوب التي تُعجلُ الفناء... فقام إليه عبد الله بن الكواء الشكري، فقال:

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٥١، ح ٨.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٢٤٩، ح ٦.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٢٤٨، ح ٦.

يا أمير المؤمنين، أو يكون ذنوب تُعَجَّلُ الفناء؟ فقال: نعم - ويلك - قطيعة الرحم»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «الذنوب التي تُعَجَّلُ الفناء قطيعة الرحم»^(٢).

٤ - قطيعة الرحم سببٌ لحلول النقم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «حلول النقم في

قطيعة الرحم»^(٣).

٥ - قاطع الرحم لا تنزل عليه الرحمة ولا على الذين معه، كما ورد مروياً عن النبي

الأكرم ﷺ أنه قال: «إِنَّ الرحمة لا تنزل على قومٍ فيهم قاطع رحم»^(٤).

٦ - قاطع الرحم لا تنزل عليه الملائكة ولا على القوم الذي هو فيهم، كما ورد بنفس

المضمون المتقدم: «إِنَّ الملائكة لا تنزل على قومٍ فيهم قاطع رحم»^(٥).

٧ - تعجيل العقوبة الدنيوية، فعن الرسول ﷺ أنه قال: «ما من ذنبٍ أجدر من أن

يعجّل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من قطيعة الرحم

والخيانة والكذب»^(٦).

هذا كله في آثار قطيعة الرحم، وفي المقابل هناك آثار إيجابية كثيرة وعظيمة لصلة

الرحم، جدير بكلّ إنسانٍ عاقل أن يتدبّرّها، ويكتبها ويبحث عنها، ويوفّرّها لنفسه،

خصوصاً وأنّها في متناول يده، وتحت سُلطانته، ممّا يجعل حججه ومعاذيره غير مقبولةٍ

على الإطلاق.

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٢٤٧ - ص ٢٤٨، ح ٧.

(٢) علل الشرائع: ج ٢، ص ٥٨٤، ح ٢٧.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ص ٢٢٤.

(٤) مستدرک الوسائل: ج ٩، ص ١٠٧، ح ٢.

(٥) مجمع الزوائد: ج ٨، ص ١٥١.

(٦) المصدر نفسه: ج ٨، ص ١٥١ - ص ١٥٢.

آثار صلة الرحم

من أبرز هذه الآثار:

١- طاعة الله عز وجل امتثالاً لأمره، وهذا المعنى هو غاية مطمح أنظار المؤمنين؛ فإنهم يبحثون عن رضاه باستمرار، ويعتبر ذلك من أهم عوامل إدخال السرور عليهم، والراحة لنفوسهم.

٢- صلة الرحم تزيد في العمر، فعن أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً أحد أصحابه واسمه نوف: «يا نوف، صل رحمك يزيد الله عمرك»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الرجل ليصل رحمه، وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله عز وجل ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين. ثم تلا: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»^(٢).

٣- صلة الرحم تهون سكرات الموت، وكذا شدائده، وتقي من ميتة السوء؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُخَفَّفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، فَلْيَكُنْ لِقَرَابَتِهِ وَصُولاً، وَبِوَالِدَيْهِ بَارّاً، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَلَمْ يُصِبْ فِي حَيَاتِهِ فَقْرٌ أَبَداً»^(٣).

وعن إمامنا الهادي عليه السلام: «فيما كلم الله تعالى به موسى عليه السلام: قال موسى: فما جزاء مَنْ وصل رحمه؟ قال: يا موسى، أنسيء له أجله، وأهون عليه سكرات الموت»^(٤).

وعن النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله: «صلة الرحم تهون الحساب، وتقي ميتة السوء»^(٥).

(١) أمالي الصدوق: ص ٢٧٨، ح ٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤، ص ١٦٣، ح ١. والآية ٣٩ من سورة الرعد.

(٣) أمالي الصدوق: ص ٤٣٢، ح ٢٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٧٦، ح ١.

(٥) أمالي الطوسي: ص ٤٨١، ح ١٨.

٤ - صلة الرحم تنفي الفقر، وتجلب الخير، كما روي عن النبي الأكرم ﷺ: «صلة الرحم تزيد في العمر وتنفي الفقر»^(١).

٥ - صلة الرحم تزيد في الرزق، فعن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَسْطُرَ اللَّهُ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٢).
وغيرها من الآثار المخفية على الكثير من الناس.

أقل ما يتحقق به صلة الرحم

لو أعوز الإنسان المال، ولم يسعفه ذات يده أن ييسطها إلى أرحامه، ويمددهم بما أعطاه الله من فضله، فلا ييخل عليهم بما تقدر عليه من زيارة لهم، أو التردد عليهم، ولا أقل من السلام عليهم؛ فإنَّ صلتهم بهذا المقدار القليل يُطَيِّبُ قلوبهم، ويرقُّ مشاعرهم، ويزرع الحبَّ والثقة في نفوسهم، وهذا المقدار ينمو ويربو ويُعطي أفضل الثمار.

فعن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِسَلَامٍ»^(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالتَّسْلِيمِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾»^(٤).

أفضل صور صلة الرحم

وأفضل صلة الرحم وأعظمها فيما لو كان أحد الأرحام قاطعاً لها؛ فإنَّ صلتها لوجه الله حينئذٍ ستكون خالصة لوجه الله، صافية من جميع شوائب الرياء والتعصب.
فإنَّ في حالة الرضا والوفاق تتدخل المصالح والمنافع والقراة، ولكن إذا كان رحمك

(١) قرب الإسناد: ص ٧٦، ح ٢٤٤.

(٢) الخصال: ص ٣٢، ح ١١٢.

(٣) تحف العقول: ص ٥٧.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ١٥٥، ح ٢٢.

قاطعاً لك تستطيع أن تصله، وبعملك هذا تخرجه عن عداته؛ لتضمه إلى جانبك في حُبٍّ ورضى... بل الإسلام يفرض عليك عدم مقاطعة أرحامك، وإن كادوك ونصبوا لك العداوة، وحاولوا الإضرار بك.

فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي أَبَوَا إِلَّا تَوَثُّبًا عَلَيَّ وَقُطِيعَةً لِي، فَأَرْفُضُهُمْ؟
فَقَالَ: إِذَا يَرْفُضُكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا.
قَالَ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟

قَالَ: تَصِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كَانَ لَكَ مِنَ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ ظَهِيرٌ»^(١).

ومن هنا كان الرحم الكاشح وهو المعادي، هو المصداق الأفضل للصدقة وللوصل؛ لعله يرق قلبه؛ ولذا ترى سيد الشهداء عليه السلام يأمر أخاه أبا الفضل العباس عليه السلام أن يجيب الشمر وهو عدو الله، قال له: أخي يا أبا الفضل، أجبه وإن كان فاسقاً. ولكن الشمر صاح بأعلى صوته - بعد ما وعظهم أبو الفضل العباس عليه السلام - يا بن أبي تراب لو كان وجه الأرض كله ماءً، وهو تحت أيدينا لما أسقيناكم منه قطرة! فرجع العباس إلى أخيه يخبره بجواب القوم، فسمع الأطفال يتصارخون وينادون: العطش العطش.

أَوْ تَشْتَكِي الْعَطَشَ الْفَوَاطِمَ عِنْدَهُ وَبَصْدَرَ صَعْدَتِهِ الْفُرَاتُ الْمُنْعَمُ
فَرَكِبَ جَوَادَهُ وَمَعَهُ اللَّوَاءُ، وَأَخَذَ الْقَرْبَةَ، وَقَصَدَ الْفُرَاتَ، فَأَحَاطَ بِهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ،
مَنْ كَانُوا مَوَكَّلِينَ بِالْفُرَاتِ، وَرَمَوْهُ بِالْنبَالِ، فَكَشَفَهُمْ وَقَتْلَ مِنْهُمْ جَمَاعَةً.

وثنى أبو الفضل الفوارس نكصاً فرأوا أشدَّ ثباتهم أن يهزموا
ما كرّذو بأسٍ له متقدماً إلّا وفرَّ ورأسه المتقدّم

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٥٠، ح ٢٠.

حتَّى وصل إلى المشرعة، ركز لواءه ونزل إلى الماء، فلمَّا أحسَّ ببرد الماء وقد كظَّه العطش، اغترف غُرْفَةً ليشرب، لكنه تذكَّر عطش الحسين (عليه السلام)، فرمى الماء من يده، وقال: لا والله، لا أشربُ وأخي الحسين عطشان، ثُمَّ جعل يقول:

يا نفسُ من بعدِ الحسينِ هوني وبَعْدَه لا كنتِ أن تكوني
هذا حسينٌ وارِدُ المنونِ وتشربين بارِدَ المعينِ

غرف غرفه إييمينه اوراد يشرب وگلبه إمن العطش نيران يلهب
ذكر چبده عضيده والدمع صب ذبه أوعليّ گال الماي يحرم
اشلون أشرب وَرَد رِيَّان عنك وخوي احسين ورده إنمنع منك
ينهر العلگمي عگبه عَسَنك وردك لاهنه ويصير علگم
اشلون أشرب وخوي احسين عطشان وسكنه والحرم وأطفال رضعان
وظن گلب العليل التهب نيران يريت الماي بعده لا حله اوامر

فهذا موقف أبي الفضل العباس (عليه السلام) لأخيه أبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، وأمّا موقف أبي عبد الله عندما رآه على نهر العلقمي نادى: «الآن إنكسر ظهري».

(فايزي)

ظهري انكسر يا خويه وانته اللي كسرتة

ماني أخوك اشلون أخوك اليوم عفته

انتته التجيب الماي وانتته الكافل انتته

اتخلي العقيلة بلا ولي بين آل أمية

اشلون أردن للخيم والخيم

عباس خويه نومتك علكاع هظمه

مابين طفل اليرتجيك وبين

كلسا تگول اسا يجيب الماي ليّه^(١)

عباس تسمع زينبا تدعوك من لي ياحماي إذا العدى نهروني

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ منقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتقين.

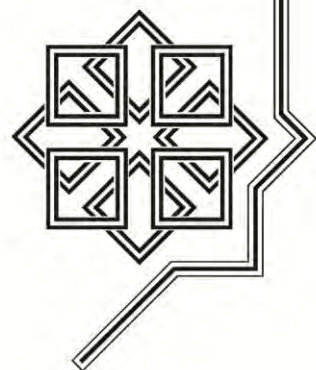
(١) مجمع مصائب أهل البيت عليه السلام: ج ١، ص ١٣٧. ص ١٤٢.

الحاضرة السابعة عشرة



وَجَوَابُ

تَضَيُّبِ الْأُمَامِ



عَشْ في زمانِكَ ما استطعتَ نَبِيلاً
ولعزَّكَ استرخَصَ حياتَكَ إِنَّه
تعطي الحياةَ قيادَهالكَ كلِّها
العزُّ مقياسُ الحياةِ وضلَّ مَنْ
قل كيف عاش ولا تقل كم عاش مَنْ
لاغرو إن طوتِ المنيَّةُ ماجداً
ما كان للأحرارِ إلا قدوةً
بعثه أسفارُ الحقائق آيةً
يدوي صداها في المسامع زاجراً
لا زال يقرؤها الزمانُ مُعْظِماً
واتركُ حديثكَ للرواةِ جَمِيلاً
أغلى وإلا غادرْتُكَ ذليلاً
صيرتها للمكرِّماتِ ذلولا
قد عدَّ مقياسَ الحياةِ الطولا
جَعَلَ الحياةَ إلى عُلاه سبيلاً
كثُرَتْ محاسنه وعاش قليلاً
بطلٌ توسَّد في الطفوف قتيلاً
لا تقبلُ التفسيرَ والتأويلاً
مَنْ علَّ ضيماً واستكان حُمولاً
في شأنها ويزيدها ترتيلاً^(١)

(١) القصيدة للشاعر الحاج عبد الحسين الأزري رحمته الله، قال عنه السيد جواد شبر رحمته الله في كتابه القيم أدب الطِّف (ج ١٠، ص ٧٩): « الحاج عبد الحسين الأزري من شعراء العراق اللامعين، حرَّ التفكير والعقيدة ومن أوائل دعاة التحرير، وقد أصدر في العهد العثماني جريدة ببغداد، كانت من أوائل الجرائد إن لم تكن أول جريدة طالبت بحقوق العرب وحريتهم، وقد نفاه الأتراك وحبس في الأنضول... ولد الحاج عبد الحسين في بغداد سنة ١٢٩٨ هـ، وترعرع في زمن كثرت فيه الانتفاضات على النظم السياسية وعلى العادات والتقاليد البالية، من أجل ذلك نشأ وهو ثورة أدبية اجتماعية... وكان الشاعر يتقن الإفرنسية، فكان محلّلاً في خياله ومبدعاً في أسلوبه القصصي. من آثاره: (بطل الحلة) رواية عصرية، (البوران) رواية عصرية، (قصر التاج)، (ديوان شعر). توفي رحمه الله في بغداد يوم الأحد ٢١ ربيع الثاني ١٣٧٤ هـ، ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف بتشيع مهيب، فدفن في وادي السلام، ونعته الصحف العراقية والعربية، ورثاه عارفوه وأبتؤوه».

سيدي:

فليت أكفأ حاربك تقطعت وأرجل بغى جاوبتك جذام
 إنَّها الأكفُ الأثيمة، والأرجل التي سعت إلى أعظم جريمة، أبكت عين رسول
 الله وأمير المؤمنين عليه السلام، وتركت أمك الزهراء عليها السلام تقيم مأتمها إلى جنب جسدك الطاهر
 ليلة الحادي عشر، وهي تلثم نحرک وتطالبك بحقوق الأمومة.

تغلك يا عزيز الروح يا سبّاح غلي وياظيا بالعين أمك لاح
 ييني ما تغلي وين راسك راح آحسين يومك بيش أوصفنه

مازي أمك وجيت أطلب إبحگ إرباي يماي العين يلي ما شربت الماي
 أنه الكسروا ضلعها گوم واحچي اوياي ولهانه إعلى صوتك وارد أسمعنه
 إشکثر ييني اتعبت برباك أنه اولوليت ياشمعة إعيوني اوياعمود البيت
 ييني امن المدينة الكربله اتعنيت دسولفلي عليك إشصار يمچنه
 اگعد شوف جدك گاعد اگبالك ينادي احسين ييني اشصاير ابحالک
 ييني من گطع يمناك وشمالک اوصدرک ليش ييني الخيل رضنه
 يُمه إيباذنب چتلتک هالعدوان ييني اوليش جسمک عالترب عريان
 يم شاطي الفرات اوتنذب عطشان أريد أعرف اعليمن تنحرم منه
 ييني وهاي جيتي انشوفک إيباحال اوياهو اللي يباري البگه امن الأطفال
 اوحمل زينب دگلي اعلی الجمل لومال ياهو اللي يعدله اوليه يتدنه

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اللَّهُمَّ بلى، لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحُجَّةٍ، إمَّا ظاهراً مشهوراً وإمَّا خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حججُ الله وبيئاته»^(١).

هذا المقطع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام سيد البلغاء والمتكلمين الذي كلامه أمير الكلام؛ بل كل شيء فيه أميرٌ، وهو الذي فقاً عيون البلاغة، وأيتم جواهر الحكمة، كما عبّر الشعبي، حيث قال: «تكلم أمير المؤمنين عليه السلام بتسع كلمات أرتجلهن ارتجالاً، فقأن عيون البلاغة، وأيتمن جواهر الحكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدة منهن، ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب، فأما اللاتي في المناجاة فقال: إلهي كفى لي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب. وأما اللاتي في الحكمة فقال: قيمة كل امرئ ما يحسنه، وما هلك امرء عرف قدره، والمرء مخبوء تحت لسانه. وأما اللاتي في الأدب فقال: أومن على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عن من شئت تكن نظيره»^(٢).

وهذا المقطع من كلامه الشريف كان من ضمن الحكم التي وجهها لكميل بن زياد النخعي، وهي من الحكم الجامعة لمحاسن الكلام، وقد خرج بكميل نحو الجبانة، أي: المقبرة، ثم أصحبه، أي: أخذه نحو الصحراء، فلما وصلا تنفس الصعداء، ثم قال: «يا كميل، إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك».

وبدأ يتدرج معه في الحديث، إلى أن وصل به المقام إلى بيان ضرورة وجود الإمام، في قوله: «اللَّهُمَّ بلى، لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحُجَّةٍ، إمَّا ظاهراً مشهوراً وإمَّا خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حججُ الله وبيئاته».

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: «كيلا يخلو الزمان ممن هو مهيمن الله تعالى

(١) نهج البلاغة: قسم الحكم، الرقم: ١٤٧

(٢) الخصال: ص ٤٢٠، ح ١٤، عنه بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٤٠٠، ح ٢٣.

ومسيطر عليهم؛ وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإمامية، إلا أنّ أصحابنا يحملونه على أنّ المراد به الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عنهم؛ أنّهم في الأرض سائحون^(١)، وهذا صرف لكلام أمير المؤمنين عليه السلام عن ظاهره بلا قرينة حالية، أو مقالية، فلا يُعتنى به، ولا يُلتفت إليه.

فكلّ إنسان عاقل يفهم من كلام الأمير عليه السلام حاجة الأمة إلى الإمام؛ إذ التعليل الذي ذكره الإمام عليه السلام لا يناسب إلا ذلك.

وذلك عند قوله «لئلا تبطل حجج الله وبيناته»، فهو يناسب أن يكون هناك مَنْ يكون قوله حجة لله تعالى، وليس هناك مَنْ يكون قوله حجة على الناس إلا حجج الله، ومَنْ جعلوه هم، فمن هنا اتّضح أنّ المقصود هو الإمام عليه السلام.

أضف إلى ذلك ما ورد في نصوص عديدة عن الأئمة عليهم السلام بأنّهم حجة الله على العباد، كما ورد في كتاب الكافي الشريف روايات وروايات بهذا الخصوص في كتاب الحجة منه والذي يأتي بعد كتاب التوحيد مباشرة.

ومن هذه الروايات ما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الحجة لا تقوم لله عزّ وجلّ على خلقه إلا بإمام حتّى يُعرف»^(٢).

الإمامة عند الشيعة:

إنّ الإمامة عند الشيعة تختلف في حقيقتها وجوهرها عمّا لدى أهل السُنّة، فهي عندنا إمرة إلهية، وإستمرار لوظائف النبيّ والنبوة، سوى تحمّل الوحي الإلهي، ومقتضى هذا اتّصاف الإمام بالشروط المشتركة في النبي، وعلى هذا سوف يتّحصر طريق ثبوت الإمامة بتنصيب من الله، وتنصيب من النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله، أو الإمام السابق.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٨، ص ١٦٣.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١٧٧، كتاب الحجة، ح ٢.

أما عند غير الشيعة فهي لا تخضع إلى ميزان، بل ليس لها ميزان، فتارةً يعتمدون على تعيين السابق للأحق، وأخرى على الشورى، وثالثة على السيف، إلى غير ذلك. وهي ليست عندهم من الأصول الاعتقادية، أما عندنا فهي أصل من الأصول الاعتقادية.

الأدلة على هذا الأصل

الدليل الأول: الآيات والروايات

إِنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ ﷺ لم تكن مهمته مقتصرة على تلقي الوحي الإلهي وتبليغه إلى الناس، بل كان يقوم بعدة أمور:

منها: تفسيره للكتاب العزيز، وشرح مقاصده، وكشف أسرارهِ، وهذا ما بيّنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١).

ومنها: بيان أحكام الموضوعات التي تحدث في زمن دعوته ﷺ.

ومنها: دفع الشبهات، والجواب عن التساؤلات العويصة المريبة التي كان يثيرها أعداء الإسلام من يهود ونصارى.

ومنها: أَنَّهُ ﷺ كان يصون الدين من التحريف والفساد، ويراقب ما أخذه عنه المسلمون من أصول وفروع، حتى لا تزل فيه أقدامهم.

هذه جملة من الأمور التي مارسها النبي الأكرم ﷺ أيام حياته الشريفة، ومن المعلوم أَن رحلته ستخلف فراغاً هائلاً في الوظائف المتقدمة.

فلا بُدَّ من وجود مَنْ يسدُّ هذا الفراغ الهائل؛ لأنَّ الأمة تحتاج إلى مَنْ يراقبها، ويوضح لها، ويأخذ بها إلى الطريق المستقيم في كُلِّ زمانٍ وفي كُلِّ مكانٍ.

والأ كيف يترك الله تبارك وتعالى هذه الأمة بلا شخص يرشدها، ويفسر لها، ويرد

(١) النحل: آية ٤٤.

الشبهات التي تعرض لها، أو التساؤلات التي تتلقاها.
 خصوصاً إذا علمنا أن الأمة لم تصل إلى مقام العصمة في زمن النبي الأكرم ﷺ حتى
 تعرف مصلحتها أو ما تحتاج إليه، فكيف بها بعده ﷺ؟!
 وعليه فلا يمكن أن يكون هذا الفراغ الهائل دون أن يوجد من يشغله، فلا بُدَّ - إذن -
 من وجود من يستودعه النبي الأكرم ﷺ كُلَّ ماتلقاه من المعارف والأحكام، وأن تكون
 هذه الشخصية شخصية مثالية، لها كفاءة وقدرة على تقبُّل هذه المعارف والأحكام
 وتحملها.

الدليل الثاني: الأمة الإسلامية ومثلث الخطر المحقق بها

إنَّ الدولة الإسلامية التي أسَّسها النبي الأكرم ﷺ كانت محاصرةً حال وفاته ﷺ من
 جهتي الشمال والشرق بأكبر إمبراطوريتين عرفهما تاريخ تلك الفترة، وكانتا على جانبٍ
 كبير من القوة والبأس، وهُما: الروم والفرس، الروم من الشمال، والفرس من الشرق.
 ويكفي في بيان خطورة إمبراطورية الفرس، ما كتبه ملكها إلى عامله باليمن - وذلك
 بعد أن وصلت إليه رسالة النبي ﷺ تدعوه إلى الإسلام وقام بتمزيقها -: «ابعث إلى هذا
 الرجل بالحجاز، رجلين من عندك جَلْدَيْنِ فليأتياني به»^(١).

هذه هي الأخطار الخارجية التي تواجهها الأمة الإسلامية، وأمَّا من الداخل، فقد
 كان الإسلام والمسلمون يعانون من وطأة مؤامرات المنافقين الذين كانوا يشكِّلون
 جبهةً عدوانيةً داخلية، حتَّى أنَّ الباري عزَّ وجلَّ أنزل فيهم سورة خاصة.
 إذن، عدوَّان خارجيان، وعدوٌّ داخلي، فالمثلث تامٌّ، ومن المحتمل جداً أن يتحد هذا
 المثلث، ليزلزل مابناه النبي الأكرم ﷺ، فما هي الوظيفة مع وجود هذا الخطر العظيم؟

(١) تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٢٩٦.

هل الوظيفة هي تنصيب قائد عارف حكيم له القدرة على قيادة الأمة ووظائفها حتى يجتمع المسلمون تحت رايته، ويكونوا صفاً واحداً في مقابل ذاك الخطر؟
أو أن الوظيفة والمصلحة العامة تقتضي تفويض الأمر إلى الأمة حتى يختاروا لأنفسهم أميراً، مع ما يحكيه لنا التاريخ من سيطرة الروح القبلية عليهم؟^(١)
والجواب هو: إن القائد العارف البصير هو من يعتني بالأوضاع الاجتماعية لأُمَّته، ويلاحظ الظروف المحيطة بها، ويرسم على ضوءها ما يراه صالحاً لمستقبلها، وعليه فلا بد من تعيين القائد والمُدبر، لا دفع الأمر إلى الأمة، ومتى عرفت الأمة مصلحتها؟!

الدليل الثالث: نصب الإمام لطف إلهي

والدليل الثالث والمهم في المقام هو ما سلكه السيد المرتضى عليه السلام في الاستدلال حيث قال: إنَّ نصب الإمام لطف من الله على العباد، واللطف واجبٌ على الله تعالى لما تقتضيه حكمته؛ وذلك لأنَّ اللطف ما يُقَرَّب إلى الطاعة ويُبَعَد عن المعصية، ولو بالإعداد وبالضرورة أنَّ نصب الإمام كذلك؛ لما به من بيان المعارف والأحكام الإلهية، وحفظ الشريعة من الزيادة والنقصان، وتنفيذ الأحكام، ورفع الظلم والفساد ونحوها.
وأما كونه واجباً عليه تعالى؛ فلأنَّ ترك اللطف من الله سبحانه وتعالى إخلال بغرضه ومطلوبه، وهو طاعة العباد له، وترك معصيته، فيجب نصبه لئلاَّ يُخِلَّ بغرضه^(٢).
ولذا استدلل أصحاب الإئمة عليهم السلام بأدلة قوية لبيان أهمية الإمام، منها هذه الرواية الشريفة: روى عليُّ بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن إبراهيم عن يونس بن يعقوب، قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، منهم حمران بن أعين، ومحمد بن النعمان، وهشام بن سالم، والطيار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم - وهو شابٌ - فقال أبو عبد

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٤٥. وأنظر: الإلهيات: ص ٣٦١.

(٢) نقلنا ذلك من كتاب الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني: ص ٣٥٧ - ص ٣٦٤.

الله ﷻ: «يا هشام، ألا تخبرني كيف صنعت بعمر بن عبيد، وكيف سألته؟ فقال هشام: يا بن رسول الله، إنني أُجِلُّكَ وأستحييك، ولا يعمل لساني بين يديك، فقال أبو عبد الله: إذا أمرتكم بشيء فافعلوا.

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلسه في مسجد البصرة، فعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة، فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متّزر بها من صُوفٍ، وشملة مرتدٍ بها، والناس يسألونه، فاستفرجتُ الناس، فأفرجوا لي، ثمّ قعدتُ في آخر القوم على ركبتيّ، ثمّ قلتُ: أيُّها العالم، إني رجلٌ غريبٌ، تأذن لي في مسألة؟ فقال لي: نعم. فقلتُ له: ألك عينٌ؟ فقال: يا بنيّ أيّ شيء هذا من السؤال؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلتُ هكذا مسألتي، فقال: يا بني سل وإن كانت مسألتك حمقاء، قلتُ: أجبني فيها، قال لي: سل.

قلتُ: ألك عينٌ؟ قال: نعم، قلتُ: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص، قلتُ: فلك أنفٌ؟ قال: نعم، قلتُ: فما تصنع به؟ قال: أشمُّ به الرائحة، قلتُ: ألك فمٌ؟ قال: نعم، قلتُ: فما تصنع به؟ قال: أذوقُ به الطعام، قلتُ: فلك أذنٌ؟ قال: نعم، قلتُ: فما تصنع بها؟ قال: أسمعُ بها الصوت، قلتُ: ألك قلبٌ؟ قال: نعم، قلتُ: فما تصنع به؟ قال: أُميّزُ به كلّما ورد على هذه الجوارح والحواس.

قلتُ: أو ليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال: لا، قلتُ: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة. قال: يا بنيّ، إنَّ الجوارح إذا شكَّت في شيء شَمَّتْه أو رأتْه أو ذاقَتْه أو سمعَتْه، ردتْه إلى القلب، فيستيقن اليقين ويُبطل الشكَّ.

قال هشام: فقلتُ له: فإنَّما أقام الله القلب لشكَّ الجوارح؟ قال: نعم، قلتُ: لا بُدَّ من القلب وإلاّ لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلتُ له: يا أبا مروان، فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يُصحِّحُ لها الصحيح ويُتيقن به ما شكَّ فيه، ويترك هذا الخلق

كُلُّهُمْ فِي حَيْرَتِهِمْ وَشَكِّهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ لَا يَقِيمُ لَهُمْ إِمَامًا يَرُدُّونَ إِلَيْهِ شَكَّهُمْ وَحَيْرَتَهُمْ، وَيَقِيمُ لَكَ إِمَامًا لَجَوَارِحِكَ تَرُدُّ إِلَيْهِ حَيْرَتَكَ وَشَكَّكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا.

ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ لِي: أَنْتَ هُشَامُ بْنُ الْحَكَمِ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: أَمِنْ جُلَسَاءِهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، قَالَ: فَأَنْتَ إِذَا هُوَ، ثُمَّ ضَمَنِي إِلَيْهِ، وَأَقْعَدَنِي فِي مَجْلِسِهِ وَزَالَ عَنِ مَجْلِسِهِ وَمَا نَطَقَ حَتَّى قُمْتُ.

قَالَ: فَضَحِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام وَقَالَ: يَا هُشَامُ، مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا؟ قُلْتُ: شَيْءٌ أَخَذْتَهُ مِنِّي وَأَلْفَنَتُهُ، فَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ، مَكْتُوبٌ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ^(١).

فَهَكَذَا هُوَ حَالُ الْإِمَامِ الْمُعْصُومِ عليه السلام، بِمَثَابَةِ قَلْبِ الْإِنْسَانِ، فَالْعَالَمُ بِلَا إِمَامٍ كَالْإِنْسَانِ بِلَا قَلْبٍ، وَكَيْفَ يَعِيشُ الْإِنْسَانُ إِذَا كَانَ بِلَا قَلْبٍ أَوْ تَعَرَّضَ قَلْبُهُ لِلْجَرَحِ أَوْ عَارِضٍ مُعَيَّنٍ، بَلْ كَيْفَ نَتَصَوَّرُ إِنْسَانًا يَخْتَرِقُ قَلْبَهُ سَهْمٌ مِثْلُ لَهِ ثَلَاثَ شُعَبٍ.

قَالَ أَرْبَابُ الْمُقَاتِلِ: كَانَ الْحُسَيْنُ عليه السلام يَقُولُ عِنْدَمَا بَرَزَ إِلَى الْقِتَالِ:

أَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ أَلَيْتُ أَنْ لَا أَنْشِي

أَحْمِي عِيَالِي أَبِي أَمْضِي عَلَى دِينِ النَّبِيِّ

وَأَخَذَ يُضْرِبُ فِيهِمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا.

فَلَمَّا نَظَرَ الشُّعْرَ إِلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ إِلَى عَمْرِ بْنِ سَعْدٍ، وَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ

يَفْنِينَا عَنْ آخِرِنَا مَبَارَزَةً، قَالَ: كَيْفَ نَصْنَعُ بِهِ؟

قَالَ: نَفْتَرِقُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَافْتَرِقُوا عَلَيْهِ: فَرَقَةً تَرْمِيهِ بِالْنبَالِ وَالسَّهَامِ وَالْحِجَارَةِ،

وَفَرَقَةً يَطْعَنُونَهُ بِالرَّمَاكِ، وَفَرَقَةً يَضْرِبُونَهُ بِالسَّيُوفِ، حَتَّى أَتْخُونَهُ بِالْجِرَاحِ، قَالَ فِي اللَّهْوَفِ:

حَتَّى أَصَابَتْهُ إِثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ جُرَاحَةً، فَوَقَفَ يَسْتَرِيحُ سَاعَةً، وَقَدْ ضَعُفَ عَنِ الْقِتَالِ، فَبَيْنَمَا

هُوَ وَاقِفٌ إِذْ أَتَاهُ حَجَرٌ فَوَقَعَ فِي جَبْهَتِهِ، فَسَالَتِ الدَّمَاءُ عَلَى وَجْهِهِ وَلَحِيَّتِهِ.

(١) الكافي: ج ١، ص ١٦٩. ص ١٧١، كتاب الحجّة، ح ٣.

فأخذ الثوب ليمسح الدم عن وجهه، إذ أتاه سهمٌ محدّد له ثلاث شُعب فوقع في قلبه^(١)، ثُمَّ أخذ السهم وأخرجه من وراء ظهره، فانبعث الدم كالميزاب، فوضع يده تحت الجرح، فلمّا امتلأت رمى بها إلى السماء، فما رجع من ذلك الدم قطرة، ثُمَّ وضع يده مرّة أخرى، فلمّا امتلأت دمّاً لطّخ بها رأسه ولحيته، وقال: «هكذا والله أكون حتّى ألقى جدّي محمداً، وأنا مخضوبٌ، وأقول: يا رسول الله، قتلني فلان وفلان»^(٢).

هذا وزينب عليها السلام تنظر أخاها بلا معين ولا مؤازر ولا عشيرة بعد ما خرجت مع أهل بيتها:

دنظر للعشيرة إشكّر حلوه	تحل الموزمة اوتكشف البلوه
أدوا لبو اليمّة اشروط الإخوة	اوسووا يوم إله للحشر- تذكّار
الفواطم لو اثلاثة من زلها	عكب احسين كون احضرت يّمها
چا محد جسر يجرگ خيمها	ولا سلبوا يتيمة ولا نهب صار
أنه اتمنيت هالنهضة انهضوها	إلزينب يوم اجوها إيسلبوها
وإلذيج اليتيمه الروعوها	ابضربها اوتلتهب بذياها النار

(بحراني)

فرّت يتيمة امدوهنة امن إخيام الحسين
تبجي اوتنادي يا خلگ درب الغري منين
گلها عدو امن الگوم اسمعي يا حزينه
ابعيد الغري وينچ يهالحرّه اووينه

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٧١.

(٢) مجمع مصائب أهل البيت عليه السلام: ج ١، ص ٢٥٣ - ص ٢٥٥.

ممشه ثلث تيام چانچ توصلينه
واشلون بس وحدچ ابهذا البر تسيرين
گالت أبوي حسين دليني بجسمه
ايگولون من فوگ الشرى إخضب إيدمه
ايا كتر صارت طيخته أرد أصل يمّه
بلچت يحاچيني امن أنادي ابصوت يحسين

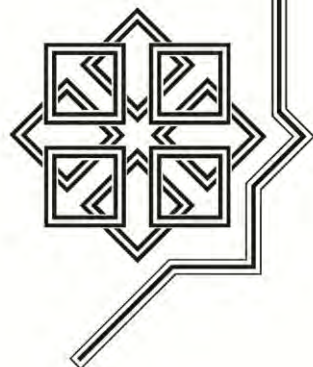
أحباي لو غير الحام أصابكم عتبْتُ ولكن ما على الموتِ مَعْتَبُ

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
والعاقبة للمتقين.

الحاضرة الثانية عشرة



سورة العصر



أروْحَكَ أم روح النبوة تصعدُ
ورأسك أم رأس الرسول على القنا
وصدرك أم مستودع العلم والحجى
وشاطرت الأرض السماء بشجوها
وقد نصب الوحي العزاء ببيته
يلوح له الثقلان ثقل مُمزق
فعرثه بالسيف والسهم بعضها
فأَيُّ قَتِيلٍ أصلت الشمس جسمه
وأيُّ ذبيح داست الخيل صدره
ألم تك تدري أن روح محمدٍ
فلو علمت تلك الخيول كاهلها
لشارت على فرسانها وتمردت
وأعظم ما يُشجي الغيور حرائرُ
فمن مَوْتٍ يشكو التشدد من يد
كان رسول الله قال لقومه

من الأرض للفردوس والخور سجدُ
بآية أهل الكهف راح يرددُ
لتحطيمه جيش من الجهل يعمدُ
فواحدة تبكي وأخرى تعددُ
عليك حداداً والمعزى محمدُ
بسهم وثقل بالسيف مُقددُ
شهيدٌ وبعض بالفلاة مُشرّدُ
ومشهدها من أصله متولدُ
وفرسانها من ذكره تتجمدُ
كقرآنه في سبطه متجسدُ
بأن الذي تحت السنانك أحمدُ
عليهم كما ثاروا بها وتمردوا
تضام وحاميا الكفيل مقيّدُ
وموثقة تبكي فتلطمها اليدُ
خذوا وترككم من عترتي وتشددوا^(١)



(١) القصيدة للسيد صالح بن السيد مهدي بحر العلوم، قال عنه السيد داخل حسن في مَنْ لا يحضره الخطيب (ج ١، ص ٢٢٤): « شاعر الشعب، ينتمي لأسرة صاحب الكرامات بحر العلوم، ولد سنة ١٢٢٨هـ في النجف الأشرف، له ديوان شعر طبع منه جزءان [توفي في العقد الأخير من القرن العشرين] ». »

طَبَّوْا لِلخِيَامِ وَفَرَّهْدُوها وعزیزات النبوة سلبوها
وچم طفلة إنبیهم روعوها اوفرّت من خیمها تحوم و اتدور

عگب ما فرهدوا ذیج الصواوین شبّوا نارهم بخيام الحسین
اوطلعت هایمة ذیج النساوین یتاماها اتعثّر بین الصخور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(١).

القَسَمَ ومعناه:

لقد احتلَّ القَسَمَ في القرآن الكريم مجالاً واسعاً، فصارت موارده مثيرة للاهتمام، فما هو القَسَمَ إذن؟

«القَسَمَ: هو اليمين، ويُجمع على أقسام، والفعل أقسم»^(٢).

وفي الصحاح: «أقسمت: حلفت، وأصله من القسامة، وهي الأيمان تقسم على الأولياء في الدم»^(٣).

وفي الفروق اللغوية: «الفرق بين القسم والحلف: أنَّ القَسَمَ أبلغ من الحلف؛ لأنَّ معنى قولنا (أقسم بالله) أنَّه صار ذا قسمٍ بالله، والقسم النصيب، والمراد: أنَّ الذي أقسم

(١) العصر: آية ١. آية ٣.

(٢) كتاب العين: ج ٥، ص ٨٦.

(٣) الصحاح: ج ٥، ص ٢٠١.

عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله، والحلف من قولك سيف حليف أي: قاطع ماضٍ فإذا قلت: حلف بالله فكأنك قلت قطع المخاصمة بالله، فالأول أبلغ؛ لأنه يتضمّن معنى الآخر مع دفع الخصم، ففيه معنيان، وقولنا: حلف يفيد معنى واحد، وهو قطع المخاصمة فقط...»^(١).

أركان القسم:

إنَّ القسم من الأمور ذات الإضافة، وهو فعلٌ فاعلٌ مُختار له إضافة إلى أمور أربعة: أ. الخالف، ب. ما يحلف به، ج. ما يحلف عليه، د. الغاية من القسم.

أمّا الأوّل: فالحلف عبارة عن فعل الفاعل المختار، فلا يصدر إلّا منه سواء أكان واجباً، كالله سبحانه، أم ممكناً، كالإنسان وغيره.

وأمّا الثاني (ما يحلف به) فإنّ لكلّ قوم أموراً مقدّسة يحلفون بها، وأمّا القرآن الكريم فقد حلف سبحانه بأمور تجاوز عددها الأربعين مُقسماً به.

وأمّا الثالث (ما يحلف عليه) والمراد هو جواب القسم الذي يُراد منه التأكيد عليه وتبتيته وتحقيقه، وهذا ما يقال القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده.

وثمة ركن رابع، وهو الغاية المتوخاة من القسم، فنقول: إنّ الغاية إمّا هي تحقيق الخبر ودعوة المخاطب إلى الإيمان والإذعان به، كما هو الغالب، أو إلفات النظر إلى عظمة المُقسَم به، وما يكمن فيه من أسرار ورموز، أو لبيان قداسته وكرامته، ومن خلال هذا البيان، يتّضح الجواب على ما ربما يُقال من أنّ قَسَمه سبحانه إن كان لأجل المؤمن فهو يصدّقه بلا حلف، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيد، فيكون هذا القَسَم لغواً.

والجواب: إنّ إيمان المؤمن بصدق إخباره سبحانه لا يتنافى تأكيده بالحلف، مضافاً إلى ما عرفت من أنّ حلفه سبحانه بشيء إشارة إلى كرامته وقداسته، أو إلى عظمته وما يكمن

(١) الفروق اللغوية: ص ٤٢٩، رقم ١٧٢٣.

فيه من أسرار ورموز^(١).

القسم في سورة العصر:

لم يُقسم الباري عزّ وجلّ في كلّ القرآن الكريم بالعصر إلاّ في هذه السورة المباركة، التي لخصت جميع المعارف القرآنية وجمعت شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان، كما عبّر عنها صاحب التفسير العظيم الميزان^(٢).

وعلى ضوء ما تقدّم في أركان القسم يأتي الكلام في تطبيقها على هذه السورة المباركة: فالقسم هو الله تبارك وتعالى، والمقسم به هو العصر، وجواب القسم هو كون الإنسان في خسر، والغاية هي تأكيد الجواب.

ولا شكّ - بحسب ما ذكرنا - أنّ الشيء الذي يقسم به لا بدّ أن يكون من الأمور المهمة المقدّسة حتّى يثبت الجواب والغاية.

ما هو العصر:

الأقوال والتفسير في ذلك مختلفة قد تصل إلى السبعة، أذكر بعضها، وهي: أنّ العصر الذي أقسم به الباري عزّ وجلّ هو:

١ - عصر النبي ﷺ.

٢ - أنّه الدهر.

٣ - وقت العصر.

٤ - صلاة العصر.

٥ - عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام^(٣)، ولكلّ قولٍ يوجد قائل وناصر له. والأشياء

(١) أنظر: الأقسام في القرآن الكريم: ص ١٠ - ص ١٣.

(٢) أنظر: تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٥.

(٣) أنظر هذه الأقوال في: تفسير جوامع الجامع: ج ٣، ص ٨٢٧. تفسير الرازي: ج ٣٢، ص ٨٤ - ص ٨٧.

التفسير الأصفي: ج ٢، ص ١٤٧٤. تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٥.

المذكورة كُلُّها مهمّة ومقدّسة، وتستحقّ أن يُقسم بها لإثبات جواب القسم الآتي بعد القسم، وهو: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾، وقد تسأل وتقول: من أين نشأت أهميّة هذه الأشياء المذكورة حتّى أقسم بها الباري عزّ وجلّ؟

والجواب:

أمّا الأول: وهو عصر الرسول الأكرم ﷺ؛ «فلكونه عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري، وظهور الحقّ على الباطل»^(١).

أو «لأنّ المنهج ذا المواد الأربعة في ذيل هذه السورة: [الإيمان، وعمل الصالحات، والتواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر] نزل في هذا العصر»^(٢).

ويؤيد عظمة هذا العصر خطبة الزهراء عليها السلام، حيث تقول: «وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطي الأقدام، تشربون الطرق وتقتاتون القدّ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمُحمّد ﷺ»^(٣).

أو كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار متنخون، بين حجارة خشن، وحيات صُم، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة»^(٤).

فهكذا عصر يشعّ على ظلمة العصر الذي سبقه فينورّها، يستحقّ أن يُقسم به، ويُذكر آناء الليل وأطراف النهار.

وأما الثاني: وهو الدهر؛ «لما فيه من عجائب الحوادث الدالّة على القدرة الربوبية وغير

(١) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٥.

(٢) تفسير الأمثل: ج ٢٠، ص ٤٣٥.

(٣) الاحتجاج: ج ١، ص ١٣٦-١٣٧.

(٤) نهج البلاغة: ج ١، ص ٦٦.

ذلك^(١)، أو «لأنّ فيه عبرة لأولي الأبصار»^(٢)، أو «لما في مروره من أصناف العجائب»^(٣).
وأما الثالث: وقت العصر «الطرف الأخير من النهار؛ لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبي، بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس»^(٤)، أو «أنّ هذا الوقت معظم... فكما أقسم في حقّ الرابع بالضحي فكذا أقسم في حقّ الخاسر بالعصر؛ وذلك لأنّه أقسم بالضحي في حقّ الرابع وبشّر الرسول أنّ أمره إلى الإقبال، وهاهنا في حقّ الخاسر توعدّه أنّ أمره إلى الإدبار»^(٥).

وأما الرابع: وهو صلاة العصر، وذلك «أنّه تعالى أقسم بصلاة العصر؛ لفضلها بدليل قوله ﴿وَالْصَّلَاةُ أَلْوَسَطَى﴾... [و] التكليف في أدائها أشقّ؛ لتهافت الناس في تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم... [و] أنّ صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار، فهي كالتوبة بها يُختم الأعمال، فكما تجب الوصيّة بالتوبة كذا بصلاة العصر؛ لأنّ الأمور بخواتيمها، فأقسم بهذه الصلاة تفخيماً لشأنها، وزيادة توصية المكلف على أدائها، وإشارة منه أنّك إن أدّيتها على وجهها عاد خسرك ربحاً»^(٦).

وأما الخامس: وهو عصر ظهور الإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام.
فعن المفصل بن عمر قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ﴾ قال عليه السلام: «العصرُ عصرُ خروج القائم»^(٧).

(١) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٦.

(٢) تفسير جوامع الجامع: ج ٣، ص ٨٣٧.

(٣) تفسير البحر المحيط: ج ٨، ص ٥٠٨.

(٤) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٥. ص ٣٥٦.

(٥) تفسير الرازي: ج ٣٢، ص ٨٦.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) كمال الدين وتمام النعمة: ص ٦٥٦، ح ١. عنه بحار الأنوار: ج ٢٤، ص ٢١٤، ح ١.

وقد يقال: ما هو الشيء المقدّس في هذا العصر حتّى يُقسّم به الباري عزّ وجلّ؟
والجواب: إنّ عصر يشبه عصر رسول الله ﷺ في رجوع الناس إلى صلب الدين
وصحيحه، بعد هذا البعد والفراق لأئمة الدين وهداته، ويكفي تصديقاً بعظمة هذا
العصر ما ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام في حديث حول سيرته عند قيامه ﷺ قال: «... ولا
يترك بدعة إلاّ أزأها، ولا سنة إلاّ أقامها»^(١).

فتصل الناس في ذلك العصر إلى الكمال الذي ليس بعده كمال يرجى في هذه النشأة.
وأنّه ﷺ يسير فيهم بسنة رسول الله ﷺ، ويعمل فيهم بعلمه... إذا قام القائم عليه السلام
دعى الناس إلى الإسلام جديداً، وهداهم إلى أمرٍ قد دثر، وضلّ عنه الجمهور^(٢).
والخلاصة: إنّ الله تبارك وتعالى أقسم بأحد هذه المقدّسات الخمسة وبذلك
«تتضح... عظمة آيات القرآن وسعة مفاهيمها، فكلّمة واحدة تتحمّل من المعاني العميقة
ما يجعلها صالحة لكلّ هذه التفسيرات المتنوّعة»^(٣).

جواب القسم في السورة المباركة:

وبعد معرفتنا بالآراء في تفسير ما أقسم به الباري عزّ وجلّ يأتي الدور الآن للتعرف
على جواب هذا القسم، فما هو الجواب المراد تأكّيده لنا؟
الجواب بالغ الأهميّة، والإخبار به نتيجة صعبة القبول، وهو: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي
خُسْرٍ﴾.

قال الراغب الإصفهاني: «خسر: الخسر والخسران انتقاص رأس المال، وينسب ذلك
إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل، فيقال: خسرت تجارتك، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا

(١) الإرشاد: ج ٢، ص ٣٨٥.

(٢) أنظر: المستجد من الإرشاد: ص ٢٦٧.

(٣) تفسير الأمثل: ج ٢٠، ص ٤٣٥.

كَرَّةً خَاسِرَةً»، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة، كالمال والجاه في الدنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسانية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران الممين... وكل خسران ذكره الله تعالى في القرآن، فهو على هذا المعنى الأخير، دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الدنيوية والتجارات البشرية^(١).

ثم إنَّ المراد بالإنسان هنا جنسه^(٢)، فيكون المعنى كلَّ إنسان في خُسر «والإنسان إذا لم يستعمل نفسه وعُمره فيما يوجب له الربح الدائم، فهو في خسران؛ لأنه عمل في إهلاك نفسه وعمره، وهما أكبر رأس ماله»^(٣).

وفي التفسير الصافي: «لفي خسران في مساعيهم، وصرف أعمارهم في مطالبهم»^(٤). «يخسر هذا الإنسان ثروته الوجودية شاء أم أبى، تمرُّ الساعات والأيام والأشهر والأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادية والمعنوية، تتناقص قدرته باستمرار. نعم، إنَّه كشخص عنده ثروة عظيمة، وهذه الثروة يؤخذ منها كلَّ يوم شيء باستمرار رغم إرادته، هذه طبيعة الحياة الدنيوية طبيعة الخسران المستمر، القلب له قدرة معينة على الضربان، وحين تنفذ هذه القدرة يتوقف القلب تلقائياً دون علّة من عيب أو مرض، هذا إذا لم يكن توقف الضربان نتيجة مرض»^(٥)، فهو أشبه ما يكون بذلك الرجل بائع الثلج الذي يصيح ويقول: ارحموا مَنْ يذوب رأسُ ماله، حتّى قال البعض تعلّمت معنى الخسران من بائع الثلج^(٦).

(١) مفردات غريب القرآن: ص ١٤٧.

(٢) أنظر: تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٦.

(٣) زاد المسير: ج ٨، ص ٣٠٤.

(٤) التفسير الصافي: ج ٧، ص ٥٤٩.

(٥) تفسير الأمثل: ج ٢٠، ص ٤٣٥.

(٦) أنظر: تفسير الرازي: ج ٣٢، ص ٨٥.

وقال الشيخ الطوسي: «إنَّ الإنسان لفي خسر جواب القسم، وفيه إخبار من الله أنَّ الإنسان يعني الكافر (لفي خسر) أي: لفي نقصان بارتكاب المعاصي وكفره بالله، والخسر هلاك رأس المال للإنسان، وبارتكاب المعاصي في هلاك نفسه خسران، وهو أكبر من رأسه ماله»^(١).

والخلاصة: كُلُّ الناس في هذه الدنيا في خسر، فتكون الآية والقول المنسوب لرسول الله ﷺ وهو: «الناس كُلُّهم هلكي إِلَّا العاملون، والعاملون كُلُّهم هلكي إِلَّا العاملون والعاملون كُلُّهم هلكي إِلَّا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم»^(٢) يحملان مفهوماً واحداً.

الإستثناء في السورة المباركة:

بعد تأكيد الجواب بالقسم وبأدوات أخرى من قبيل (إنَّ) المفيدة للتأكيد، و(اللام) كذلك، جاء الدور الآن لتفريج هذه الكربة وتضييق دائرة الخسران، وتوسيع دائرة الريح، فاستثنت السورة المباركة أربعة طوائف حيث قالت: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾، فلنتعرف على هذه الطوائف الأربعة؛ حتى نسعى جاهدين لنكون منهم إن شاء الله تعالى.

الطائفة الأولى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، هذه هي الطائفة الأولى، والتي تمثل العنوان المستثنى من الخسران الذي أقسم عليه الباري عزَّ وجلَّ وأكدّه.

وفي أضواء البيان: «هذا هو المستثنى من الإنسان المتقدِّم، ممَّا دلَّ على العموم كما

(١) التبيان: ج ١٠: ص ٤٠٥.

(٢) ذكره في جامع السعادات: ج ١، ص ٢٢٠ تحت جملة: «ومن هنا يظهر سرُّ قوله» ولكن في هامش جامع السعادات قال محقق الكتاب: «جاء نصُّ هذه العبارة في مجموعة ورام ص ٢٢٠ عن النبي ﷺ مرسلًا» أقول: ولم أعثر عليه في المجموعة المذكورة لاختلاف نسختي، ولعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً.

قدّمنا، والإيمان لغة التصديق وشرعاً الاعتقاد الجازم بأركان الإيمان^(١).

وقال السيد العلامة: «المستثنون هم الأفراد المتلبسون بالإيمان والأعمال الصالحة، فهم آمنون من الخسر؛ وذلك أن كتاب الله يبيّن أن للإنسان حياةً خالدةً مؤبّدةً لا تنقطع بالموت، وإنّما الموت انتقال من دار إلى دار... ويبين أن شطراً من هذه الحياة وهي الحياة الدنيا حياة امتحانية... وقد سمى الله تعالى ما سيلقاه الإنسان في الآخرة جزاءً وأجرًا في آيات كثيرة، ويتبيّن بذلك كلّ أنّ الحياة رأس مال للإنسان يكسب به ما يعيش به في حياته الآخرة، فإن اتّبع الحقّ في العقد والعمل فقد ربحت تجارتك، وبورك في مكسبه، وأمن الشر في مستقبله، وإن اتّبع الباطل وأعرض عن الإيمان والعمل الصالح فقد خسرت تجارتك، وحرّم الخير في عقبه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢﴾».

والمراد بالإيمان الإيمان بالله، ومن الإيمان بالله الإيمان بجميع رسله والإيمان باليوم الآخر، فقد نصّ تعالى فيمن لم يؤمن ببعض رسله أو باليوم الآخر أنّه غير مؤمن^(٣).

الطائفة الثانية: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهذه هي الطائفة الثانية: استثناء من جملة الناس الذين خسروا في هذه الحياة الدنيا.

ولكن ما هو عمل الصالحات؟ هل هو أداء الفرائض^(٤)، أو مواساة الإخوان^(٥)، أو أنّه الموافق لكتاب الله وعمله صاحبه خالصاً لوجه الله، وكونه صادراً من مؤمن بالله^(٦) أو أنّه

(١) أضواء البيان: ج ٩، ص ٩٣.

(٢) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٢٥٦ - ص ٢٥٧.

(٣) أنظر: تأويل الآيات: ج ٢، ص ٨٥٤.

(٤) أنظر: غاية المرام: ج ٤، ص ١٤٧.

(٥) أنظر: أضواء البيان: ج ٩، ص ٩٤.

العمل بالطاعات^(١).

والظاهر أنَّ بيان الأعمال الصالحة في هذا الإستثناء ينطبق على ما ذكر هنا، فإداء الفرائض، ومواساة الإخوان، والعمل بالطاعات وما شاكل ذلك، كلُّها من الأعمال الصالحة، ولكن هذا من باب ذكر المصاديق، فهو إذن كلُّ الأعمال الصالحة.

قال في الميزان: «التلبس بجميع الأعمال الصالحة»^(٢)، ولا أظن أنَّ الأعمال الصالحة تحتاج إلى بيان أكثر بعد ما ذكر في كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ.

فكلُّ ما أمر به كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ هو من الصالحات سواء بلغ رتبة الوجوب أم الاستحباب، ومصاديق هذه الكبرى كثيرة لا تُعدُّ ولا تحصى؛ لذا لم أعثر على مفسر عدّها أو أحصاها.

الطائفة الثالثة: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ هذه هي الطائفة الثالثة المستثناة من الحُسر، وهم مَنْ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ.

«قال بعضهم: التواصي بالحق هو المقام مع الحق، والقيام بأوامره على حدود الاستقامة»^(٣).

وقال الفيض الكاشاني: «بالثابت الذي لا يصح إنكاره من اعتقاد أو عمل»^(٤). وهذا أيضاً من باب ذكر الكبرى التي لها مصاديق كثيرة، فمن التواصي بالحق التواصي بجميع أصول الدين وفروعه، ومنه التواصي بالإهتمام بالعمل على طبق الفروع، مثل أداء الفرائض، والمواظبة عليها، ومنه برّ الوالدين، وغيرها الكثير. فمن هنا يرد هذا التساؤل وهو: أليس أنَّ التواصي بالحق داخل في ﴿وَعَمِلُوا

(١) أنظر: التبيان: ج ١٠، ص ٤٠٥.

(٢) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٧.

(٣) نقله عنه في تفسير السلمى: ج ٢، ص ٤١٩.

(٤) التفسير الصافي: ج ٧، ص ٥٤٩.

الصَّلَاحَتِ ﴿١﴾، فعَلَامَ ذُكْرَ مَرَّةٍ أُخْرَى، وكذا التواصي بالصبر؟!

والجواب: نعم، هو داخل فيه، لكنه ذُكْرَ مَرَّةٍ أُخْرَى للتأكيد.

قال العلامة الطَّبَّاطبائي: «ثُمَّ التواصي بالحق من العمل الصَّالح، فذكره بعد العمل الصَّالح، من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ اهتماماً بأمره، كما أَنَّ التواصي بالصبر من التواصي بالحق، وذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام؛ اهتماماً بأمره، ويؤكد تكرار ذكر التواصي، حيث قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ولم يقل: وتواصوا بالحق والصبر»^(١).

وفي أضواء البيان: «وقيل: إِنَّ التواصي: أن يوصي بعضهم بعضاً بالحق. وقيل: الحق كل ما كان ضد الباطل، فيشمل عمل الطاعات وترك المعاصي... وقيل الحق هو القرآن؛ لشموله كل أمر وكل نهي وكل خير»^(٢).

وعلى القيل الأخير - الحق هو القرآن - لماذا يستغرب البعض من تفسير الآية بأوضح مصاديق الحق والالتزام به، ألا وهو أمير المؤمنين عليه السلام، كما في تأويل هذه الآيات الشريفة والمروية عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، أو مطلق الإمامة والولاية^(٣) بعد تواتر الحديث عن المصطفى صلى الله عليه وآله: «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»^(٤).

وقد ورد بالفاظ أخرى، والحديث متواتر معني، بل روى الحاكم النيسابوري عن رسول الله صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي حُسْرٍ﴾ هو أبو جهل بن هشام ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ قال: هم علي وشيعته»^(٥).

(١) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٧.

(٢) أضواء البيان: ص ٩٤.

(٣) أنظر: تأويل الآيات: ج ٢، ص ٨٥٤. شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٤٨٢.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ج ٣، ص ١٢٤. المعجم الأوسط: ج ٥، ص ١٣٥. الجامع الصغير: ج ٢،

ص ١٧٧، ح ٥٥٩٤. كتر العمال: ج ١١، ص ٦٠٣، ح ٣٢٩١٢.

(٥) شواهد التنزيل: ج ٢، ص ٤٨٢.

الطائفة الرابعة: والطائفة الرابعة المستثناة من الخُسْر هم مَنْ تواصلوا بالصبر بعد التواصل بالحق، سواءً كان التواصل بالصبر من مصاديق التواصل بالحق أم من مصاديق العمل الصالح، فهو من عطف الخاص بعد العام، ولو ذكر بعده وتواصلوا بالصوم لكان عطف الصوم على الصبر من باب عطف الخاص بعد العام أيضاً؛ لأنَّ الصوم من مصاديق الصبر إن لم يكن هو الصبر بعينه، كما في إطلاقات بعض الآيات الشريفة كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(١)، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «يعني بالصبر الصوم»^(٢). وذهب بعض المفسرين إلى كون المقصود بالصبر هنا هو: الصبر على تحمّل المشاق في طاعة الله، والصبر عن معصيته^(٣).

لكن حملها على الجميع لا ضير فيه بعد إطلاق الكلام؛ ولذا قال العلامة الطباطبائي رحمه الله: «وقد أُطلق الصبر، فالمراد به أعمّ من الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته... والصبر عند النوائب التي تصيبه بقضاء من الله وقدر»^(٤).

وفي بعض التفاسير عن أئمة الهدى عليهم السلام: وصّوا ذراريهم ومَنْ خلفوا من بعدهم بالولاية وبالصبر عليها^(٥)، وفي بعضها الآخر علي بن أبي طالب^(٦). أو العترة^(٧). لكن هل المسلمون فعلاً عملوا بوصية القرآن ووصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بمواصلة العترة وعدم مقاطعتهم، أو عملوا بعكس ما أوصاهم القرآن والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم؟!

(١) البقرة: آية ٤٥.

(٢) مَنْ لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٧٦، ح ١٧٧٦.

(٣) التبيان: ج ١٠، ص ٤٠٥. تفسير الآلوسي: ج ٣٠، ص ٢٢٩. جوامع الجامع: ج ٣، ص ٨٢٨. تفسير

البحر المحيط: ج ٨، ص ٥٠٤.

(٤) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٣٥٧.

(٥) أنظر: بحار الأنوار: ج ٢٤، ص ٢١٥، ح ٤، تأويل الآيات: ج ٢، ص ٨٥٤.

(٦) أنظر: غاية المرام: ج ٤، ص ١٤٧، ح ٢.

(٧) التفسير الصافي: ج ٧، ص ٥٥٠.

يحيينا على هذا السؤال سليل العترة الطاهرة عليه السلام وزين عابدها الإمام السَّجَّاد عليه السلام في خطبته حيث قال فيها: «... قُتِلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَعَتْرَتُهُ، وَسُبِّي نَسَاؤُهُ وَصَبِيَّتُهُ وَدَارُوا بِرَأْسِهِ فِي الْبُلْدَانِ مِنْ فَوْقِ عَامِلِ السَّنَانِ، وَهَذِهِ الرِّزْيَةُ الَّتِي لَا مِثْلَهَا رِزْيَةٌ، أَيُّهَا النَّاسُ أَصْبَحْنَا مَطْرُودِينَ مُشَرَّدِينَ، مَذُودِينَ شَاسِعِينَ عَنِ الْأَمْصَارِ، كَأَنَّا أَوْلَادُ تَرْكٍ وَكَابِلٍ، مِنْ غَيْرِ جَرَمٍ أَجْرَمْنَاهُ، وَلَا مَكْرُوهٍ ارْتَكَبْنَاهُ، وَلَا ثَلَمَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ثَلَمْنَاهَا، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ، إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ، وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ فِي قِتَالِنَا، كَمَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ فِي الْوَصَايَةِ بِنَا، لَمَا زَادُوا عَلَيَّ مَا فَعَلُوا بِنَا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ...»^(١).

بلى والله...

كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِقَوْمِهِ خذُوا وَتَرَكُمُ مِنْ عَتْرَتِي وَتَشَدَّدُوا
ولذا كانت تنظر الحوراء زينب عليها السلام إلى الأشلاء المقطَّعة على رمضاء كربلاء، وكأني بها تنادي:

خوية اشلون أسوي وهاي الظعون	بس انودعك ساعة ويرحلون
وما ندرى ابعزمهم وين يردون	عدوان وكره بين مظهرين
ناداها العدو بسج من النوح	المن تشتجين حسين مذبوح
تشوفينه جسد علگاع مطروح	دگومي الناگتج محنه مجيمين

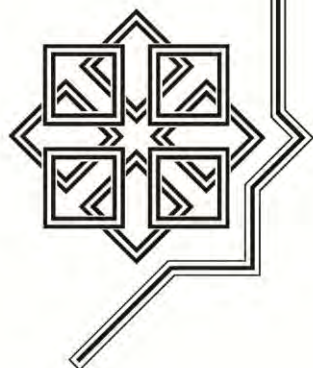
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
والعاقبة للمتقين.

(١) مثير الأحزان: ص ٩١. اللهوف: ص ١١٧.

الحاضرة التاسعة عشرة



قِسْوَةُ الْقُلُوبِ



سلامٌ على الحوراء ما بقي الدهرُ
سلامٌ على القلبِ الكبيرِ وصبره
جرى ما جرى في كربلاء وعينها
لقد أبصرتْ جسمَ الحسينِ موزعاً
رأته ونادت يا ابن أمِّي ووالدي
أخي إنَّ في قلبي أسى لا أطيِّقه
عليّ عزيزٌ أن أسير مع العدى
أخي إن سرى جسمي فقلبي بكربلا
أخي كُلُّ رُزءٍ غير رُزئك هيَّ
أخي أنت عن جدِّي وأمِّي وعن أبي
متى شاهدت عيناى وجهك شاهدتْ
ومُذْ غبت عني غاب عني جميعهم

وما أشرقت شمسٌ وما طلعَ البدرُ
بما قد جرت حُزنًا له الأدمعُ الحُمُرُ
ترى ما جرى ممَّا يذوب له الصخرُ
فجاءت بصيرٍ دون مفهومه الصبرُ
لك القتلُ مكتوباً ولي كُتبَ الأسرُ
وقد ضاق منِّي في تحمله الصدرُ
وتبقى بوادي الطَّف يصهرُك الحرُ
مقيمٌ إلى أن ينقضي - منِّي العمرُ
وما بسواه اشتدَّ واعصوب الأمرُ
وعن أخي المسموم سلوى ولي ذخرُ
وجوهم الغرَّا وكان بك اليُسْرُ -
ففقدك كسرٌ - ليس يرجى له جبرٌ^(١)

أنه زينب اليحجون عني
مصايب حسين الدوهني
سليت المصايب ما سلني
نزلن على عيوني وعمتي

(١) القصيدة لشاعر أهل البيت عليه السلام السيد رضا الهندي رحمه الله، وقد تقدّمت ترجمته في المحاضرة

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

لقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه بصفاته الالائية به ومن صفاته الجمالية أنه حلیم تباركت أسماؤه، وأنه يُمهل عباده ولكن لا يَهملهم حتى ولو عصوه، فيصبر عليهم، بل هو الصبور تبارك وتعالى، ولكن بعد أن يرى أن هؤلاء العباد لا يريدون إصلاح أنفسهم، ولا يغيرون ما فيها، يرفع عنهم فيضه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢)، ولو رجعنا إلى الواقع لرأينا ذلك بوضوح، فهذه الآية تُحدثنا عن حصول القسوة في قلوب أقوام بعد مرور زمان من الحلم الإلهي والفيض والنعم.

وهؤلاء القوم هم بنو إسرائيل، والآية المباركة جاءت «بعد قصّة البقرة التي ذبحها بنو إسرائيل وكانوا يُجادلون موسى عليه السلام بغية التخلص من ذبحها، ولكن قاموا بذبحها وما كادوا يفعلون، وكان ذبح البقرة؛ لأجل تحديد هوية القاتل الذي قام بقتل ابن عمّه غيلةً، وأتهم بقتله شخصاً آخر من بني إسرائيل، فصاروا يتدارفون ويدفعون عن أنفسهم هذه التهمة، فرجعوا في أمره إلى موسى عليه السلام وشاء الله أن يُظهر حقيقة الأمر بنحو مُعجَز، فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فلما ذبحوها - بعد محاولات طويلة - أمر سبحانه أن يضربوا المقتول ببعض البقرة حتى يحیی المقتول ويُعین هوية القاتل، قال سبحانه: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ومع رؤية هذه المعجزة الكبرى التي كان من المفروض أن تزيد في إيمانهم وانصياعهم لنبيهم موسى عليه السلام لكن - وللأسف - قست قلوبهم بنحو يحكي سبحانه شدة تلك القسوة

(١) البقرة: آية ٧٤.

(٢) الرعد: آية ١١.

ويقول: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(١).

قسوة القلوب وأسبابها:

القسوة في اللغة: الغلظة، وقست غلظت ويست^(٢)، وأصلها: الصلابة في كل شيء، ومن المجاز قسا الدرهم يقسوا قسواً، زاف أي: رداً فهو قسي^(٣). وبالتأمل في الآية الشريفة نرى أنها جاءت في مقام ذم بني إسرائيل على هذه القسوة وتشبيه قلوبهم بالحجارة، ثم الإعتذار للحجارة، وهذا دليل على أن لهم الدور الكبير في عروض هذه القسوة على قلوبهم، وإلا لم يصح ذمهم على قسوتهم، قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ^(٤) وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ^(٥)﴾، فالآية المباركة تعلل القسوة بسبب نقضهم الميثاق؛ «ولأجل ذلك جعل سبحانه قلوبهم قاسية لا يتأثرون بوعظ الأنبياء وإنذارهم، ولا يكثرثون من تحريف الدين وغيره، والآيتان - الآية محل البحث وهذه الآية - تعبران عن دور العبد في مصيره، وأنه سبحانه غبّ فعل العبد، يعاقبهم بلعنهم، وجعل قلوبهم قاسية، وله نسبتان إلى العبد وإلى الله»^(٦).

إذن قسوة القلوب ناشئة من أفعال العبد نفسه، ومن هنا صار لزماً علينا أن نتعرف على أسباب القسوة بحسب ما روي في ذلك:

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا علي، ثلاث يقسين القلب: إستماع اللهو، وطلب

الصيد، وإتيان باب السلطان»^(٧).

(١) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٩٥-٩٦.

(٢) أنظر: لسان العرب: ج ١٥، ص ١٨١.

(٣) أنظر: تاج العروس: ج ٢٠، ص ٧٨.

(٤) المائدة: آية ١٣.

(٥) لب الأثر في الجبر والقدر: ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٦) روضة الواعظين: ص ٤١٤.

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): «لَمَتَانِ: لَمَّةٌ ^(١) من الشيطان، وَلَمَّةٌ من الملك، فَلَمَّةُ الملك الرِّقَّةُ والفهم، وَلَمَّةُ الشيطان السهو والقسوة» ^(٢).

وفي الكافي الشريف في مناجاة موسى عليه السلام: «يا موسى، لا تطوّل في الدنيا أملك فيقسو قلبك، والقاسي القلب منّي بعيد» ^(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أنهاكم أن تطرحوا التراب على ذوي الأرحام؛ فإنّ ذلك يورث القسوة، ومن قسا قلبه بعدد من ربّه عزّ وجلّ» ^(٤).

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله؛ فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وأنّ أبعد الناس من الله القلب القاسي» ^(٥).

وعن إمامنا الصادق عليه السلام أنه قال: «وليس شيء أضرّ لقلب المؤمن من كثرة الأكل، وهي مورثة لشيئين: قسوة القلب، وهيجان الشهوة» ^(٦).

وروي عن نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: «قسوة القلب من جفوة العيون، وجفوة العيون من كثرة الذنوب، وكثرة الذنوب من حبّ الدنيا، وحبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» ^(٧).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ما جفّت الدموع إلّا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب» ^(٨).

(١) اللّمة: الهمّة والخطرة تقع في القلب. النهاية: ج ٤، ص ٢٧٣.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٢٣٠، ح ٣.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٣٢٩، ح ١.

(٤) علل الشرائع: ج ١، ص ٣٠٤ - ص ٣٠٥، ح ١.

(٥) وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ١٩٤، ح ١٩، عن أمالي الشيخ الطوسي: ص ٣، ح ١.

(٦) مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ٩٤، ح ٨.

(٧) مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ٩٦، ح ١٣.

(٨) علل الشرائع: ج ١، ص ٨١، ح ١.

وخلاصة هذه النصوص الشريفة أنّ موجبات قساوة القلب عدّة أمور:

الأول: استماع اللهو، ويمكن أن يقصد به الغناء، أو مطلق ما يشغل من هوى أو طرب^(١)، أو هو لعب لا يعقب نفعاً، وسمي لهواً؛ لأنّه يشغل عمّا يعني من قولهم: ألها في الشيء أي: شغلني، كما فسرهُ أبو هلال العسكري^(٢).

الثاني: طلب الصيد، والمقصود به صيد اللهو الذي هو محرّم عند المشهور، ودخوله في سفر المعصية كما صرّح به السيد الخوئي^(٣).

الثالث: إتيان باب السلطان، ويطلق على الحاكم الجائر، كما روي ذلك في فقه الرضا^(٤) «وإذا فزعت من سلطان أو غيره فقل: حسبي الله...»^(٥).

الرابع: طول الأمل في الدنيا.

الخامس: طرح التراب على الأرحام عند الدفن.

السادس: كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى.

السابع: كثرة الأكل.

الثامن: كثرة الذنوب، وهي تجمع الكثير من الأسباب المتقدّمة.

هذه بعض أسباب وموجبات قسوة القلب، ويبقى ما هو المطلوب منا إزاءها؟! ممّا لا شكّ فيه أن تجنّب هذه الموارد يؤثّر تأثيراً إيجابياً في ارتفاع قسوة القلب، ولا نقول أنّه العلاج، بل هو الوقاية، وهي خير من العلاج، كما اشتهر عند الأطباء ذلك، وعن أمير المؤمنين^(٦): «ترك الذنب أهون من طلب التوبة»^(٧).

(١) أنظر: كتاب العين: ج٤، ص٨٧.

(٢) أنظر: الفروق اللغوية: ص٤٦٩.

(٣) أنظر: كتاب الصلاة: ج٨، ص١١٧.

(٤) فقه الرضا: ص٣٩٣، ح١١٢.

(٥) نهج البلاغة: ج٤، ص٤٢، رقم ١٧٠.

وأما ما يوجب رقة القلب، فقد روي: «أن بعض أنبياء بني إسرائيل شكوا إلى الله تعالى قسوة القلب وقلة الدمعة، فأوحى الله إليه أن كُلِ العدس، فأكل العدس، فرق قلبه وكثرت دمعة»^(١).

ومن العلاج أيضاً مسح رأس اليتيم، فقد روي عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «مَنْ أنكر منكم قساوة قلبه فليُدنِ يتيماً فيلاطفه وليمسح رأسه، يلين قلبه بإذن الله عز وجل، فإنَّ لليتيم حقاً»^(٢).

قلوبٌ تشبه الحجارة:

ثمَّ تنتقل الآية الشريفة لتعرِّفنا على حقيقة تلك القلوب القاسية، وعلى مدى تلك القسوة وشِدَّتِها.

فيأتي الجواب المفزع بأن قساوة تلك القلوب بلغت الذروة، فهي كالحجارة أو أشدَّ قسوة، أي: لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة.

وقد يسأل سائل عن معنى (أو) هنا، وظاهرها يفيد الشك الذي لا يجوز عليه؟ وقد أجاب العلماء عن ذلك بوجوه:

الوجه الأول: أن تكون للإباحة، كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين، فيكون معنى الآية: إن شَبَّهْتُم قلوبهم بالحجارة أصبتم، وإن شَبَّهْتُموها بما هو أشدَّ أصبتم، وإن شَبَّهْتُموها بالجميع فكَذلك.

الوجه الثاني: أن تكون (أو) للتفصيل، فيكون معنى الآية: أن بعضهم قلوبهم كالحجارة، وبعضهم أشدَّ منها.

الوجه الثالث: أن تكون (أو) هنا مبهمة بالنسبة للمخاطب، وإن كان الله تعالى عالماً

(١) المحاسن: ج ٢، ص ٥٠٤، ح ٦٣٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٣، ص ٢٨٦، ح ٣.

بذلك، فيكون معنى الآية: إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَأَحَدٍ هَازِلٍ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا، كَقَوْلِهِمْ: أَكَلْتُ بَسْرَةً أَوْ تَمْرَةً، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَكَلَ عَلَى التَّفْصِيلِ، إِلَّا أَنَّهُ أَهْمُهُ عَلَى الْمَخَاطَبِ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ فِيهَا أَنْ يَخْبِرَ تَعَالَى عَنْ شِدَّةِ قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّهَا مِمَّا لَا تَنْشِي لَوْعْظَ وَلَا تَصْغِي لِحَقٍّ، فَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي الْقَسْوَةِ كَالْحِجَارَةِ أَمْ أَشَدَّ مِنْهَا، فَقَدْ تَمَّ مَا أُرِيدَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَرَضِ فِي وَصْفِهَا وَذَمِّهَا.

الوجه الرابع: أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى بَلْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١)، وَتَكُونَ فَائِدَةُ هَذَا أَنَّ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مَعَ الْقَسْوَةِ وَالْعُدُولِ عَنْ تَصَوُّرِ الْحَقِّ وَالتَّفَكُّيرِ فِيهِ رُبَّمَا لَأَنْتَ بَعْضُ اللَّيْنِ، وَفِي حَالٍ أُخْرَى تَكُونَ فِي نِهَايَةِ الْبَعْدِ عَنِ الْحَقِّ وَكَادَتْ تَصْغِي إِلَى الْحَقِّ، فَتَكُونَ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَالْحِجَارَةِ الَّتِي رُبَّمَا لَأَنْتَ، وَفِي حَالٍ أُخْرَى رُبَّمَا تَكُونَ فِي نِهَايَةِ الْبَعْدِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّفَوُّرِ عَنْهُ، فَتَكُونَ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ^(٢).

وَقَدْ أَضَافَ الشَّيْخُ الطُّوسِي وَجْهَيْنِ آخَرَيْنِ يُمْكِنُ رَجُوعُهُمَا إِلَى مَا ذَكَرَ^(٣).

الحجارةُ ألين من قلوب بني إسرائيل:

ثُمَّ نَجِدُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عَذَرَ الْحِجَارَةَ، وَلَمْ يَعْذِرْ قُلُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقَاسِيَةِ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

الأمر الأول: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أَي: تَفْجَرُ الْأَنْهَارُ مِنَ الْحِجَارَةِ كَالْعَيْنِ الْجَارِيَةِ مِنَ الْجِبَالِ الصَّخْرِيَّةِ^(٤)، وَقَوْلُهُ فِيهِ بَيْنَ الْحِجَارَةِ وَالْمَاءِ؛ لَكُونَ

(١) الصافات: آية ١٤٧.

(٢) أنظر: أمالي السيد المرتضى: ج ٣، ص ١٤٢. ص ١٤٩ نقلناه باختصار وتصرف يسير.

(٣) التبيان: ج ١، ص ٣٠٦ - ص ٣٠٧.

(٤) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٩٦ - ص ٩٧.

الحجارة يضرب بها المثل في الصلاة، ككون الماء يضرب به المثل في اللين، فهذه الحجارة على كمال صلابتها يتفجّر منها الأنهار على لين مائها، وتشقّق فيخرج منها الماء على لينه وصلابتها، ولا يصدر من قلوبهم حال يلائم الحقّ، ولا قول حقّ يلائم الكمال الواقع^(١). فأعذر الحجارة وعاب قلوبهم بقساوتها حين لم تلن بذكر الله ولا بالمواعظ، وقيل: أراد به حجراً مخصوصاً، وهو حجر موسى عليه السلام الذي كان تخرج منه العيون^(٢).

وبالفعل بعض الحجارة ينبع منها الماء؛ لذا روي: «أن رسول الله ﷺ اجتاز بحجر ينبع منه ماء كثير، فتعجّب من ذلك، فسأل الله انطافه، فقال له: لم يخرج منك الماء الكثير مع صغرك؟! فقال: من بكاء حزني، حيث سمعت بقولك: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٣)، وأخاف أن أكون من تلك الحجارة. فأجابه الله وبشّره النبي بذلك، ثم تركه ومضى، ثم عاد إليه وبعد وقت رآه ينبع كما كان، فقال: ألم يأمنك الله؟ فقال: فذلك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور»^(٤).

الأمر الثاني: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ «كالعيون الحادثة عند الزلازل المستتعبة للإنشقاق والانفجار المتعقب لجريان الأنهار»^(٥).

وفي تفسير القرطبي: «قال مجاهد: ما تردّي حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء، إلا من خشية الله، نزل بذلك القرآن الكريم. ومثله عن ابن عباس وجريح»^(٦).

(١) أنظر: تفسير الميزان: ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) نسبه السمرقندي في تفسيره إلى القيل. أنظر: تفسير السمرقندي: ج ١، ص ٩٢.

(٣) التحريم: آية ٦٤.

(٤) أنظر: الخرائج والجرائح: ج ١، ص ١٦٩، ح ٢٥٩، عنه بحار الأنوار: ج ٨، ص ٢٩٧، ح ٥٠.

(٥) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٩٧.

(٦) تفسير القرطبي: ج ١، ص ٤٦٥.

وهذا معناه أن: «لا امتناع عند الحجارة ممّا يحدث فيها من أمره وإن كانت قاسية، بل هي متصرّفة على مراده لا يعدم شيء ممّا قدر فيها، وبنو إسرائيل مع كثرة نعمه عليهم، وكثرة ما أراهم من الآيات يمتنعون عن طاعته، ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقّ، بل تقسو وتمتنع من ذلك»^(١).

الأمر الثالث: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

والأمر الأخير الذي تمتاز به الحجارة على تلك القلوب القاسية أنّها تهبط من خشية الله، وهذا أروع مدح لها، وأعلى ذمّ لها، تلك القلوب القاسية. وهبوط هذه الحجارة كما يحصل من الجبال العالية إلى الأودية المنخفضة من خشية الله، ولا مانع من أن يكون للهبوط علّة طبيعية كالصواعق التي تهبط بها الصخور، وعلّة معنوية كشف عنها الوحي وهي: الهبوط من خشية الله.

وعلى ضوء ذلك فالحجارة على الرغم من صلابتها تتأثر طبقاً للعوامل السالفة الذكر، وأمّا قلوب بني إسرائيل فهي صلبة لا تنفعل أمام وحيه سبحانه وبيان رسوله، فلا تفزع نفوسهم، ولا تخشع لأمره ونهيه.

ومن عجيب الأمر أن بني إسرائيل رأوا بأبصارهم أعينهم ليونة الحجارة، حيث استسقى موسى لقومه، فأمر بأن يضرب بعصاه الحجر، فلمّا ضربه انفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط.

ثم إنّ ظاهر الآية نسبة الشعور إلى الحجارة، حيث إنّها تهبط من خشية الله، وهذه حقيقة علمية كشف عنها الوحي وإن لم يصل إليها الإنسان بأدواته الحسيّة^(٢)، فقال تعالى:

(١) التبيان: ج ١، ص ٣١١.

(٢) أنظر: الأمثال في القرآن الكريم: ص ٩٧.

﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١).

قال العلامة الطباطبائي رحمته الله: «وبالجملة فقوله: ﴿وَأِنْ مِنْهَا لَمَّا يَحِطُّ﴾ بيان ثانٍ لكون قلوبهم أقسى من الحجارة، فإنَّ الحجارة تحشى الله تعالى، فتبهط من خشيته، وقلوبهم لا تحشى الله تعالى ولا تهابة»^(٢).

وهذا صريح قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٣).

وقال الفخر الرازي: «أي: ومن الحجارة ما ينزل وما ينشق ويترايل بعضه عن بعض عند الزلازل؛ من أجل ما يريد الله بذلك من خشية عباد له، وفزعهم إليه بالدعاء والتوبة»^(٤).

فيكون معنى هذا الأمر: «من الحجارة ما يشقق فيقطر منه الماء، وقلوبكم لا يجيء منها الكثير من الخير ولا القليل، ومن الحجارة إن أقسم عليها باسم الله تهبط، وليس في قلوبكم شيء منه، فقالوا: يا مُحَمَّد: زعمت أنَّ الحجارة ألين من قلوبنا وهذه الجبال بحضرتنا، فاستشهدها على تصديقك فإن نطقت بتصديقك فأنت المحق، فخرجوا إلى أوعر جبل، فقالوا: استشهده. فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله: أسألك بجاه مُحَمَّد وآله الطيبين الذين بذكر أسمائهم خفف الله العرش على كواهل ثمانية من ملائكته بعد أن لم يقدرُوا على تحريكه. فتحرَّك الجبل وفاض الماء، ونادى أشهد أنَّك رسول ربِّ العالمين، وأنَّ هؤلاء اليهود كما وصفت أقسى من الحجارة...»^(٥).

(١) الإسراء: آية ٤٤.

(٢) تفسير الميزان: ج ١، ص ٢٠٣.

(٣) الحشر: آية ٢١.

(٤) تفسير الرازي: ج ٣، ص ١٣١.

(٥) قصص الأنبياء (الراوندي): ص ٢٨٨. الخرائج والجرائح: ج ٢، ص ٥١٩ - ص ٥٢١.

وهناك روايات عديدة يطول المقام بذكرها في حديث الأحجار والأشجار مع رسول الله ﷺ، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ حَجْرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»^(١).

ثم ختمت الآية هذا التشبيه الرائع والتقريع اللاذع بقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فالمعنى: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِالْمُرْصَادِ هَؤُلَاءِ الْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ، وَحَافِظِ لَأَعْمَالِهِمْ مُحْصِي لَهَا، فَهُوَ يُجَازِيهِمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾»، وفي هذا وعيد لهم وتخويف كبير ليتزجروا»^(٢).

«والغفلة عن الشيء تركه على وجه السهو والنسيان، فأخبرهم الله تعالى أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَلَا سَاءَ عَنْهَا»^(٣).

ولذا نجد رسول الله ﷺ كلَّمَا بِالْغِثِ وَالنَّوْثِ إِكْرَامَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ بِالْغَوَا فِي إِذْيَاءِ عَتَرَتِهِ، وَالْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ، وَهَظْمَهُمْ وَسَبَّهُمْ، وَشَتْمَهُمْ، وَقَتْلَهُمْ وَحَبْسَهُمْ وَتَشْرِيدَهُمْ وَنَفْيَهُمْ فِي الْبُلْدَانِ، حَتَّى قَالَ الشَّاعِرُ وَاصِفًا قُلُوبَهُمْ تِلْكَ:

قَسَتْ الْقُلُوبُ فَلَمْ تَمَلْ لِهَدَايَةٍ تَبَا لَهَا تَيْكَ الْقُلُوبُ الْقَاسِيَةُ^(٤)

وبالفعل كانت قلوب القوم في معركة الطف كالحجارة، أو أشد قسوة، لم تنتفع بالمواعظ، بل كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم كلَّمَا وَعَظَهُمُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَحَوَّلَتْ قُلُوبُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(٥)، أي: عليها غشاوة وأغطية لا تفقه ما تقول^(٦).

(١) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٩١، ح ٢٤٧.

(٢) تفسير الرازي: ج ٣، ص ١٣٣. والآية في سورة مريم: آية ٦٤.

(٣) التبيان: ج ١، ص ٣١٢.

(٤) من قصيدة رائعة للشيخ عبد الحسين الأعسم رحمه الله مطلعها:

قد أوهنت جلدي الديار الخالية...

(٥) البقرة: آية ٨٨، النساء: آية ١٥٥.

فالحسين عليه السلام يخطب والأشعث بن قيس يقول: نحن لا ندرى ما تقول، ولكن انزل على حكم بني عمّك؛ فإنّهم لا يرونك إلّا ما تحب.

فقال له الحسين: لا والله لا أعطيكُم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد. ثمّ قال: ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين؛ بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة^(١).

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
والعاقبة للمتّقين.

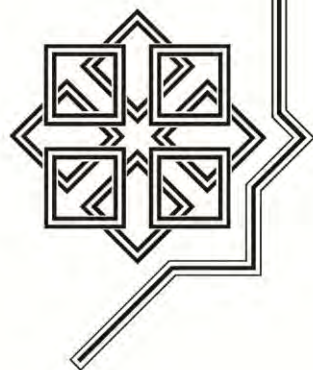
(١) أنظر: التبيان: ج ٣، ص ٣٨٠.

(٢) أنظر: الإرشاد: ج ٢، ص ٩٨. اللهوف: ص ٥٩.

المحاضرة رقم



الدعاء
سبلح المؤمن



مدارسُ آياتِ خلت من تلاوةٍ
لآلِ رسولِ الله بالخيف من منى
ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرِ
ديارُ عفاها جورُ كلِّ منابذٍ
أفاطمُ لو خلتِ الحسينُ مجدلاً
إذن للطمِ الخدَّ فاطمُ عنده
أفاطمُ قومي يا ابنة الخيرِ وانْدُبِي
قبورُ بكوفانٍ وأخرى بطيبةٍ
قبورُ بجنبِ النهرِ من أرضِ كربلا
توفوا عطاشا بالفراتِ فليتني
إلى الله أشكو لوعةً عند ذكرهم
سأبكيهم ما حجَّ الله راكبُ
سأبكيهم ما ذرَّ في الأفقِ شارقُ
ديارُ رسولِ الله أصبحنَ بَلْعاً
وألَّ زيادٍ في القصورِ مصونةً

ومنزلاً وحيٍّ مقفراً العرصاتِ
وبالبيتِ والتعريفِ والجمراتِ
وهمزةً والسَّجادِ ذي الثَّناتِ
ولم تعفُ للأيامِ والسنواتِ
وقد مات عطشاناً بشطِّ فراتِ
وأجريتِ دمعَ العينِ في الوجناتِ
نجومَ سمواتٍ بأرضِ فلاتِ
وأخرى بفتحٍ نالها صلواتي
معرَّسهم منها بشطِّ فراتِ
تُوفيتُ فيهم قبلَ حينٍ وفاتي
سقتني بكأسِ الشَّكلِ والفضعاتِ
وما ناحَ قُمريُّ على الشجراتِ
ونادى منادٍ الخيرِ بالصلواتِ
وألَّ زيادٍ تسكنُ الحُجراتِ
وألَّ رسولِ الله في الفلواتِ^(١)

(١) الأبيات من قصيدة رائعةٍ لشاعر أهل البيت عليه السلام دعبل الخزاعي رحمه الله «هو دعبل بن علي بن زرين بن سليمان الخزاعي، أبو علي الشاعر المشهور، يعود نسبه إلى خزاعة إحدى قبائل اليمن الشهيرة. ولد سنة ١٤٨هـ، أصله من الكوفة، ويقال: إنَّه من قرقيسا وأقام ببغداد، له كتاب طبقات الشعراء وكتاب الواحد في مثالب العرب ومناقبها، وله من الشعر الكثير، حتى نقل عنه أنَّه قال: مكثت نحو ستين سنة ليس من يوم ذرَّ شارقه إلَّا وأنا أقول فيه شعراً... وقد نظم في جميع فنون الشعر لكنَّه ضاع منه الكثير، ومن الأسباب التي أدَّت إلى إتلاف ديوانه أو فقده القهر والظلم اللذين لاحقته

السلطة بهما؛ للقضاء عليه واضطهاده لمهاجمته الخلفاء الحكّام، من أشهر قصائده هذه القصيدة الرائعة التي مدح فيها أهل البيت عليهم السلام، وهي التي تُعرف بالثنائية (مدارس آيات)، ولم يبقَ أديب أو مؤرخ أو شاعر إلاّ وذكر بعضاً من أبياتها، قُتل مسموماً بأيدي الظالمين في الأهواز سنة (٢٤٦)، وقد بلغ من العمر (٩٨) سنة، ودفن فيها».

نقلناه ملخصاً من مقدّمة ديوانه بقلم: ضياء حسين الأعلمي: ص ٥ - ص ٣٠.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١).

لقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان وحثه على العبادة والتفكير، وهو غني عنها، حيث يقول عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣)، وقال جل وعلا: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾^(٤).

ويبين له طرقاً إليه، وسبلاً يسلكها حال الشدة والرخاء، ليس فيها من العناء لا عين ولا أثر، وغايته تبارك وتعالى: أن يشدنا إليه، وأن يجعلنا دائمين الصلة به.

ومن هذه الطرق والسبل الدعاء، وهو: «السؤال الذي أمر الله عباده في كتابه، وأذن لهم ورغبهم إلى أن يدعوه ويسأله، حتى أنه عدّ تركهم له اعتداء منهم إيّاه، وغفلة من حضرة ربوبيته، ووعدهم بالاستجابة وأوعد بالاستكبار عنه»^(٥).

«[و] من عجائب علوم الإسلام وحقائق القرآن المبين أنه سبحانه رخص عباده، بل أمرهم أن يكلموه ويسرّوا إليه أسرارهم، وسرائر قلوبهم. ووعدهم سبحانه أن يجيبهم ويقبلهم، وينظر إليهم نظرة كريمة، يجيب بها دعوتهم، ويكشف بها كربتهم، وأمرهم أن يسأله إجابة دعائهم بكلّ بيان وبكلّ لسان»^(٦).

«والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين، وسائر أهل الملل وغيرهم: أن الدعاء من

(١) البقرة: آية ١٨٦.

(٢) الذاريات: آية ٥٦.

(٣) النحل: آية ٤٤.

(٤) الزمر: آية ٧.

(٥) الذريعة: ج ٨، ص ١٧٢.

(٦) توحيد الإمامية: ص ١٩١.

أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضارّ، وقد أخبر تعالى عن الكفّار أنّهم إذا مسّهم الضرّ في البحر دعوا الله مخلصين له الدين، وأنّ الإنسان إذا مسّه الضرّ دعاه لجنبه، أو قاعدًا أو قائمًا، وإجابة الله لدعاء العبد مسلمًا، كان أو كافرًا، وإعطاؤه سؤاله من جنس رزقه لهم، ونصره لهم، وهو ممّا توجبه الربوبية للعبد مطلقًا^(١).

سبب نزول الآية المباركة

تشكّل أسباب النزول قرينةً على فهم الآية القرآنية، ولو قرينة ناقصة لكشف الستار عن محتوى الآية بشكل أكبر، وفي هذه الآية الشريفة ذكر أكثر المفسّرين في سبب نزولها: أنّ سائلًا سأل النبي ﷺ: أقرب ربّنا فتناجيه، أم بعيد فتناديه؟ فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾^(٢).

وقال المقدّس الأردبيلي رحمه الله: «النداء للبعيد المحتاج إلى رفع الصوت، والمناجاة للقريب الذي لا يحتاج إلى ذلك، والخطاب له ﷺ، والتقدير فقل لهم: إني قريب - وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد، وإطلاعه على أحوالهم - بحال من قرب مكانه منهم، يعني إذا سألك عبادي - وفي هذه الإضافة تشريف لهم - عن كيفية أحوالي من جهة القرب والبعد، فقل: إني عليم أعلم دعاءكم، ولو كان في غاية الخفاء، كما يسمع القريب إذا قرّب فمه إلى أذنه يناجيه، بل أقرب من حبل الوريد، فأقبل دعاء الداعي إذا دعاني»^(٣).

أسلوب الآية وبيانها

للأسلوب القرآني ما يشعر السامع والقارئ رقة الخطاب وشدّته، بحسب اللحن

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٥١٩.

(٢) أنظر: تفسير مجمع البيان: ج ٢، ص ١٨. التبيان: ج ٢، ص ١٢٩. الكشف: ج ١، ص ٣٣٧. جامع

البيان: ج ٢، ص ٢١٥.

(٣) زبدة البيان: ص ١٦٥.

الذي تأتي به الآية الشريفة.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾^(١).

قال عنه إمامنا الصادق عليه السلام: «لَذَّةُ مَا فِي النَّدَاءِ أَزَالَتْ تَعَبَ الْعِبَادَةِ وَالْعَنَاءِ»^(٢).

ولذَّةُ ما في النداء هي قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، إذ هكذا خطاب من الطبيعي أن يُخَفَّفَ آلامَ الصوم وشِدَّتَهُ، وهكذا قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فهكذا أسلوب وبيان يخفّف من شِدَّةِ العناء.

وفي حياتنا اليومية رَقَّةُ الأسلوب وجماليتة لهما الأثر الكبير في مطاوعة الآخرين لك في الرأي، أو في إنجاح الحاجة المقصودة.

وكذلك العكس، فرى القرآن الكريم يستعمل أسلوباً آخر مع الكفّار والمنافقين ويزجرهم أشدَّ الزجر، وأمثلة ذلك في الكتاب العزيز كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٣).

فبالتأمل في هذه الآية نرى أنَّ أسلوبها وبيانها اشتمل على ألفاظ هي بذاتها تحمل ألواناً من الشدَّة مثل: (جاهد، اغلظ، ماواهم جهنم، وبئس المصير).

الخلاصة:

إنَّ الله عزَّ وجلَّ - كما هو مقتضى حكمته تبارك وتعالى - يستعمل اللفظ بحسب المخاطب وشأنه، بل نفس المخاطب قد يخاطبه تارةً بخطاب وأخرى بخطاب آخر، وما هذه الآية الشريفة إلا مثلاً واضحاً على ما ذكرناه؛ لذلك أخذت مأخذاً كبيراً في أبحاث

(١) البقرة: آية ١٨٣.

(٢) فقه القرآن: ج ١، ص ٧٢.

(٣) التوبة: آية ٧١.

علماء التفسير.

قال العلامة الطباطبائي رحمته الله: «أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون، وأرق أسلوب وأجمله، فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبة ونحوها، وفيه دلالة على كمال العناية بالأمر، ثم قوله: عبادي. ولم يقل: الناس وما أشبهه يزيد في هذه العناية، ثم حذف الوساطة في الجواب، حيث قال: فإني قريب، ولم يقل: فقل إنه قريب. ثم التأكيد بـ (إن)، ثم الإتيان بالصفة دون الفعل الدال على القرب؛ ليدل على ثبوت القرب ودوامه، ثم الدلالة على تجدد الإجابة واستمرارها؛ حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما، ثم تقييده الجواب، أعني قوله: أجب دعوة الداع. بقوله: إذا دعان، وهذا القيد لا يزيد على قوله: دعوة الداع المقيد به شيئاً، بل هو عينه، وفيه دلالة على أن دعوة الداع مجابة من غير شرط وقيد، كقوله تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ المؤمن: ٦٠، فهذه سبع نكات في الآية تنبئ بالإهتمام في أمر استجابة الدعاء والعناية بها، مع كون الآية قد كرر فيها - على إيجازها - ضمير المتكلم سبع مرات، وهي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف»^(١).

القرب الإلهي

كيف نتصور قرب الله إلينا وقربنا منه تبارك وتعالى، وهو الذي لا يحده زمان ولا مكان ولا جهة، فهو «الذي لم يسبقه وقت ولم يتقدمه زمان، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، ولم يوصف بأين ولا مكان»^(٢).

لذا أجاب علماءنا الأبرار - قديماً وحديثاً - عن هذا فبيّنوا القرب الإلهي وحقيقته.

قال الشيخ الطوسي رحمته الله: «قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: إني قريب الإجابة: سريع الإجابة، فجاز ذلك لمشاكلة معنى قريب لسريع.

(١) تفسير الميزان: ج ٢، ص ٣٠ - ص ٣١.

(٢) التبيان: ج ٢، ص ١٣.

الثاني: قريب؛ لأنه يسمع دعاءهم كما يسمعه القريب المسافة منهم، فجاز لفظة قريب، فحسن البيان بها. فأما قريب المسافة، فلا يجوز عليه تعالى؛ لأنه من صفات المحدثات^(١).

وقال العلامة الطباطبائي^(٢): «فهو سبحانه الحائل بين الشيء ونفسه، وهو الحائل بين الشيء وبين كل ما يقارنه، من ولد أو زوج أو صديق أو مال أو جاه أو حق، فهو أقرب إلى خلقه من كل شيء مفروض، فهو سبحانه قريب على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرُونَ﴾ الواقعة: ٨٥، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق: ١٦، وقال تعالى: ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الأنفال: ٢٤^(٣).

شروط استجابة الدعاء

لم تتعرض الآية المباركة لأي شرط في استجابة الدعاء سوى لشرط ﴿إِذَا دَعَا﴾، وكما تقدم عن العلامة الطباطبائي أن هذا القيد لا يزيد على قوله دعوة الداع مجابة، بل هو عينه، وقال: «وفيه دلالة على أن دعوة الداع مجابة من غير شرط وقيد». لكن لا ينكر أحد بأن الكثير من أدعيتنا لا تُجاب، والذي يُجاب هو القليل، بل لو انعكس الأمر، وقلنا: إن أكثر أدعيتنا تُجاب وبعضها لا يُجاب لا يضر بأصل الإشكال، وهو أن الآية تقول: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ ونحن ندعو فلا نرى الإجابة ولو في بعض أدعيتنا، وأما الآية الأخرى فهي أصرح، وهي قوله تعالى: ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٤).

وقد طرَحَ هذا الإشكال على الإمام الصادق^(عليه السلام) من قبل بعضهم، قال: «آيتان في

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ١٢٠.

(٢) تفسير الميزان: ج ٢، ص ٣١ - ص ٣٢.

(٣) المؤمن: آية ٦٠.

كتاب الله أطلبهما ولا أجدهما. قال عليه السلام: وما هما؟ قلت: قول الله عز وجل: ﴿ادْعُوهُ﴾ استَجِبْ لَكُمْ ﴿فندعوه فلا نرى إجابة﴾ قال عليه السلام: أفترى الله أخلف وعده؟! قلت: لا، قال: فَلِمَ ذلك؟! قلت: لا أدري، قال عليه السلام: ولكنني أخبرك، مَنْ أطاع الله فيما أمره، ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه. قلت: وما جهة الدعاء؟ قال عليه السلام: تبدأ فتحمد الله، وتذكر نعمه عندك، ثم تشكره، ثم تُصَلِّي على النبي وآله ﷺ، ثم تذكر ذنوبك فتقرّ بها، ثم تستغفر الله منها، فهذه جهة الدعاء...»^(١).

إذن الآية الشريفة مطلقة، ولكن يقيد هذا الإطلاق بيان معنى الدعاء الحقيقي، أو بعبارة أخرى: «إنني أجيب دعوة الداعي إذا دعاني على الوجه الصحيح، وبالشرط الذي يجب أن يقارن الدعاء»^(٢).

وقال الشيخ الطوسي رحمه الله: «فإن قيل: إذا كان لا يجب كل مَنْ دعاه فما معنى الآية؟ قلنا: معناه أن مَنْ دعا على شرائط الحكمة التي قدّمناها واقتضت المصلحة إجابته أجيب لا محالة»^(٣).

وقال الشيخ الكفعمي: «إن قلت: نرى كثيراً من الناس يدعون فلا يجابون فما معنى قوله تعالى ﴿أُجِبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؟ قلت: سبب منع الإجابة الإخلال بشرطها من طرف السائل، بأن يكون قد سأل غير مقيد بآداب الدعاء، ولا جامعاً لشرائطه، وإما بأن يكون قد سأل ما لا صلاح فيه، فربما توهم السائل صلاح أمر وفيه فساد، فلو عجل الله إجابته لهلك به، قال سبحانه ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾»^(٤).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٨٦، ٨. وسائل الشيعة: ج ٧، ص ٨١ - ص ٨٢، ٧.

(٢) أمالي السيد المرتضى: ج ٣، ص ٥٩.

(٣) التبيان: ج ٢، ص ١٢٩.

(٤) المصباح: ص ٧٦٩.

وقد مثل بعض المتأخرين للدعاء الذي يعلم الله عزّ وجلّ أنّه لا مصلحة فيه، بالولد الذي يطلب من أبيه الشراب وهو يتصوّر أنّه نافع، ولكنّه في الواقع سُماً، فإنّ إجابة الوالد للولد تقتله، ومنعه عنه يؤذيه^(١).

ولذا نقرأ في دعاء الافتتاح: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلك بعاقبة الأمور، فلم أر مولئاً أصبر على عبدٍ لئيمٍ منك عليّ يا ربّ»^(٢).

وباختصار: إنّ الذي يدعو من دون إستجماعه للشرائط لايسمى داعياً حقيقةً، بل الداعي الحقيقي الذي يُجاب إذا دعا هو مَنْ كان جامعاً للشرائط، وحينئذٍ لاحتاج إلى تخصيص وتقييد لإطلاق الآية، فالآية تقول: ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وهذا لم يدعو وإنّما كان لاهياً، والله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ لاه^(٣).

إذ هناك شرائط لاستجابة الدعاء يمكن تلخيصها بما يلي:

أولاً: البدء بحمد الله تبارك وتعالى، والثناء عليه، وذكر نعمه عزّ وجلّ علينا، ثمّ نشكره، وقد أشار إمامنا الصادق عليه السلام في الرواية المتقدمة إلى ذلك، وأنّه من جهة الدعاء التي لا بدّ أن نبدأ بها. والملاحظ في أكثر أدعية المعصومين عليه السلام ذلك، ويكفيك أن تراجع بعض أدعية الصحيفة السجادية؛ لتدرك تلك الحقيقة.

ثانياً: الصلّة على النبي وآله عليه السلام، فإنّها من شرائط استجابة الدعاء، كما في الرواية المتقدمة أيضاً، وأنّ الدعاء محجوب حتّى يُصلّى على محمّد وآل محمّد، فعن الإمام

(١) مثل به الشيخ الملكي التبريزي رحمه الله في كتابه القيم (المراقبات): ص ١٨٦، تحت عنوان (سرّ عدم استجابة دعاء الأخيار).

(٢) مصباح المتهجد: ص ٥٦٤.

(٣) ففي الكافي الشريف (ج ٢، ص ٤٧٣، ح ٢): «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): لا يقبل الله عزّ وجلّ دعاء قلب لاهٍ، وكان علي عليه السلام يقول: إذا دعا أحدكم للميت فلا يدعو له وقلبه لاهٍ عنه، ولكن ليجهت له في الدعاء».

الصَّادِق عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ الدُّعَاءُ مُحْجُوبًا عَنِ السَّمَاءِ حَتَّى يَصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ»^(١).
وعنه عليه السلام: قَالَ: «إِيَّاكُمْ إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَسْأَلَ مِنْ رَبِّهِ شَيْئًا مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَبْدَأَ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمَدْحِ لَهُ، وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ
حَوَائِجَهُ»^(٢).

ويكفيك تصديقاً لذلك ما جاء في قصّة حمّاد بن عيسى مع الإمام الكاظم عليه السلام حيث
قال: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام بِالْبَصْرَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ ادْعُ
اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنِي دَاراً وَزَوْجَةً وَوَلِداً وَخَادِماً، وَالْحَجَّ فِي كُلِّ سَنَةٍ. قَالَ: فَرَفَعَ يَدَهُ، ثُمَّ
قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَارْزُقْ حَمَّادَ بْنَ عِيسَى دَاراً وَزَوْجَةً وَوَلِداً وَخَادِماً
وَالْحَجَّ خَمْسِينَ سَنَةً».

«قال حمّاد: فلمّا اشترط خمسين سنة علمت أنّي لا أحجُّ أكثر من خمسين سنة.
قال حمّاد: وقد حججت ثمانية وأربعين سنة، وهذه داري قد رزقتها، وهذه زوجتي
وراء الستر تسمع كلامي، وهذا ابني وهذه^(٣) خادمي، وقد رزقت كلّ ذلك، فحجّ بعد
هذا الكلام حجّتين، فلمّا صار في موضع الإحرام دخل يغتسل، فجاء الوادي فحمّله
فغرق، فمات رحماً لله وإياه قبل أن يحجّ زيادة على الخمسين، وقبره بسيّال»^(٤).
ثالثاً: «أَنْ يَسْعَى الدَّاعِي إِلَى تَطْهِيرِ أَمْوَالِهِ مِنْ كُلِّ غَضَبٍ وَظُلْمٍ، وَأَنْ لَا يَكُونَ
طَعَامُهُ مِنْ حَرَامٍ، فَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ فَلْيُطَبِّطْ مَطْعَمَهُ
وَمَلْبَسَهُ»^(٥).

(١) الدعوات: ص ٣١.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٤٨٤، ح ١.

(٣) كذا في المصدر.

(٤) قرب الإسناد: ص ٣١٠ - ص ٣١١، ح ١٢١٠. عنه بحار الأنوار: ج ٤٨، ص ٤٧ - ص ٤٨، ح ٣٦.

(٥) تفسير الأمل: ج ١، ص ٥٣٣.

فبأكله للطعام الحرام، أو غصبه لأموال الآخرين، أو بإتيانه مطلق الذنب والمعصية، يكون قد عَرَّض نفسه لسخط الله، واستوجب حرمانه، فعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إنَّ العبد يسأل الحاجة من حوائج الدنيا فيكون من شأن الله قضاءها إلى أجل قريب، أو وقتٍ بطيء، فيذنب العبد عند ذلك ذنباً، فيقول الله للملك الموكل بحاجته: لا تنجز حاجته واحرمه إيّاها؛ فإنَّه تعرَّض لسخطي، واستوجب الحرمان مني»^(١).

الرابع: أن يدعو بالمأثور ولا يخترع دعاءً من عند نفسه، فلأسف نرى الكثير من الناس يدعون بأدعيةٍ مخترعةٍ، مع أنَّ أدعية القرآن الكريم والنبِيِّ العظيم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام كثيرة جداً، وفيها أعلى مراتب الأدب، وها هي الصَّحيفة السَّجادية للإمام زين العابدين عليه السلام فيها كلُّ ما يخطر على بال الداعي.

قال السيد علي الخراساني: «أليس من الحرِّيِّ بنا أن نأخذ أصول الدعاء وفروعَه وآدابه وألفاظه من الذي يُجمع المؤرِّخون على أنَّه كان أعبد أهل زمانه، وأشخصهم، ومَن كان له قصب السبق في هذا المضمار، لا يجاريه أحد؟! أليس من الحرِّيِّ بنا أن نأخذَه مَن لم يُنقل عن أحدٍ ما نُقل عنه، من عبادة وزهد حقيقيين...؟! كيف لا، وهو الإمام زين العابدين عليُّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب، الرابع من أئمة أهل البيت عليهم السلام وخلفاء النبيِّ في إمامة المسلمين»^(٢).

وقد نهى الأئمة عليهم السلام أصحابهم أن يخترعوا دعاءً من عند أنفسهم، فعن عبد الرحيم القصير قال: «دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: جُعِلْتُ فداك إنِّي اخترعتُ دعاءً، قال: دعني من اختراعك، إذا نزل بك فافزع إلى رسول الله...»^(٣).

(١) الإختصاص: ص ٣١ - ص ٣٢.

(٢) مقدِّمة الحديقة الهلالية: ص ١٣. ص ١٤ للشيخ البهائي عليه السلام.

(٣) الكافي: ج ٣، ص ٤٧٦، ح ١.

وقد يخطأ المخترع في اختراعه، فيدعو بها لا مصلحة فيه، أو ما فيه المفسدة، كما في حال ذلك الرجل الذي دعا وهو عند الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ، فَقَالَ عليه السلام: أَرَأَيْكَ تَعُوذُ مِنْ مَالِكَ وَوَلَدِكَ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنْتُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلُكُمْ فَتَنَةٌ﴾، وَلَكِنْ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُضَلَّاتِ الْفِتَنِ»^(١).

فعلى المؤمن أن يلجأ إلى أبواب رحمة الله تبارك وتعالى، ويتعلم منهم كيفية الدعاء، ولذا ترى في أكثر الكتب الفقهية - إن لم تكن كلها - تركيز الفقهاء على كلمة (وَأَنْ يَدْعُو بِالْمَأْثُورِ)^(٢)؛ لأجل الخلاص من هذه المحاذير.

الخامس: العمل والسعي مع الدعاء، فلا ينبغي له أن يتوقع الإجابة من دون عملٍ دؤوب، وإن كانت رحمته تبارك وتعالى واسعة، ففي الكافي الشريف روي عن النبي صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَصْنَافاً مِنْ أُمَّتِي لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ دَعَاؤُهُمْ: رَجُلٌ يَدْعُو عَلَى وَالِدَيْهِ، وَرَجُلٌ يَدْعُو عَلَى غَرِيمٍ ذَهَبَ لَهُ بِمَالٍ فَلَمْ يَكْتُبْ عَلَيْهِ وَلَمْ يُشْهَدْ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ يَدْعُو عَلَى امْرَأَتِهِ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَحْلِيَةً سَبِيلَهَا بِيَدِهِ، وَرَجُلٌ يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ وَيَقُولُ: رَبِّ ارْزُقْنِي وَلَا يَخْرُجْ وَلَا يَطْلُبُ الرِّزْقَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: عَبْدِي! أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ السَّبِيلَ إِلَى الطَّلَبِ وَالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ بِجَوَارِحٍ صَحِيحَةٍ، فَتَكُونَ قَدْ أَعْذَرْتَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي الطَّلَبِ لَا تَبَاعَ أَمْرِي؛ وَلَكَيْلَا تَكُونَ كَلًّا عَلَى أَهْلِكَ...»^(٣).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»^(٤).

قال الشيخ محمد عبده: «الرامي من قوس بلا وتر يسقط سهمه ولا يصيب، والذي

(١) وسائل الشيعة: ج ٧، ص ١٣٧، ح ١.

(٢) أنظر: شرائع الإسلام: ج ١، ص ١٧٩. تبصرة المتعلمين: ص ٥٤ وغيرهما.

(٣) الكافي: ج ٥، ص ٦٧.

(٤) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٩، رقم ٣٣٧.

يدعو الله ولا يعمل لا يجيب الله دُعاءه»^(١).

فالوتر بطبيعة حركته يدفع السهم نحو الهدف، وهكذا دور العمل في الدعاء. و«من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أنّ الدعاء لا يُغنينا عن التوسل بالعوامل الطّبيعية، بل أكثر من ذلك يدفعنا إلى توفير شروط استجابة الدعاء في أنفسنا، ويحدث بذلك تغييراً كبيراً في حياة الإنسان وتجديداً لمسيرته، وإصلاحاً لنواقصه. أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامي أنّه مخدّر؟!»^(٢).

وهناك شروط أخرى وأركان مهمّة يطول المقام بذكرها، مثل الكون على الطهارة، واستقبال القبلة، والإلاح، وما شاكل ذلك.

قال الشيخ الكفعمي^(٣): «واعلم أنّ للدعاء أركاناً وأسباباً وأوقاتاً وأجنحةً، فأركانه ستّة: حضور القلب، والرقّة، والإستكانة، والخشوع، وتعلّق القلب بالله وقطعه عن الأسباب، وأسبابه: الصلاة على مُحَمَّدٍ وآله، وأوقاته: الأسحار، وأجنحته: الصدق، فإذا وافق أركانه قوّي، وإن وافق أسبابه أنجح، وإن وافق أوقاته فاز، وإن وافق أجنحته طار»^(٤).

الاستجابة لله والإيمان به عزّ وجلّ

ثمّ تختم الآية الشريفة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ «أي: فليجبوني وليصدّقوا رُسلي»^(٥)، أو «اقبلوا أنتم أيضاً دعوتي إذا دعوتكم وأمرتكم بالطاعات والدعاء، فاطلبوا واسألوا تضرعاً وخفية لا بقلب ساه وغير متوجّه

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٩ الهامش.

(٢) تفسير الأمثل: ج ١، ص ٤٣٥.

(٣) المصباح: ص ٧٧٠.

(٤) أمالي السيّد المرتضى: ج ٣، ص ٦٠.

ومتعقل لمعنى ما تقولون، لا جهراً ورياءً، فإن الله لا يحب المعتدين، واطلبوا ولا تستكبروا ولا تتركوا الدعاء استكباراً وتجبراً، وعدم اعتقاد الإجابة وعدم علمه بالسماح وقدرته على الإجابة، فإن من فعل ذلك يدخل النار مقيماً فيها.. ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أمر بتحصيل الإيمان، أي: التصديق بجميع ما جاء به الأنبياء لمن لا إيمان له، وبالثبات والاستمرار للمتصف به، أو التصديق بأنه قادر على الإجابة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ راجين في ذلك كله الرشد، يعني إصابة الحق والخير^(١).

فكل من استجاب لله في أن يدعو، وآمن به إيماناً حقيقياً، ودعا الله عز وجل بشروط الدعاء أجابه الله تبارك وتعالى، ولو كان في أوساط الغيران والجبال، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثة نفر من بني إسرائيل يسرون إذ أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل، فانطبقت عليهم صخرة فسدت الغار، فقالوا: تعالوا! فليسأل الله عز وجل كل رجل منا بأفضل عمله، فقال أحدهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم جميلة، وكنت أهواها، فدفعت إليها مائة دينار، فلما جلست منها مجلس الرجل من المرأة، قالت: اتق الله يا ابن العم ولا تنقض الخاتم إلا بحق، فقمتم عنها وتركت لها المائة دينار. اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك خشية منك وابتغاء لما عندك فافرج عنا، فانفرج عنهم ثلث الصخرة.

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان، شيخان، كبيران، فكنت أغدو عليهما بصبوحيهما، وأروح عليهما بغبوقهما، فغدوت عليهما يوماً فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أنصرف عنهما فيفقدان غداءهما فوقفت حتى استيقظا، فدفعت إليهما غداءهما. اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء ما عندك، وخشية منك فافرج عنا، فانفرج عنهم الثلث الثاني.

(١) زبدة البيان: ص ١٦٥.

وقال الثالث: اللَّهُمَّ إِن كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا، فَلَمَّا دَفَعْتُ إِلَيْهِ أَجْرَتَهُ، قَالَ: عَمِلِي أَوْفَى مِنْ هَذَا، وَتَرَكِي لِي أَجْرَتَهُ، وَقَالَ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَوْمٌ يُوْخَذُ لِلْمَظْلُومِ فِيهِ مِنَ الظَّالِمِ وَمَضَى، فَابْتَعْتُ لَهُ بِأَجْرَتِهِ غَنًّا، فَلَمْ أَزَلْ أُرْعَاهَا وَنَمْتُ حَتَّى تَزَايَدَتْ وَكَثُرَتْ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الدَّهْرِ أَتَانِي، فَقَالَ: يَا هَذَا إِنَّ لِي عِنْدَكَ أَجْرَةً، عَمِلْتَ لَكَ كَذَا وَكَذَا، فِي وَقْتِ كَذَا وَكَذَا، فَقُلْتُ لَهُ: خذِ الْغَنَمَ فَهِيَ لَكَ، فَقَالَ تَمْنَعُنِي أَجْرَتِي وَتَهْزَأُ بِي؟ فَقُلْتُ: خُذْهَا فَإِنَّهَا لَكَ، فَأَخَذَهَا وَدَعَا لِي. اللَّهُمَّ إِن كُنتَ تَعْلَمُ أَنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ هَذَا خَشْيَةً مِنْكَ، وَابْتِغَاءً لِّمَا عِنْدَكَ، فَافْرَجْ عَنَّا، فَانْفِرْ عَنْهُمْ بَاقِيَ الصَّخْرَةِ وَخَرَجُوا يَتِمَاشُونَ^(١).

فهؤلاء النفر إنما فرّج الله عنهم؛ لأنهم دعوا الله بأوثق الوسائل، وتوسّلوا إليه بأحبّ الأعمال، فاستجاب الله دعاءهم، وكذلك كان أدعية أهل البيت (عليهم السلام) فإنهم يتوسّلون إلى الله بأحبّ خلقه إليه، وكذا من سار على نهجهم وتربّى في كنفهم؛ ولذا توسّلت ليلي أمّ علي الأكبر بأحبّ السبل إلى الله تعالى، دخلت إلى خيمتها، رفعت يديها إلى السماء قائلة: إلهي بغربة أبي عبد الله، إلهي بعطش أبي عبد الله، إلهي بوحدة أبي عبد الله، يا رادّ يوسف إلى يعقوب، اردّد إليّ ولدي عليّ.

ردت الخيمتها الغريّة	تبجي على ابنها ابريّة
وتوسّلت لله بحبيبه	بالحسين وشمايه من مُصيبة
يارادّ يوسف من مغيبه	اليعقوب ومسّجن نحييه

أريدك عليّ سالم تجيبه

فاستجاب الله دعاء ليل لولدها، ونصر عليّاً الأكبر على بكر بن غانم، فقتله واحتزّ رأسه، وجاء إلى أبيه الحسين وهو يقول:

(١) الفرج عند الشدّة: ج ١، ص ٢٨. ص ٢٩.

صيدُ الملوك أرناب وِثعالب وإذا برزتُ فصيدي الأبطالُ

يا أبة هل من جائزة؟ فقال له أبوه الحسين: بُني عليّ، وأيّ جائزة تُريدُ من أبيك؟
فقال: يا أبة، فهل من شربةٍ من ماء سبيل أتقوى بها على الأعداء، فقال له أبو عبد الله عليه السلام:
بُني عليّ، اصبر قليلاً سيسقيك جدُّك المصطفى بكأسه الأوفى شربةً لا تظمأ بعدها أبداً،
فرجع عليّ الأكبر يُقاتل حتى قتل تمام المائتين، إلى أن وقع صريعاً، الله أكبر.

وكأنّي بالخوراء زينب عليها السلام هوت على ذاك الجسد الطاهر تلثمه تقيلاً:

هوت فوگه تشم خدّه وتجبّه أو تطبگ طبرة الراس وتعصبه
او تفتح زيگ ثوبه او تجس گلبه لگت دمّه من افاده يفور^١

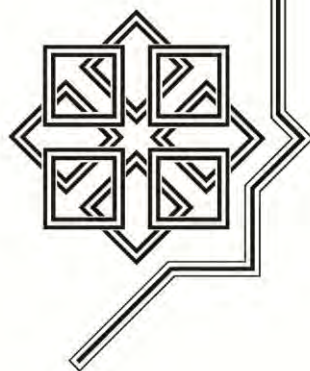
إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون
والعاقبة للمتقين.

(١) أنظر: مجمع مصائب أهل البيت عليه السلام: ج ١، ص ٣٩٠ - ص ٤٢٨.

الحافظة العربية الحاصلة



انصت يا الله



أرى العُمَرَ في صرف الزمان يبيدُ
فكن رجلاً إن تنصَّ أثوابَ عيشه
وإياك أن تشري الحياةَ بذلّةٍ
لِذاك نضى ثوبَ الحياةِ ابنُ فاطمٍ
وليس لديه ناصرٌ غيرَ نيفٍ
سُطت وأنايبُ الرماحِ كأنها
ترى هُماً عندَ القراعِ تباشراً
ومابرحوا عن نُصرةِ الدينِ والهدى
ويذهبُ لكن ما نراه يعودُ
رثاءاً فثوبُ الفخرِ منه جديدُ
هي الموتُ والموتُ المريعُ وجودُ
وخاضَ عُبَابَ الموتِ وهو فريدُ
وسبعينَ ليشاً ما هُناكَ مزيدُ
أجامٌ وهم تحتَ الرّماحِ أسودُ
كأن لهم يومَ الكريهةِ عيدُ
إلى أن تفاني جمعهم وأبيدُ^(١)

وقف عليهم أبو عبد الله الحسين عليه السلام كآني به يخاطبهم:

يشبّان بالله لا توتّون
تهدّون حيلي من تلوجون
مدري يبعد أهلي شتريدون
بونينكم غلبي تغطعون
يا ثمرة فوادي متحجون
بعيونكم لي تديرين

تشعبون غلبي من تلوجون

(١) الأبيات لشاعر أهل البيت السيد سليمان الحلّي، والد الشاعر الكبير السيد حيدر الحلّي رحمهما الله. قال عنه عمر كحالة: «سليمان الحلّي (١٢٢٢ - ١٢٤٧ هـ - ١٨٠٧ - ١٨٢١ م) سليمان بن داود بن سليمان الحسيني الحلّي، (أبو حيدر). أديب، نحوي، شاعر. ولد بالحلة، وتوفي بها سنة ١٢٤٧ هـ تقريباً، ودفن بالنجف. من آثاره: أرجوزة نظم الجمل وشرحها، حاشية على الفاكهي سماها الدرر الحلية في إيضاح غوامض العربية، وله شعر». معجم المؤلفين: ج٤، ص ٢٦٣.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّهِ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(١).

لقد أرسل الله تبارك وتعالى الأنبياء والمرسلين لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ ولذا ترى أن بلاغات الأنبياء والمرسلين وصلت إلى متهى العطف واللين مع أقوامهم، حتى إذا بلغت أرواحهم القدسية أعلى درجات النصرة لله عز وجل، بدأوا يحذرون أقوامهم من العذاب والسخط الذي ينتظرهم إذا ما خالفوا دعواتهم الإلهية، وهداياتهم الربانية، وأمثلة ذلك كثيرة جداً، فقد جاء على لسان نبي الله نوح عليه السلام ما قصه لنا البارئ عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾^(٢)، ثم يدعو نوح عليه السلام على قومه بعد اليأس من هدايتهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دِيَارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصْلُوحُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٣).

ولم يختلف الأمر في بقية الأنبياء والمرسلين عليه السلام؛ لأن المصدر للإرسال واحد، وهو البارئ عز وجل، وأهدافهم واحدة، وأخلاقهم وسجاياهم كذلك، إلا ما اقتضت الظروف من أساليب الهداية والتبشير، وهذا ما يعبر عنه بـ(تنوع الأدوار والهدف الواحد).

وهذا صريح قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٤).

(١) الصف: آية ١٤.

(٢) نوح: آية ٥٥ - آية ٧.

(٣) نوح: آية ٢٦ - آية ٢٧.

(٤) الحديد: آية ٢٥.

ولما نطالع القصص القرآني ونمرّ بحياة نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام نجد هذا الأسلوب غاية في الوضوح، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾^(١).

وبالعودة إلى الآية الشريفة نجد أن الله تبارك وتعالى يطلب من المؤمنين عين ما طلبه نبي الله عيسى عليه السلام لكونه مطلب حق، وكأنها الباري عز وجل أيد هذه الدعوة المباركة التي أطلقها هذا الرسول العظيم، وهي الدعوة لنصرة الله تبارك وتعالى.

ومن هنا ينبغي لنا أن نشير إلى بعض النقاط:

الأولى: «أنه لا ريب في عدم حاجة القادر المتعال إلى نصره أحد، فإنه تعالى بوجوب وجوده غني بالذات، والخلق محتاجون إليه، كما قال تعالى شأنه: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾»^(٢).

فالمراد بنصرته كما ذكره المفسرون ودلت عليه الأخبار هو نصره دينه، ونصرة النبي والأئمة الأطهار، والأولياء الأبرار.

وبعبارة أخرى: كل من يكون في نصرته يكون في رضا الله تعالى، فنصرته نصره الله. وهذا المطلب في غاية الوضوح بمكان، لا يحتاج إلى شاهد وبرهان.

الثانية: أن المراد بنصرته هو الإقدام والمساعدة في كل أمر علم تعلق غرضه بوقوعه، ولهذا تفاوتت كيفية النصرة بحسب تفاوت الأزمان والأحوال والأمكنة»^(٣).

(١) الزخرف: آية ٦٣ - آية ٦٥.

(٢) فاطر: آية ١٥.

(٣) مكيال المكارم: ج ٢، ص ٢٠٦.

الثالثة: لقد جاءت كلمة (أنصار الله) في القرآن الكريم ثلاث مرات؛ اثنان منها في الآية محل البحث، وواحدة في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾^(١).

وورد في موضع آخر بشارة من الله عز وجل لمن يقدم النصر له تبارك وتعالى بنحو الشرط والجزاء، وهو قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاصِلٌ أَعْمَلَهُمْ﴾^(٢).

ولو أردنا أن نجمع بين هذا الموضع والآية محل البحث لكان الكلام بهذا النسق الجميل ﴿.. يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ...﴾ ﴿...إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ...﴾. ولأجل هذا الجزاء المهم لمن ينصر الله عز وجل، كان حرياً بكل إنسان أن يتعرف على المراد بهذه النصر زيادة على ما تقدم إجمالاً.

كيف نكون أنصار الله عز وجل

بعد وضوح ما تقدم في النقطة الأولى، وهي: إن الله تبارك وتعالى غني عن العالمين، وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «.. فلم ينصركم من ذل... استنصركم وله جنود السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.. أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً»^(٣).

إذن ما هذه النصر حتى نحاول أن نتصف بها؛ لنكون ممن يحصل على الجزاء الوافر، وهو نصره الله تبارك وتعالى له؟

هناك عدة آراء للمفسرين، أذكر أهمها:

الرأي الأول: إن الكلام فيه حذف للمضاف، والمضاف المحذوف هو إما أن يكون

(١) آل عمران: آية ٥٢.

(٢) محمد: آية ٧ - آية ٨.

(٣) نهج البلاغة: ج ٢، ص ١١٣.

الدين، أو الرسول، أو الوحي، أو الطريق، أو شيء من هذا القبيل، كما عليه جملة من المفسرين^(١).

ونصرة الدين تكون بإظهار شعائره، ونصرة الرسول بمواساته والصبر على ما أصابه، كما صبر هو إذ كُسرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ، وَجُرِحَ وَجْهُهُ، وَقُتِلَ عَمُّهُ، وَأُوذِيَ بِضُرُوبٍ مِنَ الْأَذَى، فَوَاسَاكُمْ مَعَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، فَافْعَلُوا أَنْتُمْ كَذَلِكَ أَيْضاً^(٢).

ونصرتنا له تبارك وتعالى بنصرة عبادته، والقيام بحفظ حدوده، وإعانة عهوده، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه^(٣).

الرأي الثاني: وهناك مَنْ ذهب إلى أَنَّ المقصود بـ(أنصار الله): أَنَّهُمْ أَعَانُوا اللَّهَ عَلَى هُزْلَاءِ الْكُفَّارِ، أَي: مَعَ مَعُونَةِ اللَّهِ، وَأَنْتَهُمْ جُنْدُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، يَتَوَجَّهُونَ إِلَى نَصْرَةِ اللَّهِ^(٤). وعلى هذا يكون هناك فرق بين قول عيسى ﷺ ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ وقولهم ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾، والفرق هو «أَنَّ ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ نحن الذين ينصرون الله، ومعنى ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ مَنْ الْأَنْصَارِ الَّذِي يَخْتَصُّونَ وَيَكُونُونَ مَعِيَ فِي نَصْرَةِ اللَّهِ»^(٥)، فلذا لاحظنا «أَنَّ الْحَوَارِيْنَ لَمْ يَقُولُوا: نَحْنُ أَنْصَارُكَ، بَلْ لَكِي يُعْرَبُوا عَنْ مَتْنِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَلِيُؤَكِّدُوا إِخْلَاصَهُمْ، وَلَكِي لَا يَشْمُ مِنْ كَلَامِهِمْ أَيُّ رَائِحَةٍ لِلشَّرِكِ قَالُوا: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ نَنْصُرُ دِينَهُ»^(٦).

(١) أنظر: المحرر الوجيز: ج ٥، ص ١١٢. تفسير الرازي: ج ٢٨، ص ٤٨. التفسير الصافي: ج ٦، ص ٤٧٠.

التبيان: ج ٤، ص ٤٥٥. تفسير البغوي: ج ٣، ص ٥١٩، وج ٤، ص ٣٣٨.

(٢) أنظر: تفسير البغوي: ج ٣، ص ٥١٩.

(٣) أنظر: تاج العروس: ج ٧، ص ٥٢٩.

(٤) أنظر: التبيان: ج ٢، ص ٤٧٢ - ص ٤٧٣. الكشف: ج ٤، ص ١٠١.

(٥) الكشف: ج ٤، ص ١٠١.

(٦) تفسير الأمل: ج ٢، ص ٥١٢.

وخلاصة هذين الرأيين هناك مَنْ يُقدَّر حذف مضاف، بحسب ما يستفيدة من القرائن، بأن يكون المضاف المحذوف الدين، أو الرسول (عيسى)، أو السبيل، أو الطريق، أو الوحي، كما ذكرناه في الرأي الأول.

أو لا يكون هناك مضاف محذوف، بل الكلام يكون على ما هو عليه، وأنَّ النصره لله تبارك وتعالى تكون بتحقيق مطلوبه عزَّ وجلَّ، ومطلوبه في هذه الآية مثلاً (قتل الكافرين)، فنصرته بقتلهم، كما يشير إليه ذيل الآية الشريفة: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾، فالنصرة نصره حقيقيَّة «فالشیطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر، وغلبة أهل الإيمان، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله، وإفناء مَنْ اختار الإشرار بجهله، فمَنْ حَقَّقَ نصره الله حيث حَقَّقَ مطلوبه...»^(١).

مَنْ هم الحواريون؟

الحواري أصله من الحور، وهو شدَّة البياض، ولم يستعمل القرآن الكريم هذا اللفظ إلا في خواص عيسى ﷺ من أصحابه^(٢)، وحواري الرجل صفوته وخالصته^(٣)، وقد كان عددهم اثني عشر رجلاً، قيل: «سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم كانوا نوارنيين عليهم أثر العبادة، أو لنقاء قلوبهم كما ينقى الثوب بالتحوير»^(٤).

وقيل: «إنَّهم كانوا قَصَّارين، فمرَّ بهم عيسى ﷺ، وقال: مَنْ أنصاري إلى الله، أي: مع الله، قالوا: نحن أنصار الله. ويُقال: أنَّه مرَّ بهم وهم يغسلون الثياب، فقال لهم: إيش تصنعون؟ قالوا نُظَهِّرُ أنفسنا من هذه الذنوب، فباعوه. ويقال: إنَّهم كانوا صيادين فمرَّ

(١) تفسير الرازي: ج ٢٨، ص ٤٨.

(٢) أنظر: تفسير الميزان: ج ٣، ص ٢٠٣.

(٣) أنظر: الكشف: ج ١، ص ٤٣٢.

(٤) تفسير جوامع الجامع: ج ١، ص ٢٩٠.

بهم وقال: ألا أدلكم على اصطيد أنفع لكم من هذا؟ قالوا: نعم، فقال: تعالوا نصطاد أنفسنا من شرّ إبليس، فبايعوه»^(١).

فكاننا عيسى عليه السلام دعاهم بقوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَحْرٍ مِّنْ نَّجِيٍّ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُحِبُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

ويؤيد أنهم كانوا يغسلون الثياب أن الذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط (هواري)، وهو القصّار، فعربت هذه اللفظة فصارت حوارياً^(٣).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «...إن حوارياً عيسى عليه السلام كانوا شيعته.. وإن شيعتنا حوارينا، وما كان حوارياً عيسى عليه السلام بأطوع له من حوارينا لنا، وإنما قال عيسى عليه السلام للحواريين: من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله، فلا والله، ما نصره من اليهود ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله، لم يزلوا منذ قبض الله عزّ ذكره رسوله ﷺ ينصروننا ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويشرّدون في البلدان جزاهم الله عنّا خيراً»^(٤).

حواريو الإسلام وأنصاره

نستطيع أن نقول إن لكلّ نبيٍّ يوجد خواص ومقرّبون وشيعة، وبالتالي يمكن تسميتهم بحواريه، كما جاء في تصريح الرواية السابقة، وحواريو الإسلام هم أقرب الناس إلى دعوة رسول الله ﷺ وأنصار دينه، فمن دافع عن هذا الدين، وجاهد في سبيل إعلاء كلمته حتّى استشهد دونه، أو بقي مدافعاً عنه إلى أن توفاه الله تبارك فهو من

(١) تفسير السمرقندي: ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) الصف: آية ١٠. آية ١١.

(٣) أنظر: تفسير الرازي: ج ٨، ص ٦٦.

(٤) الكافي: ج ٨، ص ٢٦٨، ح ٣٩٦، عنه بحار الأنوار: ج ١٤، ص ٢٧٤، ح ٧.

أنصاره؛ ولذا جاء في زيارة قبور شهداء معركة أحد: «السَّلامُ عليكم يا أنصارَ الله وأنصارَ رسولِهِ عليه وآله السَّلام»^(١).

وما روي في حقَّ شيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي شيعتك شيعةُ الله، وأنصارُك أنصارُ الله»^(٢).

وأوضح من ذلك كُلُّه أصحابُ الإمام الحسين عليه السلام حيث ورد فيهم في الزيارة الشريفة على لسان الإمام الصادق عليه السلام:

«السَّلامُ عليكم يا أولياءَ الله وأحبائه، السَّلامُ عليكم يا أصفياءَ الله وأودائه، السَّلامُ عليكم يا أنصارَ دينِ الله، السَّلامُ عليكم يا أنصارَ رسولِ الله، السَّلامُ عليكم يا أنصارَ أمير المؤمنين، السَّلامُ عليكم يا أنصارَ فاطمةَ سيِّدةِ نساءِ العالمين، السَّلامُ عليكم يا أنصارَ أبي محمَّدٍ الحسن بن عليٍّ الوليِّ الناصح، السَّلامُ عليكم يا أنصارَ أبي عبد الله»^(٣).

هذه الطائفة هم أنصار الله، وأنصار رسوله، وأنصار أمير المؤمنين، وأنصار الإمام الحسن المجتبي، والحسين شهيد كربلاء، هم حواريو الإسلام وأنعم بهم وأكرم، وهناك حواريو الضلال والكفر والعناد، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة، حيث قسّمت الحوارين إلى طائفتين، حيث يقول عزَّ من قائل: ﴿فَأَمْنَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

وفي تفسير هذه الآية المباركة أنَّ الطائفة التي كفرت هي التي قتلت شبیه عيسى وصلبته، والأخرى هي التي آمنت وقبلت أن يقتل شبیه عيسى بدلاً عن نبي الله عيسى عليه السلام، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهي التي لم تقتل شبیه عيسى على الطائفة الأخرى،

(١) بحار الأنوار: ج ٩٧، ص ٢٢١.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق: ص ٦٧.

(٣) مصباح المتجهّد: ص ٧٢٣. إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٦٥.

﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبِرُوا لَظْهِيرِنَا﴾^(١).

ويقولهم هذا: (نحن أنصار الله) أصابوا الفضل من الله^(٢)، ويكفيك الجزاء الذي ذكره تعالى ﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٣).

وهكذا كان أصحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فطوبى لهم نصرُوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ورحم الله الشاعر حيث يقول:

نصروا ابن بنت نبيهم طوبى لهم نالوا بنصرتيه مراتب سامية
قد جاؤروها هنا بقبورهم وقصورهم يوم الجزاء متحاذية^(٤)

وفي كامل الزيارات:

«خرج أمير المؤمنين عليه السلام يسير بالناس حتى إذا كان في كربلاء على مسيرة ميل أو ميلين تقدّم بين أيديهم، حتى صار بمصارع الشهداء، ثم قال: قبض فيها مائتا نبيٍّ، ومائتا وصيٍّ، ومائتا سبط كلهم شهداء باتباعهم، فطاف بها على بغلته خارجاً رجلاً من الركاب، فانشأ يقول: مناحٍ رُكَّابٍ، ومصارعُ شهداء، لا سبقهم من كان قبلهم، ولا يلحقهم من أتى بعدهم»^(٥).

وهكذا دافعوا بكلّ غالٍ ونفيس عن دينهم، وقرآنهم، وإمامهم:

(١) أنظر: بحار الأنوار: ج ١٤، ص ٣٣٧، ح ٧٠. تفسير القمي: ج ٢، ص ٣٦٦. عنه تفسير نور الثقلين: ج ٥،

ص ٣١٩، ح ٢٨.

(٢) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ج ٢، ص ٦٦.

(٣) محمد: آية ٧.

(٤) شجرة طوبى: ج ٢، ص ٤٢١.

(٥) كامل الزيارات: ص ٤٤٣ - ص ٤٥٤.

كَظُّوا حَگَ العَليهِم دُون الخِيَامِ وَلَا خَلَّوْا خَوَات حَسِين تَنْظَامِ
 لَمَنْ طَاحُوا تَفَاضِ مَنَّهُمُ الهَامِ أَوْ تَهَاوَوْا مِثْلَ مَهْوَى النَجْمِ مِنْ خَرٍّ
 هَوَوْا مَا بَيْنَ مَنْ كَظَعُوا وَرِيدَهُ وَوَكَّعَ رَاسَهُ وَبَيْنَ الطَّاحَتِ أَيْدِهِ
 أَوْ بَيْنَ إِمْسِجٍ إِبْرِمِيهِ شَدِيدِهِ أَوْ بَيْنَ الصَّارِ لِلنَّشَابِ مَكْسَرِ—

يذكر بعضُ الخطباء أنَّه لما جاء حبيب إلى أبي عبد الله عليه السلام كلمته زينب، وقالت له: عمّ يا حبيب، لا تقصّر في نصرة أبي عبد الله الحسين المظلوم الغريب!

قالت له ذلك، ودموعها على خديها، ودموع حبيب على خديها، فلما كان يوم العاشر من محرّم وبدأ القتال وقف أمام خيمتها وهو يقول: آه لوجدك يا زينب، وأنت تُحمّلين على بعير ضالع.

وبرز حبيب للقتال، وكان يقاتل قتال الأبطال، ويضرب في القوم يمينا وشمالا، والحسين ينظر إليه، وبعد برهة من الزمن يرجع حبيب وقد أدار وجهه ولم يرد أن يرى الحسين عليه السلام وجهه، فاستدار الحسين؛ ليرى ما به، فنظر إليه فرأى دموعه تتحادر على خديها، فقال له الحسين عليه السلام: حبيبي يا حبيب، هل ذكرت الأهل والأوطان؟

فقال: لا، يا أبا عبد الله، ولكن أنظر إلى باب الخيمة! فنظر الحسين إلى باب الخيمة، وإذا بها زينب متّشحة بوشاح أمّها فاطمة، فانكسر قلب شيخ الأنصار حبيب، ثم قال للإمام الحسين عليه السلام: سيّدي يا أبا عبد الله، قل لزينب ترجع إلى الخيمة، فقد كسرت قلبي.

جاء الإمام الحسين عليه السلام لأخته زينب، فقال لها: أخي زينب، ارجعي فقد كسرت قلبي حبيب بوقوفك! ارجعي فهو وأصحابه لا يقصّرون.

وبالفعل حتّى الذي يقع فيهم يوصي الآخر بالغريب المظلوم؛ لهذا عندما جاء الإمام الحسين عليه السلام مع حبيب، ووقفوا عند رأس مسلم بن عوسجة، كان مسلم يوصي حبيب بالحسين عليه السلام.

مسلم بالمعارة حارب وطاح
لغو مسلم طعين الموت بيه لاح
اجه حسين وحيب بصحبته راح
وگف يمه حيب يهل العيون

المنية لو وجه منها بعيده
حيب تريدني عندي وصيه
چا وصيتني بكل التريده
شيبيدي حالت علي المنية
أوصيك بغريب الغاضريه
بحسين عنه لا تكصرون

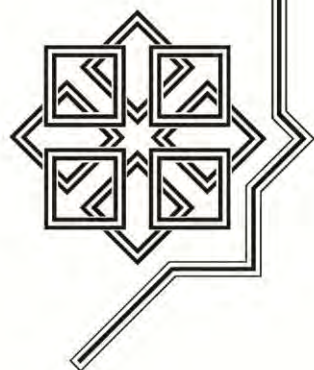
نصروا ابن بنت نبيهم طوبى لهم
نالوا بنصرته مراتب سامية

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أي منقلب ينقلبون
والعاقبة للمتقين.

الحاضرة المعرف الثانية



أحياء الموتي



فِدَاءٌ لِمُثَوَاكَ مِنْ مَضْجَعِ
بِأَعْبَقٍ مِنْ نَفَحَاتِ الْجِنَانِ
وَرَعِيًّا لِيَوْمِكَ يَوْمِ الطُّفُوفِ
وَحُزْنًا عَلَيْكَ بِحَبْسِ النُّفُوسِ
وَصَوْنًا لِمَجْدِكَ مِنْ أَنْ يُذَالَ
فِي أَيِّهَا الْوِثْرِ فِي الْخَالِدِينَ
تَعَالَيْتَ مِنْ مُفْرَعٍ لِلْحُتُوفِ
تَلَوْدُ الدُّهُورِ فَمِنْ سُجْدٍ
شَمَمْتُ ثَرَاكَ فَهَبَّ النِّسِيمُ
وَعَفَّرْتُ خَدَّيْ بَحِثُ اسْتِرَاحِ
وَحَيْثُ سَنَابُكَ خَيْلِ الطُّغَا
وَطُفْتُ بِقَبْرِكَ طُوفَ الْخِيَا
كَأَنَّ يَدًا مِنْ وَرَاءِ الضَّرِيحِ
تَمُدُّ إِلَى عَالَمٍ بِالْخُنُوعِ

تَنَوَّرَ بِالْأَبْلَجِ الْأَرْوَعِ
رَوْحًا وَمِنْ مَسْكِيهَا أَضْوَعِ
وَسَقِيًّا لِأَرْضِكَ مِنْ مَصْرَعِ
عَلَى نَهْجِكَ النَّيِّرِ الْمَهْمَعِ
بِمَا أَنْتَ تَأْبَاهُ مِنْ مُبْدِعِ
فَلَذَا إِلَى الْآنَ لَمْ يُشْفَعِ
فَبُورِكَ قَبْرُكَ مِنْ مَفْرَعِ
عَلَى جَانِبِهِ وَمِنْ رُكْعِ
نَسِيمِ الْكَرَامَةِ مِنْ بَلْقَعِ
خَدُّ تَقَرَّرَى وَلَمْ يَضْرَعْ
عِ جَالَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَخْشَعْ
لِ بَصُومَةِ الْمَلْهَمِ الْمُبْدِعِ
حَمْرَاءَ مَبْتُورَةِ الْإِصْبَعِ
وَالظَّمِيمِ ذِي شَرْقٍ مِثْرَعِ^(١)

(١) الأبيات من قصيدة رائعة للشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري رحمه الله، قال عنه السيد داخل حسن: «ولد الشاعر محمد مهدي الجواهري في حدود سنة ١٩٠٠م (في النجف الأشرف)، وهو ينتمي إلى أسرة علمية عريقة تعرف بأسرة آل صاحب الجواهر، وهو من أبرز شعراء العراق بل العرب المعاصرين قاطبة... له ديوان مطبوع في أربع مجلدات، وقصيدته العينية هذه هي من أروع ما قيل في الإمام الحسين عليه السلام، وقد كُتِبَ منها خمسة عشر بيتاً على الباب الذهبي في مشهد الإمام الحسين عليه السلام، ويقول الأستاذ الباحث محمد سعيد الطريحي في كتابه (أجراس كربلاء): إنَّ الجواهري حدّثه عن اعتزازه الكبير بهذه القصيدة، وقال له: إنها زادي إلى الآخرة. توفي الجواهري في دمشق سنة ١٩٩٩م، ودفن في ضاحية السيدة زينب عليها السلام. أنظر: مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْخَطِيبُ: ج ١، ص ٢٢١.

يَمْ كَبْرُكَ يَوْمَ السَّجَادِ دَوْمِ الدَّوْمِ نَتَمَنِّهِ

نَطُوفُ أَوْ مِنْ نَطُوفِ انْطُوفِ چَنَّهُ اِبْرُوضَةِ الْجَنَّةِ

وَعَنْكَ مِنْ يَبْعَدَنَّهِ الزَّمَانُ انْعِيشْ بِالْوَنِّهِ وَبِالزَّفْرِهِ أَوْ بِالْحَسْرِهِ

أَوْ نَنْدُبُ أُمِّكَ الزَّهْرَةَ نَكْلُهَا اِبْطَلَعِجْ أَوْ كَسْرِهِ نَقْسَمُ عَلَى الْبَارِي كُونَ

نُوصِلُ كَبْرَ أَبُو الْيَمِّهِ

كَبْرُكَ كَعْبَةِ الْوَفَادِيهِ اِمْرَادْنِهِ يَحْصِلُ

نِشْمُ طِيبِ التَّرَابِ الِّيْ اَعْلَى كَبْرُكَ كَبَلٍ لَا نُوصِلُ

وَمِنْ نُوصِلُ نَكُولُ اَشْلُونُ جِسْمِ ابْنِ النَّبِيِّ اَتَفْصَلُ

بَسْمِ يَوْفِ اَوْ سَمِ رَوْبِ زَانِ

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمْتُ تُوْمِنُ ۚ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ ۚ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾^(١).

ليس من المعيب أن الإنسان يسأل حتى يعلم، أو يسأل حتى يتيقن، وإنما المعيب أن يبقى على جهله وشكّه، فلا يرفعهما بالسؤال.

والحال أن رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام أمرونا بالسؤال، فعن إمامنا الصادق عليه السلام أنه قال: «العلم خزائن والمفاتيح السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر

(١) البقرة: آية ٢٦٠.

أربعة: السائل، والمتكلم، والمستمع، والمحِبُّ لهم^(١).

وقد يسأل السائل ويرتفع جهله وشكّه بمجرد الجواب، وقد يُنظر له، وقد تصل الحالة إلى المعاناة والمُشاهدة، فيرتفع عنه كُلُّ جهلٍ وشكٍّ بجميع مراتبه؛ لأنّه يرى ما سأل عنه يتحقّق أمام عينيه، أو يحال على مسألة تشبه ما سأل عنها، وهي عنده من اليقينيّات، فتورثه اليقين أيضاً.

وعلى أساس وراثته اليقين الذي لا يتطرّق إليه أيُّ احتمالٍ آخر، ولأجل معرفة الحقيقة جاء سؤال الخليل عليه السلام لربّه تبارك وتعالى، وطلب منه المُشاهدة لعملية إحياء الموتى، إذ قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

السؤال طلباً لليقين

تقدّم قريباً أنّ سؤال إبراهيم الخليل عليه السلام لربّه عزّ وجلّ لم يكن ناشئاً من عدم إيمان الخليل، فإحياء الموتى إنّما كان لطلب اليقين، وكان هناك مبررٌ لهذا السؤال.

ففي الكافي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث قال: «...ثمّ التفت إبراهيم عليه السلام فرأى جيفةً على ساحل البحر، نصفها في الماء ونصفها في البر، تجمي سباع البحر فتأكل ما في الماء ثم ترجع، فيشدد بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً، فعند ذلك تعجّب إبراهيم عليه السلام ممّا رأى وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قال: كيف تخرج ما تناسل، التي أكل بعضها بعضاً؟ قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ قال: ﴿قَبْلَى وَلَكِنْ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾، يعني حتّى أرى هذا كما رأيت الأشياء كلّها، قال: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فقطعهنّ واخلطهنّ كما اختلطت هذه الجيفة في السباع التي أكل بعضها بعضاً، فخلط ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ

(١) روضة الواعضين: ص ٧، ورواه في المجازات النبويّة: ص ٢٠٩، عن الرسول الأكرم ﷺ.

سَعِيًّا ﴿﴾، فَلَمَّا دَعَاهُنْ أَجْبَنَهُ، وَكَانَتْ الْجِبَالُ عَشْرَةً^(١).

و ذكرت بعض المصادر سبباً آخر لهذا السؤال، وهو أنّه لما حاجَّ نمرود في ربّهِ، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، قال نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وموّه على الأغبياء، ودلّس على الضعفاء بإطلاق مَنْ أراد قتله من السجن، وقتل مَنْ برئ من عرضِ الناس، فلَمَّا بهت لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، طالبه نمرود بإحياء الموتى، فأخذ أربعة من الطير^(٢).

وما سأل عنه إبراهيم عليه السلام بقي شبهة في أذهان الكثير من المعاندين، وإلى زماننا، وفي زمان الأئمة عليهم السلام أخذ الكثير من الزنادقة يصرخون بها في أزقة المدن، وهي ما يعبر عنه بشبهة (الآكل والمأكول).

و خلاصتها: أنّ الإنسان يعود يوم القيامة بهذا الجسد المادي، وتعود روحه أيضاً، فإذا استحال جسد الإنسان إلى تراب وامتصّته جذور الأشجار والنباتات، وأصبح ثمراً أكله إنسان آخر، وغدا جزءاً من جسده، أو أنّ إنساناً أكل لحم إنسان آخر، فإلى أيّ جسد ستعود هذه الأجزاء المأكولة؟!^(٣).

والجواب: «إنّ الروح لا تستطيع أن تتفاعل تفاعلاً كاملاً إلاّ مع الجسد الذي تربّت وتكاملت معه، لذلك ففي البعث لا بدّ من حضور الجسد السابق نفسه، لكي تستطيع الروح الاندماج به، وتستأنف نشاطها في عالم أسمى، ولتجني ثمار أعمالها»^(٤).

وفي زمان الإمام الصادق عليه السلام روى هشام بن الحكم أنّه قال الزنديق للإمام

(١) الكافي: ج ٨، ص ٣٠٥، ح ٤٧٣.

(٢) الثاقب في المناقب: ص ١٣٧.

(٣) أنظر: تفسير الأمثل: ج ٢، ص ٢٨٦.

(٤) تفسير الأمثل: ج ٢، ص ٢٨٨.

الصَّادِق عليه السلام: «أتى للروح بالبعث؟! والبدن قد بلى، والأعضاء قد تفرّقت، فعضو في بلدةٍ تأكلها سباعُها، وعضو بأخرى تمرّقه هوامُّها، وعضو قد صار تُراباً بني مع الطين حائط! قال: إنّ الذي أنشأه من غير شيءٍ، وصوّره على خير مثالٍ كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدّاه. قال أوضح لي ذلك. فأوضح له»^(١).

والخلاصة: إنّ سؤال إبراهيم عليه السلام ربّه أن يريه إحياء الموتى إنّما كان لأجل اليقين ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظْمِنُ قُلُوبُهُ﴾.

هل الواقعة على نحو الحقيقة أو المثال؟

ثمّ إنّ قد وقع الخلاف بين المفسّرين في أنّ الأمر بالذبح هل كان على نحو الحقيقة أو مجرد مثال قريب به للخليل إبراهيم عليه السلام؟ المشهور بين المفسّرين وما دلّت عليه الروايات والنقول التاريخية هو: أنّ هذه الحادثة كانت على نحو الحقيقة، وأنها وقعت أمام عيني خليل الله إبراهيم عليه السلام.

ولكن البعض من المفسّرين ذهب إلى الرأي الآخر، وأنّه ليس في هذه الآية ما يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام ذبح الطيور، وبعد ذلك عادت إلى الحياة من جديد بأمر الله تعالى، بل أنّ الآية في صدد بيان مثال لتوضيح مسألة المعاد، يعني أنّك يا إبراهيم خذ أربعة من الطير، فضّمّها إليك حتى تستأنس بك بحيث تحجب دعوتك إذا دعوتها، فإنّ الطيور من أشدّ الحيوانات استعداداً لذلك، ثمّ اجعل كلّ واحدةٍ منهنّ على جبل، ثمّ أدعها، فإنّها تُسرّع إليك، وهذه المسألة اليسيرة بالنسبة لك تماثل في سهولتها ويسرها مسألة إحياء الأموات، وجمع أجزائها المتناثرة بالنسبة إلى الله تعالى.

فعلى هذا يكون أمر الله تعالى لإبراهيم عليه السلام في الطيور الأربعة لا يعني أن يقدم إبراهيم

(١) أنظر: الاحتجاج: ج ٢، ص ٩٧.

على هذا العمل حتماً، بل إنه مجرد بيان مثالٍ وتشبيه، كأن يقول شخص لآخر - لبيان سهولة الأمر عليه -: اشرب هذا القدح من الماء حتى أنهي هذا العمل، ويريد بذلك بيان سهولته، لا أن الآخر يجب عليه أن يشرب الماء.

واستدل أنصار النظرية الثانية بكلمة ﴿فَصُرُّهُنَّ إِلَيْكَ﴾، وقالوا: إن هذه الجملة إذا كانت متعدية بحرف (إلى) فتكون بمعنى الأنس والميل، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة: (خذ هذه الطيور وأنسهي بك) مضافاً إلى أن الضمائر في (صُرُّهُنَّ) و (منهنَّ) و (ادعُهنَّ) كُلُّها تعود إلى الطيور، وهذا لا يكون سليماً إلا إذا أخذنا بهذه النظرية؛ لأنَّه على التفسير المشهور تعود بعض الضمائر على نفس الطيور، ويعود البعض الآخر منها على أجزاء الطيور، وهذا غير مستساغ في الإستعمال.

الجواب عن هذه النظرية:

أولاً: إن إبراهيم عليه السلام طلب من الله تعالى المشاهدة الحسية للمعاد والبعث؛ لكي يطمئن قلبه، ولا شك أن ضربَ المثل والتشبيه وتقريب الصورة لا يجسّد مشهداً، ولا يكون مدعاة لتطمين خاطر، فنبئ الله مؤمن بالمعاد عقلاً ومنطقاً، ولكنه كان يريد أن يُدرِك ذلك عن طريق الحس أيضاً.

وثانياً: لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السلام نموذجاً من البعث وعودة الأموات إلى الحياة بعد أن تلاشت أجسادها، وهذا لا يتناسب مع تفسير كلمة (صرهن) بـ (أنسهن) أو (صح بهن) وذلك لقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً﴾ فهذا التعبير قرينة قوية على الرأي المشهور في وقوع الحادثة على نحو الحقيقة لا المثال والتقريب؛ لأنَّ هذا أوضح لإبراهيم عليه السلام أن المعاد يوم القيامة سيكون كذلك على شكلٍ واسع ومقياسٍ كبيرٍ جداً^(١).

(١) أنظر: تفسير الأمل: ج ٢، ص ٢٨١. ونسبه إلى صاحب تفسير المنار، ونقل عن الرازي أنه قديماً اختاره أبو مسلم.

الطيور الأربعة

لقد اختلفت بعض الروايات في مصاديق الطيور الأربعة ما هي؟ ففي بعض الروايات المروية عن إمامنا الرضا عليه السلام أنها كانت «نسراً وطاووساً وبطاً وديكاً»^(١).

وبعض التفاسير ذكرت كانت «طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة»^(٢).

وفي رواية الخصال عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنها كانت: «هدهداً وصرداً وطاووساً وغراباً»^(٣). ولعلَّ غيرها ذكر غير ذلك، والملاحظ في هذه التفاسير الثلاثة للطيور أنَّ الطاووس كان عنصراً مشتركاً.

فقد تكرر في جميعها، والطاووس عندهم له تفسيره الخاص، فهو علامة الزينة والخيلاء والتكبر والفخر بالنفس والغرور بها، حتَّى أنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أشار إلى ذلك في خطبة له في وصفه جاء فيها: «... ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل، ونضد ألوانه في أحسن تنضيد، بجناحٍ أشرج قصبه، وذنب أطلال مسحبه. إذا درج إلى الأثنى نشره من طيه، وسما به مطلاً على رأسه كأنه قلع داري عنجه نؤتيه. يختال بألوانه، ويميس بزيفانه. يفضي كإفضاء الديكة، ويؤر بملاقحة أرَّ الفحول المغتلمة في الضراب... يمشي مشي المرح المختال، ويتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكاً؛ لجمال سرباله وأصابع وشاحه، فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا معولاً بصوت يكاد يبين عن استغاثته، ويشهد بصادق توجَّعه؛ لأنَّ قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية»^(٤).

وقال المازندراني رحمته الله: «فإنَّ قتل الطاووس إيذاءً إلى ترك الزينة، وقتل الديك: إلى ترك

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢، ص ١٧٦. التوحيد للشيخ الصدوق: ص ١٣٢، ح ١٤.

(٢) تفسير جوامع الجامع: ج ١، ص ٢٤٠. ص ٢٤١.

(٣) الخصال: ص ٢٦٤. ص ٢٦٥، ح ١٤٦.

(٤) نهج البلاغة: ج ٢، ص ٧١ - ص ٧٣. والديك الخلاسي: هو المتولد بين دجاجتين هندية وفارسية.

أنظر: القاموس المحيط: ج ٢، ص ٢١١، تاج العروس: ج ٨، ص ٢٦٢.

الصولة والشهوة، وقتل الغراب: إلى ترك الحسنة وبعد الأمل، وقتل الحمامة: إلى ترك الترفع والمسارعة إلى الهوى، فإنَّ مَنْ أَمَاتَ هذه الصفات عن نفسه فقد أحيّاها بحياة طيبة أبدية^(١).

وكيف كان، فالطيور الأربعة مختلفة، والاختلاف بينها كبير، وجواب ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾، جواب عَمَّا سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ومن المعلوم وجوب مطابقة الجواب للسؤال، فبلاغة الكلام وحكمة المتكلم يمنعان عن اشتغال الكلام على ما هو لغو زائد لا يترتب على وجوده فائدة عائدة إلى الغرض المقصود من الكلام، وخاصّة القرآن الذي هو خير كلام، ألقاه خير متكلّم إلى خير سامع وإع، وليست القصّة على تلك البساطة التي تتراءى منها في بادي النظر، ولو كان كذلك لتمّ الجواب بإحياء ميّت ما كيف كان، ولكان الزائد على ذلك لغواً مستغنى عنه، وليس كذلك، ولقد أخذ فيها قيوداً وخصوصيات زائدة على أصل المعنى، فاعتبر في ما أريد إحيائه أن يكون طيراً، وأن يكون حيّاً، وأن يكون ذا عدد أربعة، وأن يقتل ويخلط ويُمزج أجزائها، وأن يُفرّق الأجزاء المختلطة أبعاضاً، ثم يوضع كلّ بعضٍ في مكانٍ بعيد من الآخر، كقُلة هذا الجبل وذاك الجبل، وأن يكون الإحياء بيد إِبْرَاهِيمَ ﷺ نفس السائل بدعوته إياهنّ، وأن يجتمع الجميع عنده. فهذه كما ترى خصوصيات زائدة في القصّة، هي لا محالة دخيلة في المعنى المقصود إفادته.

وبالجملة فأجابه الله تعالى بأن أمره بأن يأخذ أربعةً من الطير، ولعلّ اختيار الطير لكون هذا العمل فيها أسهل وأقلّ زماناً، فيشاهد حياتها ويرى اختلاف أشخاصها وصورها، ويعرفها معرفةً تامّةً، ثم يقتلها ويخلط أجزائها خلطاً دقيقاً، ثم يجعل ذلك أبعاضاً، وكلّ بعضٍ منها على جبل؛ لتفقد التميّز والتشخّص، وتزول المعرفة، ثم يدعوهم

(١) شرح أصول الكافي: ج ١٢، ص ٤٢٨.

يأتيه سعيًا... ﴿فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ إنما أمر بذلك ليعرفها فلا يشك فيها عند إعادته الحياة إليها، ولا ينكرها، وليرى ما هي عليه من الاختلاف والتميز أولاً وزوالها ثانياً^(١).

ظهور الإعجاز وتجليه لإبراهيم عليه السلام

لا يشك أحد بأن إحياء الميت بعد تقطيعه وخلطه وتقسيمه أمرٌ خارق للعادة ومعجز لا غبار عليه، فكيف تجمعت هذه الأوصال المقطّعة والدماء الممزوجة من الجبال، وتطايرت تلك الأجزاء بعضها إلى بعض حتى استوت الأبدان، وجاء كلُّ بدنٍ حتى انضم إلى رقبته ورأسه التي كانت بين أصابع خليل الله إبراهيم عليه السلام فخلّى إبراهيم عن مناقيرهنَّ فطرنَ، ثم وقفن فشربن من ذلك الماء والتقطن من ذلك الحب، وقلن يا نبيَّ الله أحييتنا أحياءك الله، فقال إبراهيم عليه السلام: بل الله يحيي ويميت وهو على كلِّ شيءٍ قدير، كما جاء ذلك في سؤال المأمون لإمامنا الرضا عليه السلام وجوابه عن هذه الحادثة^(٢).

والملفت للنظر أنّ الآية عبّرت بـ ﴿أَدْعُهُنَّ﴾، أي: ادع الطيور، يا طاووس، ويا فلان، ويا فلان، ويمكن أن يُستفاد ذلك - مضافاً إلى دلالة ضمير (هن) الراجعة إلى الطيور - من قوله: ﴿أَدْعُهُنَّ﴾، فإنَّ الدعوة لو كانت لأجزاء الطيور دون أنفسها كان الأنسب أن يقال: (ثم نادهن)؛ فإنّها كانت على جبالٍ بعيدة عن موقفه عليه السلام، واللفظ المستعمل في البعيد خاصّة هو النداء دون الدعاء، وقوله: ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا﴾، أي يتجسّدن واتصفن بالإتيان والإسراع إليك^(٣).

«فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا﴾، وهل أمره بدعائهن وهنَّ أحياء أو أموات؟ وعلى كل حال فدعاؤهن قبيح؛ لأن أمر البهائم التي لا تعقل ولا

(١) أنظر: تفسير الميزان: ج ٢، ص ٣٧٤ - ص ٣٧٧.

(٢) أنظر: التوحيد، الشيخ الصدوق: ص ١٣٢، ح ١٤.

(٣) أنظر: تفسير الميزان: ج ٢، ص ٣٧٧.

تفهم قبيح. وكذلك أمرهن وهنّ أعضاء متفرقة أظهر في القبح.
قلنا: لم يرد ذلك إلّا حال الحياة دون التفرّق والتمزق، فأراد بالدعاء الإشارة إلى تلك الطيور، فإنّ الإنسان قد يشير إلى البهيمة بالمجيء، أو الذهاب فتفهم عنه، ويجوز أن يسمى ذلك دعاء، إمّا على الحقيقة، أو على المجاز...»^(١).

استفادة فقهية

لقد استفيد من هذه الآية فائدة فقهية مهمّة، وهي ما لو نذر الإنسان أن يتصدّق بجزء من ماله مثلاً إذا تحقق له الأمر الكذائي، فكم يجب عليه أن يتصدّق؟
عُرِضَت هذه المسألة على إمامنا الصادق عليه السلام: «ف قيل له: إنّ رجلاً مات وأوصى إليه بمائة ألف درهم، وأمره أن يُعطي أبا حنيفة منها جزءاً، فسأل عنها جعفر بن محمد عليه السلام وأبو حنيفة حاضر، فقال له جعفر بن محمد عليه السلام: ما تقول يا أبا حنيفة؟ فقال: الربع، فقال لابن أبي ليلى، فقال: الربع، فقال جعفر بن محمد عليه السلام: ومن أين قلت الربع؟ قالوا: لقول الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، فقال أبو عبد الله عليه السلام: هذا قد علمت الطير أربعة، فكم كانت الجبال، إنّما الأجزاء للجبال، ليس للطير. فقالوا: ظننا أنّها أربعة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ولكن الجبال عشرة»^(٢).
وقوى صاحب الجواهر رحمه الله العمل بهذا المضمون في الوصية المبهمة في شرحه على الشرائع^(٣)، والمسألة مبسوطة مفصلاً في محلها^(٤).

(١) تنزيه الأنبياء: ص ٥٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٩، ص ٣٨٣، ح ٨.

(٣) أنظر: جواهر الكلام: ج ٢٨، ص ٣١٩.

(٤) أنظر: الحقائق الناضرة: ج ٢٢، ص ٤٥ وما بعدها.

الولاية التكوينية عند أهل البيت عليهم السلام

تقدّم آنفاً أنّ ما حصل من مجيء الطيور الأربعة المقطّعة تسعى مسرعة في طيرانها أو مشيها من ضروب الولاية التكوينية، والذي هو عبارة عن التصرف في الخلق والتكوين، وإحداث ما يُعتبر خارقاً مثل إحياء الميت وإبراء المريض ^(١).

ومثل هذا الذي قام به إبراهيم الخليل عليه السلام بعينه قام به الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام، ففي الثاقب في المناقب، عن يونس بن ظبيان، قال: «كنا عند أبي عبد الله عليه السلام أنا والمفضل بن عمر، وأبو سلمة السّراج، والحسن بن ثوير بن أبي فاختة، فسألنا أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ - إلى قوله - فَخَذَّ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرَهُنَّ إِلَيْكَ ^(٢)، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أتريدون أن أريكم ما أرى إبراهيم عليه السلام؟ قلنا: نعم. فقال: يا طاووس يا باز، يا غراب، يا ديك. فإذا نحن بطاووس وباز وغراب وديك، فقطّعهنّ، وفرّق لحمهنّ على الجبال، ثمّ دعاهنّ فإذا العظام تتطاير بعضها إلى بعض، واللحم إلى اللحم، والعصب إلى العصب، حتى عادت كما كانت بإذن الله تعالى.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: قد أريتمكم ما أرى إبراهيم قومه، وقد أُعطينا من الكرامة ما أُعطي إبراهيم عليه السلام، وهذه كما علمت شاكلة لتلك، ومعادلة لها ^(٣).

ختام الآية

ثمّ قالت الآية: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز لا يفقد شيئاً بزواله عنه، حكيم لا يفعل شيئاً إلاّ من طريقه اللائق به، فيوجد الأجساد بإحضار الأرواح، وإيجادها دون العكس ^(٤).

(١) أنظر: تفسير الأمثل: ج ٢، ص ٥٠٧.

(٢) الثاقب في المناقب: ص ١٣٩، ح ٣. مدينة المعاجز: ج ٥، ص ٣٩٥، ح ١٦٦.

(٣) تفسير الميزان: ج ٢، ص ٣٧٧.

وأهل البيت عليهم السلام حكمتهم من حكمة خالقهم جلّ وعلا فيفعلون ما فيه الصلاح ويتركون ما كان الصلاح في تركه أيضاً؛ ولذا صار أوباش الناس يحسدونهم؛ لأنّهم لم يحصلوا على عشرة في حياتهم، ولا زلة في أفعالهم.

ورحّم الله الشيخ علي الشفهيّني حيث يقول في قصيدته اللامية الرائعة خطاباً بها أمير المؤمنين عليه السلام:

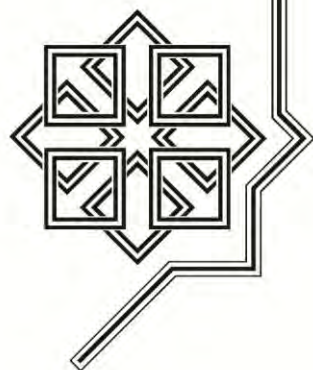
إن يحسدوك على عَلاك فلإنّما متسافل الدرجات يحسد من علا
إحياؤك الموتى ونطقك مخبراً بالغائبات عذرتُ فيك لمن غلا
وبردك الشمس المنيرة بعدما أفلت وقد شهدت برجعتهما الملا^(١)

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُنقلبٍ ينقلبون
والعاقبة للمتقين.

الحاضرة العربية الشامية



مَقُومَاتُ
الزَّعَامَةِ الْهَيْتِ



أَوْ أَنَّ دَاعِيَةَ الْأَسَى تَجْفُونِي
جَذَوَاتٍ وَجَدٍ مِنْ لَظَى سَجِّينِ
فَتِيَاةُ فَاطِمٍ مِنْ بَنِي يَاسِينَ
مِنْ مَاءِ مِرْصُودِ الْوَشِيحِ مَعِينِ
بَسَدَادٍ جَيْشٍ بَارِزٍ وَكَمِينِ
رُسِمْتُ لَهُ فِي لَوْحِهَا الْمَكْنُونِ
عَمْدُ الْحَدِيدِ فَخْرٌ خَيْرُ طَعِينِ
الْآنَ ظَهَرِي يَا أَخِي وَمُعِينِي
وَسَرِّي قَوْمِي بَلْ أَعَزُّ حُصُونِي
أَسْطُو وَسِيفُ حِمَايَتِي يَمِينِي
شَمْلِي وَفِي ظَنِّكَ الزُّحَامُ يَقِينِي
لِي يَا حِمَايَ إِذْ الْعَدَى نَهْرُونِي
عَمَّا هُيَوْمَ الْأَسْرِ مَنْ يَحْمِينِي^(١)

هِيَهَاتَ أَنْ تَجْفُو السُّهَادَ جُفُونِي
أَتَى وَيَوْمُ الطَّفِّ أَضْرَمَ فِي الْحَشَا
يَوْمٌ أَبُو الْفَضْلِ اسْتَفْزَتْ بِأَسْه
فَأَغَاثَ صَبِيَّتَهُ الضَّمَا بِمَزَادَةٍ
حَتَّى إِذَا قَطَعُوا عَلَيْهِ طَرِيقَهُ
وَدَعَتْهُ أَسْرَارُ الْقَضَا لَشَهَادَةٍ
حَسَمُوا يَدَيْهِ وَهَامَهُ ضَرْبُوهُ فِي
وَمَشَى إِلَيْهِ السَّبْطُ يَنْعَاهُ كَسَرَتْ
عَبَّاسٌ كَبَشَ كَتِيتِي وَكِنَانَتِي
يَا سَاعِدِي فِي كُلِّ مَعْتَرِكٍ بِهِ
لَمَنِ اللَّوَى أُعْطِيَ وَمَنْ هُوَ جَامِعُ
عَبَّاسٌ تَسْمَعُ زِينًا تَدْعُوكَ مَنْ
أَوْ لَسْتَ تَسْمَعُ مَا تَقُولُ سُكِينَةٌ

(مَوْشَح)

وَسَالِ دَمْعَ أَحْسَنِ يَشْبَهُ لِلْمَطَرِ
يَا بَدْرَنِهِ أَشْلُونِ غَطَّاكَ الْخُسُوفِ
يَا صَوَاجِعَ مَنْ سَمَهُ وَذَبَهَا الرِّعِيدِ
أَوْ جَمَّعْتَ كُوفَانَهَا وَصَارَتْ أُلُوفِ
هَذَا أَمْرُ اللَّهِ أَنْكَتَبَ مَا يَنْمُحِي

اجفوفه مگطوعات والراس انفطر
اوصاح يا خويه الظهر مني انكسر-
غبت عنّي وأنت لي سور حديد
اشلون اظل عجبك ييو فاضل وحيد
گله خلیني ابمجانني وانتحي

(١) القصيدة للشيخ حسين قفطان^(١)، وقد تقدمت ترجمته في المحاضرة الرابعة عشرة.

ولسان حال زينب عليها السلام:

المصايب من عكب عينك لوئي أَوْنٌ وَنَّتِ الْوَادِمَ لَوْنِي
أنا زينب يوفاضل لوئي عميت أو لا أرى شخصك رميه

ألف وسفه على العباس ينصاب أو مخ راسه على الجتفين ينصاب
الماتم دوم إله ولحسين يناسب لمن تظهر رواية الهاشمية

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ...﴾^(١).

الكثير من الناس يحكمون على الظواهر، ويتعاملون على طبق موازين قد يكون لا أساس لأكثرها، فقد يجعلون ما ليس بعلة علة، وما هو علة نتيجة، وهكذا، بل نرى للواحد منهم أكثر من قاعدة وضابطة في موضوع واحد، وبالحقيقة هكذا واقع معناه إلغاء القواعد والضوابط من الأساس، ولكن من دون أي إحساس.

وما هذه الآية المباركة إلا تعبير واضح عن هكذا مجتمعات، فهي جاءت لتبين لنا الضابطة في الاختيار الإلهي، والزعامة الإلهية، وتردّ على القواعد والضوابط عند أكثر الناس الذين لا يتحلّون بالعقل المفكر الواع.

(١) البقرة: آية ٢٤٧.

نهضة الأمم بامتثال أوامر أنبيائها ﷺ

لقد مرّ زمان على بني إسرائيل لم يتركوا نبياً من الأنبياء، ولا رسولاً من الرسل إلاّ وحاربوه وكذبوه، بل قتلوه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾^(١).

ومضت عليهم السنون، وهم على هذا التكذيب والقتل؛ لأنّه لم يأتِ نبيٌّ بما تهوى أنفسهم الشريرة، فأصابهم الذلّ والخزي والعار، حتّى صاروا أذلةً خاسئين على أيدي الفراعنة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(٢).

فمرّوا بحالة الذلّ والاستعباد، والقتل والتشريد والتنكيل من قبل الفراعنة، ثمّ أنجاهم الله تبارك وتعالى عن طريق نبيّ الله موسى بن عمران ﷺ كما قالت الآية أعلاه، وظلّت فيهم هذه الروحية - روحية النصر - بعد رحيل موسى ﷺ مدّة من الزمن، إلاّ أنّهم أصبحوا مغرورين بذلك، وأخذوا يُخالفون القوانين إلى أن ضعفوا شيئاً فشيئاً حتّى لم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، حتّى أمام أتفه أعدائهم، فاستمرّت حالهم على هذا سنوات طويلاً، إلى أن أرسل الله إليهم نبياً اسمه (شموئيل) أو (يوشع) أو (شمعون) على إختلاف الأقوال في اسمه الشريف؛ لإنقاذهم وهدايتهم فتجمّع حوله اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم، وكانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم قائداً وأميراً؛ لكي يتوحّدوا تحت لوائه ويحاربوا متّحدين يداً ورأياً؛ لاستعادة عزّتهم الضائعة، مع أن نبي الله كان يخشى الخذلان منهم، ولكنهم باصرارهم جعلوه يقبل

(١) المائدة: آية ٧٠.

(٢) الأعراف: آية ١٤١.

عرضهم عليه وكأنتهم شَخَّصُوا دَائِهِمْ وَاتَّجَهُوا لِمُعَالَجَتِهِ^(١).

مع أَنَّ الله عزَّ وجلَّ - كما تقدَّم - أنعم عليهم نعماً كثيرة، ومنها التابوت الذي أنزله الله على موسى ﷺ، فوضعت أُمُّهُ فِيهِ وَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، فكان عند بني إسرائيل يتبرَّكون به، فلما حضرت موسى ﷺ الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آيات النبوة، وأودعه يوشع وصيه، فلم يزل التابوت بينهم حتَّى استخفُّوا به، وكان الصَّبيان يلعبون به في الطرقات، فلم يزل بنو إسرائيل في عزَّةٍ وشرفٍ ما دام التابوت عندهم، فلما عملوا بالمعاصي واستخفُّوا بالتابوت رفعه الله عنهم^(٢).

إذن ذلهم وخذلانهم وخسرانهم إنَّما كان بمخالفة أمر أنبيائهم ﷺ بعد أن كان العزَّ بين أيديهم ارتفع عنهم بذنوبهم واستخفافهم بالمقدَّسات.

الاعتراض على الاختيار الإلهي

«لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مُلْكاً مِنْهُمْ فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْنَادِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ فِيهِمْ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ كَانَ فِي سَبْطِ يَهُوذَا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ السَّبْطِ؛ فَلِهَذَا قَالُوا ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أَي: كَيْفَ يَكُونُ مُلْكاً عَلَيْنَا ﴿عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أَي: ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذَا فَقِيرٌ لَا مَالَ لَهُ يَقُومُ بِالْمُلْكِ. وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَانَ سَقَاءً. وَقِيلَ: دَبَّاحًا، وَهَذَا اعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَتَعَنَّتْ، وَكَانَ الْأَوَّلَى بِهِمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ»^(٣).

واعترضهم على نبيِّهم في تعيين طالوت ملكاً كان لسببين هما:

الحسب والنسب من جهة، والمال والثروة من جهة أخرى، فجعلوا المقياس ما ليس

(١) أنظر: تفسير الأمل: ج ٢، ص ٢١٦.

(٢) أنظر: بحار الأنوار: ج ١٣، ص ٤٣٩ - ص ٤٤٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٣٠٨.

بمقياسٍ عند السماء، وجعلوا ما ليس بعلةٍ للإصطفاء علةً له، فتحقق الخوف من الخذلان الذي كان يحول في خاطر نبيهم (شموئيل) وسبب هذا الاعتراض واستبعاد أن يكون طالوت ملكاً عليهم أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بني إسرائيل، وهو سبط لاوي بن يعقوب - على رأي - ومنه موسى وهارون، وسبط المملكة، سبط يهوذا ومنه داود وسليمان، وأن طالوت ما كان من أحد هذين السبطين، بل كان من ولد بنيامين؛ فلهذا السبب أنكروا كونه ملكاً لهم، وزعموا أنهم أحق بالملك منه، ثم إنهم أكدوا هذه الشبهة بشبهةٍ أخرى، وهي قولهم: ﴿وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِّنْ أَمْوَالٍ﴾ وذلك إشارة إلى أنه فقير^(١).

طالوت وكيفية اختياره

«كان طالوت رجلاً طويل القامة، ضخماً، حسن التركيب، متين الأعصاب قوياً، ذكياً، عالماً، مدبراً. ولكنه مع كل ذلك لم يكن معروفاً، حيث كان يعيش مع أبيه في قرية على أحد الأنهر، ويرعى ماشية أبيه، ويشغل بالزراعة، أضاع يوماً بعض ماشيته في الصحراء، فراح يبحث عنها مع صاحب له بضعة أيام حتى اقتربا من مدينة صوف، قال له صاحبه: لقد اقتربنا من صوف مدينة النبي إسموئيل، فتعال نزوره لعله يدلنا بما له من إتصالٍ بالوحي، وحصانة في الرأي على ضالتنا. والتقيا بإسموئيل عند دخولهما المدينة، فدلاه على ماشيته، ثم أخبره بأن الله قد أختارك لنجاة بني إسرائيل، فقبل هذه المهمة بعد التردد، فأخبر نبي الله إسموئيل بني إسرائيل بأن الله قد اختار طالوت لقيادتهم فعليكم جميعاً أن تطيعوه، وأن تنهأوا للجهاد ومحاربة الأعداء. فاعترضوا بالإعتراض المتقدم بأنه ليس صاحب حسب ونسب، ولا من أصحاب الأموال، فنحن أحق بالقيادة منه؛ لكوننا من أصحاب الثروة والمال، وأصحاب النسب والحسب»^(٢).

(١) أنظر: تفسير الرازي: ج٦، ص١٨٤-١٨٥.

(٢) تفسير الأمثل: ج٢، ص٢١٧ - ص٢١٨.

الإصطفاء الإلهي لطالوت

بعد إعتراض بني إسرائيل المتقدم على نبيهم في اختيار طالوت ملكاً عليهم أجابهم نبيُّ الله بأنَّ هذا الاختيار ليس من عندي، وإنَّما هو إصطفاءٌ من الله عزَّ وجلَّ. والإصطفاء معناه الاختيار^(١). وأصله الصفو.

فلو تأملنا نعرف كيف ردَّ عليهم نبيُّ الله تعللهم: بأنَّه لا ملك إلاَّ الرجال ولا رجال إلاَّ بالمال، وهو فقير لا سعة له ولا مال، وذلك: بأنَّ الركن الأعظم الشديد الحاجة إليه في الملك والرئاسة هو إصطفاء الله واختياره؛ لعلمه بقبول المحل لا ما ذكروه من الثروة والمال والسعة في الحال، فلما أذنوا بذلك انقطعوا ورضوا برضا الله ورسوله، فانحسمت مادة نزاعهم وتألقت قلوبهم^(٢).

مضافاً إلى الإصطفاء الإلهي أنَّ الله عزَّ وجلَّ زاده بسطة في العلم والجسم «فهذه الآية موافقة لدلائل العقول التي لا ينكرها إلاَّ مَنْ ينكر الضروريات في أنَّ الأعم أولى وأحقَّ وأوجب بالتقديم في الإمامة ممَّن لا يساويه في العلم... فلو استوزر الملك رجلاً لا بصيرة له بعلم السياسة وتدير الأحوال لقبح عند العقلاء فعلة»^(٣).

من هنا صارت الحجة لأمر المؤمنين عليه السلام في أن يحتجَّ على القوم الذين انقلبوا على أعقابهم بعد أن سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ما ولت أمة قط أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلاَّ لم يزل يذهب أمرهم سفلاً، حتَّى يرجعوا إلى ما تركوا»^(٤)، فهذه دلَّت على وجوب تقدّم أمير المؤمنين عليه السلام على كافة المسلمين لخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وإمامة الأمة؛ لتقدّمه

(١) أنظر: مجمع البيان: ج ٢، ص ١٤١.

(٢) أنظر: جامع الشتات: ص ١٤.

(٣) نهج الإيمان: ص ٢٨٩.

(٤) الاحتجاج: ج ١، ص ٢١٩.

عليهم في العلم والحكمة، وقصورهم عن منزلته في ذلك^(١).

والخلاصة: إنَّ اعتراض بني إسرائيل كان في أمرين - كما قدّمنا - الحسب والنسب من جهة، والمال والثروة من جهة أخرى، وهذان الأمران بحسب اعتقادهم أنّهما من مقومات الزعامة والمُلْك، ولكن جاء الجواب الإلهي عن هذا الاعتراض بأمرين كذلك، وهما: الإصطفاء الإلهي، والبسطة في العلم والجسم، مع أنّ أول الأمرين يكفي لردّ اعتراضهم بأنَّ الله عزَّ وجلَّ اختاره وكفى، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٢).

ولكن مع ذلك أجاب نبيُّ الله - زيادة على الإصطفاء - بأنَّه مُستحقُّ لهذا المنصب، وهو جدير بالملك؛ لأنَّ الملك يتقوّم بأمرين غير ما تظنون، وهما: العلم والقوّة.

قال صاحب الميزان: «وبالجملة الغرض من الملك أن يدبّر صاحبه المجتمع تديراً يوصل كلّ فردٍ من أفرادِهِ إلى كماله اللائق به، ويدفع كلّ ما يمانع ذلك، والذي يلزم وجوده في نيل هذا المطلوب أمران: أحدهما: العلم بجميع مصالح حياة الناس ومفاسدها، وثانيهما: القدرة الجسميّة على إجراء ما يراه من مصالح المملكة، وهما اللذان يشير إليهما قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، وأما سعة المال فعده من مقومات الملك من الجهل.

ثمَّ جمع الجميع تحت حُجّة واحدة ذكرها بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾، وهو أنّ الملك لله وحده ليس لأحد فيه نصيب إلّا ما آتاه الله سبحانه منه، وهو مع ذلك لله كما يفيدهِ الإضافة في قوله تعالى (يؤتي ملكه)، وإذا كان كذلك فله تعالى التصرّف في ملكه كيف شاء وأراد، ليس لأحدٍ أن يقول: لماذا أو بماذا (أي: أن يستل عن علّة التصرّف، لأنَّ الله تعالى هو السبب المطلق، ولا عن متّمّ العليّة وأداة الفعل؛ لأنَّ الله

(١) أنظر: الإرشاد: ج ١، ص ١٩٤.

(٢) الأحزاب: آية ٣٦.

تعالى تام لا يحتاج إلى متمم) فلا ينبغي السؤال عن نقل الملك من بيت إلى بيت، أو تقليده أحداً ليس له أسبابه الظاهرة من الجمع والمال^(١).

علامة ملك طالوت

بعد أن تبين أن الله تبارك وتعالى هو الذي اصطفى طالوت واختاره أن يكون ملكاً على بني إسرائيل، لصفات يراها عز وجل أنها هي الصفات التي يجب أن تكون في القائد والملك وهي العلم والقوة، لا الحسب والثروة، كما يظن جهال بني إسرائيل، وبين ذلك نبئهم إسموئيل على أحسن وجه، ولكن الكثير منهم لم يقبل اختيار السماء، وتصوّروا أن هذا من عند نفسه، لا من الربّ المتعال؛ لذا طمأنهم نبئهم بإتيان الحجة على أن هذا الاختيار اختيار إلهي، وهو ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٢) إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يردّ الله عليكم التابوت الذي أخذ منكم^(٣).

وقد ذكرنا فيما تقدّم ما هو المحتوى لهذا التابوت، وأنّ عزّة بني إسرائيل إنّما زالت باستخفافهم بهذا التابوت، والآن يعود إليهم مرة أخرى كدليل على إصطفاء طالوت للملك ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ﴾، فهو يحتوي على أشياء من شأنها أن تبعث السكينة في قلوب بني إسرائيل، فهذا الصندوق بطابعه المعنوي والتاريخي كان أكثر من مجرد لواء لبني إسرائيل وشعار لهم، كان يمثّل رمز إستقلالهم ووجودهم، وبرؤيته كانوا يسترجعون عظمتهم السابقة؛ لذلك كان الوعد بعودته بشارة عظيمة^(٤).

(١) تفسير الميزان: ج ٢، ص ٢٨٧.

(٢) البقرة: آية ٢٤٨.

(٣) أنظر: تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٢٤٧ - ص ٢٤٨.

(٤) أنظر: تفسير الأمثل: ج ٢، ص ٢٢٤.

فإصطفاء طالوت كان لعلمه وشجاعته وقدرته الروحية في إدارة الحرب وفنون القتال، وصار هو المَلِك على بني إسرائيل، وآية مُلكه السكينة التي يبعثها في قلوب بني إسرائيل عامّةً والمقاتلين خاصّةً؛ لأنّهم متى ما رأوه ورأوا ذلك اللواء الذي كان يحمله اطمأنت نفوسهم.

وهكذا كان أبو الفضل العباس عليه السلام سكينة في قلب سُكينة والرباب وزينب (عليهنّ السلام)، كان عليه السلام سكينة وبشارة للأطفال العطاشى، بل اصطفاه الإمام الحسين عليه السلام واختاره من بين كلّ أهل بيته عليه السلام ليكون كبش الكتيبة وحامل اللواء؛ لأنّه يشتمل على صفات الاختيار الإلهي، وهي: العلم والبسطة في الجسم. أمّا العلم فكما يقول إمامنا الصادق عليه السلام: «كان عمّنّا العباس بن علي نافذ البصيرة، صلب الإيمان»^(١).

وأما القوّة والبسطة في الجسم، فقال عنه أبو الفرج الأصفهاني: «وكان العباس رجلاً وسيّاً جميلاً، يركب الفرس المطهّم ورجلاه تخطّان في الأرض، وكان يقال له: قمر بني هاشم، وكان لواء الحسين بن علي عليه السلام معه يوم قُتل»^(٢).

والفرس المطهّم: هو الفرس السمين والتام من كلّ شيء^(٣). ولذا يقول الشاعر فيه:

بطلٌ إذا ركبَ المطهّم خلته	جَبلاً أشم يخف فيه مُطهّم
بطلٌ تورّث من أبيه شجاعةً	فبها أنوف بني الضلالة تُرغم ^(٤)

(١) عمدة الطالب: ص ٢٥٦.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٥٦.

(٣) أنظر: القاموس المحيط: ج ٤، ص ١٤٥.

(٤) من قصيدة رائعة للسيد جعفر الحلي رحمته الله مطلعها:

وجه الصباح عليّ ليلٌ مُظلمٌ وريحُ أيامي عليّ مُحرمٌ

أنظر: رياض المدح والثناء: ص ٢٣٩.

ولذا يصف لنا بعض الشعراء ما نُقل لهم عن حالة أبي عبد الله عليه السلام عندما شاهد أخاه أبا الفضل عليه السلام بوصفٍ يستنزف الدموع من العيون، وكلّ ظنّي أنّ الشاعر لم يتجاوز الحقيقة، ولم يتعدّ الحالة التي كان عليها الحسين عليه السلام حينما قال في وصفه:

بس شاف أخيه على الثره طريح امن بعيد ظل ايگوم ويطيح
اويمه وگف حزنان ويصبح ظهري انكسر ودموعي اتسيح

والفرگتك دلالي اجریح^(١)

وأما زينب فحالتها بعد كافلها لا يوصف، وكأني بها تقول:

كلمن شافني فوگ الجمل گال اضنچ يحره مالچ ارجال
گتله بله سبعين خيال گظينه عزاهم فوگ الجمال
زينب أنه بت خير الأعمال راحوا هلي اوييه الدهر مال^(٢)

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم،

وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُنقلبٍ ينقلبون

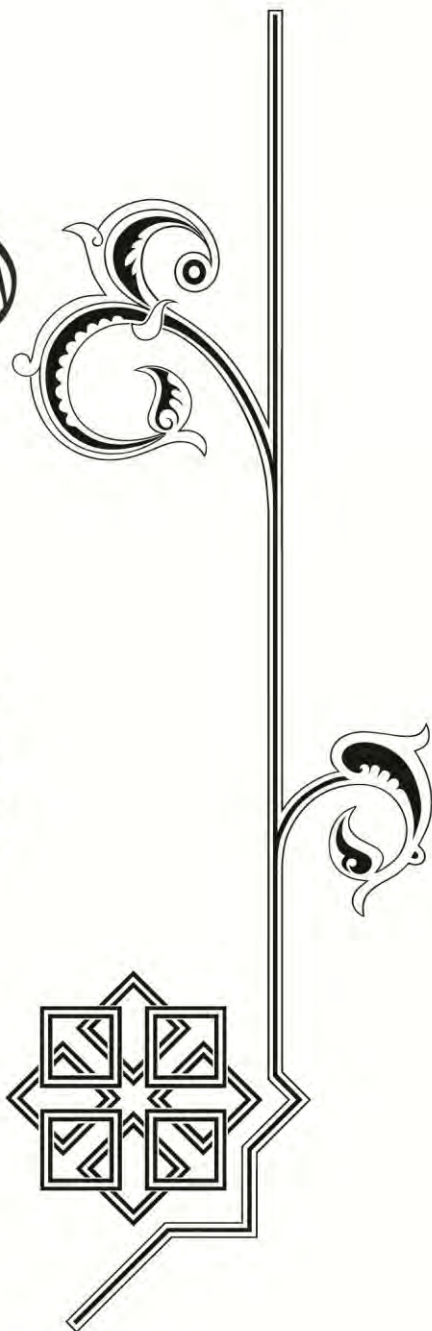
والعاقبة للمتقين.

(١) ميراث المنبر: ص ٢٠٥.

(٢) الأبيات لابن فايز. أنظر: ميراث المنبر: ص ١٥٩.

الحاضرة العربية البصرة

ناقد الله



الواثين لظلم آل محمد
 والقائلين لفاطم أذيتنا
 والقاطعين أراكّة كيما تقيّل
 ومجمّعي حطبٍ على البيت الذي
 والهاجين على البتولة بيّتها
 والقائدين إمامهم بنجاده
 خلّوا ابن عمّي أو لأكشف للدعا
 ما كان ناقة صالح وفصيلها
 ورنّت إلى القبر الشريف بمقلّة
 قالت وأظفار المصاب بقلبيها
 أبتاه هذا السامريّ وعجله
 أي الرزايا أتقي بتجلدي
 فقدني أبي أم غصب بعلي حقّه
 أم أخذهم إرثي وفاصل نحلتي
 قهروا يتيّمك الحسين وصنوه
 ومحمد ملقى بلا تكفين
 في طول نوح دائم وحنين
 بظل أوراق لها وغصون
 لم يجتمع لولاه شمل الدين
 والمسقطين لها عزّ جنين
 والطهر تدعو خلفهم برنين
 رأسي وأشكو للإله شجوني
 بالفضل عند الله إلاّ دوني
 عبرى وقلب مكمد محزون
 غوثاه قلّ على العداة معيني
 تبعاً ومال الناس عن هارون
 هو في النوائب مذ حيت قريني
 أم كسر ضلعي أم سقوط جنيني
 أم جهلهم حقّي وقد عرفوني
 وسألّتهم حقّي وقد نهروني^(١)

(١) القصيدة لشاعر أهل البيت عليه السلام الشيخ صالح الكوّاز الحليّ، قال عنه السيد داخل حسن في كتابه
 من لا يحضره الخطيب (ج ١، ص ١٨٣): «الشيخ صالح الكوّاز، عملاق الشعر، وناقة العصر، هكذا
 نعتة عملاق المنبر الأستاذ السيد جواد شبر. ولد الكوّاز سنة ١٢٢٣هـ، وتوفي ١٢٩٠ هـ، لقّب بالكوّاز؛
 لأنّه كان يبيع الكيزان والجرار والأواني الخزفية، وكان معروفاً بالورع والتقوى وعزّة النفس. وشعره
 من معلقات المحافل الحسينيّة، تهتز له النفوس إعجاباً، وينتزع الدموع حزناً على مصائب أهل
 البيت عليه السلام». من لا يحضره الخطيب: ج ١، ص ١٨٣.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾^(١).

لقد أخذت القصة في القرآن الكريم مجالاً واسعاً ومهماً في هداية البشر، وقد تميّزت هذه القصة عن غيرها من القصص بأنها قصص واقعية صادقة لا يتطرق إليها أدنى شك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾^(٢)، فهو قصص لا لأجل اللهو والمؤانسة، كما يكتب ذلك الكثير ممن ليس له هدف سامي في الحياة، بل القصة في القرآن الكريم لها أهداف سامية رفيعة، لعل أهمّها التفكير، حيث يقول عز وجل: ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣)، وإذا كانت القصة في القرآن لها هذا التميّز فلا شك أنّها ستكون كما قال تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِمْأَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(٤).

ومن أهم أغراض القصة في القرآن الكريم - مضافاً لما تقدّم - هو بيان أنّ دعوة الأنبياء والمرسلين ﷺ واحدة، وطرق مجابهة قومهم لهم واستقبالهم متشابهة، وأنّ القوانين والسنن الاجتماعية التي تتحكّم في تطوّر الدعوة واحدة، فالأنبياء يدعون إلى الأدلة الواحدة، ويأمرون بالعدل والإصلاح، والناس يتمسّكون بالعادات والتقاليد البالية والحجج الواهية. ويصرّ على ذلك أصحاب المنافع الشخصية والأهواء الخاصّة بشكل خاص، والطواغيت والجبابرة بشكل أخص^(٥).

وقد يسأل سائل ويقول: إذا كان الأمر كذلك، وأنّ الدعوة واحدة والأساليب

(١) الأعراف: آية ٧٣.

(٢) آل عمران: آية ٦٢.

(٣) الأعراف: آية ١٧٦.

(٤) يوسف: آية ٣.

(٥) أنظر: علوم القرآن: ص ٣٥٩.

متشابهة، فما هو السبب في اختلاف الشرائع؟

والجواب: «سبب اختلاف الشرائع اختلاف الأمم في الإستعداد والقابلية. والدليل على أن الأنبياء متفقون على الإيمان والتوحيد ما جاء أنه صلى الله عليه وآله وسلم، قال: الأنبياء أولاد علات، أي: أصل دينهم واحد، وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع شرائعهم؛ لأن العلات الضرائر فأولادهم إخوة من الأب وأمهاتهم مختلفة»^(١).

ومن القصص الحق، والتي جاء هدفها بالتفكير في أحوال من تقدمنا، قصة نبي ظلمه قومه، فانتقم الله منهم، كما هو الحال في جميع الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهو نبي الله صالح عليه السلام مع قومه.

قالت الآية ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَكُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وهنا أمور:

الأمر الأول: من هو ثمود؟

اختلفوا في ثمود، فنقل عن الجوهري: ثمود قبيلة من العرب الأولى، وهم قوم صالح. وكذلك قال الفراء: سُميت بذلك لِقَلَّةِ مائهمز وقال الزجاج: الثمد الماء القليل الذي لا مادة له. وقيل: ثمود اسم رجل. وقال عكرمة: هو ثمود بن جابر بن إرم بن سام بن نوح. وقال الكلبي: وكانت هذه القبيلة تنزل في وادي القرى إلى البحر والسواحل وأطراف الشام، وكانت أعمارهم طويلة وكانوا يبنون البنيان والمساكن، فتنهدم، فلما طال ذلك عليهم اتخذوا من الجبال بيوتاً ينحتونها وعملوها على هيئة الدور. ويُقال: كانت منازلهم أولاً بأرض كوش من بلاد عالج، ثم انتقلوا إلى الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وخالفوا أمر الله وعبدوا غيره، وأفسدوا في الأرض، فبعث الله إليهم صالحاً

(١) السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٧٦. ونسبه إلى (قال بعضهم).

نبيّاً فدعاهم إلى الله تعالى ولم يتبعه منهم إلاّ قليلٌ يستضعفون^(١).

وقد تميّز هؤلاء القوم بطول أعمارهم - كما ذكرنا آنفاً - حتّى أن بيوت الطين ما كانت تبقى مدّة أعمارهم؛ فلذا كانوا ينقبون في الجبال البيت، ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، ولعله لبرودتها وفي الشتاء يسكنون بيوت الجبل لدفئتها^(٢).

وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، ولما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثمّ ارتحل بهم حتّى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»^(٣).

الأمر الثاني: ما هو سرّ التعبير بـ (أخاهم صالحاً)؟

من المعلوم بداهة أنّ نبي الله صالح كان في الجهة الأخرى المقابلة إلى قومه، فهم قوم عتاة مرّدة كذبوه وأذوه، وهو نبي الله وكفى، فكيف عبّر بـ (أخاهم)^(٤)، ومن المعلوم أنّ الأخوة شيء رفيع لا يدانيه شيء آخر، حيث قال الباري عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٥)؟

(١) أنظر: عمدة القاري: ج ١٥، ص ٢٧١.

(٢) أنظر: تفسير البغوي: ج ٢، ص ٧٣.

(٣) أنظر: تفسير ابن كثير: ج ٢، ص ٢٣٦ - ص ٢٣٧.

(٤) المنصوبة على تقدير (وأرسلنا) مع أنّه لم يذكرها، ولكن ذكر النبي والمرسل إليهم يدلّ على ذلك، كما نبّه عليه ابن هشام في المغني: ج ٢، ص ٤٣٦، واستشهد بنفس الآية المباركة.

(٥) الحجرات: آية ١٠.

والجواب: إِمَّا لِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ يَفْهَمُونَ مِنْهُ، فَهُوَ أَكَّدَ عَلَيْهِمْ فِي الْحُجَّةِ^(١).
ولكن ربيب القرآن أمير المؤمنين عليه السلام عبّر عن ذلك بالنظير، حيث يقول: «فإنهم صفنان، إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق»^(٢).

ولا أظنّ أنّ هذا هو سرّ التعبير عنهم بأنّه أخوهم، وحليف القرآن يخالف ذلك.
وإمّا لأنّه من عشيرتهم^(٣)، أو لأنّه من حيّهم وقبيلتهم^(٤).

ولعلّ الوجهين الأخيرين أظهر وأقوى، كما يؤيّد التاريخ أنّ نبي الله صالح كان من نفس قبيلة ثمود وحيّهم، ويؤيّد ذلك، بل يدلّ عليه بالصراحة ما رواه العياشي في تفسيره من أنّ رجلاً من أهل الشام جاء إلى الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام فقال: «أنت عليّ بن الحسين؟ قال: نعم. قال أبوك الذي قتل المؤمنين؟

فبكى عليّ بن الحسين، ثمّ مسح عينيه، فقال: ويلك! كيف قطعت على أبي أنّه قتل المؤمنين؟ قال: قوله: إخواننا قد بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم.

فقال: ويلك أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: فقد قال الله: ﴿وَإِلَى مَدِينِكَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، فكانوا إخوانهم في دينهم، أو في عشيرتهم؟ قال له الرجل: لا بل في عشيرتهم. قال: فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم وليسوا إخوانهم في دينهم. قال: فرّجت عنّي فرج الله عنك»^(٥).

وبهذا يتّضح أنّ هذا التعبير (أخاهم) لأجل أنّه من عشيرتهم وحيّهم الذي عاش فيه أكثر من مئة سنة، حيث إنّهُ بعث إليهم وهو ابن ستّة عشر سنة، فلبث فيهم حتّى بلغ مئة

(١) معاني القرآن: ج ٣، ص ٤٧.

(٢) نهج البلاغة: ج ٢، ص ٨٤.

(٣) أنظر: معاني القرآن: ج ٣، ص ٤٧.

(٤) أنظر: بحار الأنوار: ج ٢٥، ص ٢٣٦.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٠.

وعشرين سنة، يدعوهم فلا يجيبونه إلى خير، فحاجَّهم في آهتهم وهم سبعون صنماً، وقال: إن شئتم فاسألوني حتَّى أسأل إلهي فيجيبكم، وإن شئتم سألت آهتكم فإن أجابتنى خرجت عنكم.

فاستدعوه أن يسأل آهتهم فسأل إتماماً للحجة وتوضيحاً لبطلانهم، فلمّا رأوا أنّهم لا يجيبونه.

قال: فاسألوني حتَّى أدعو إلهي فيجيبكم، فانتدب سبعون رجلاً من كبارهم وعظمائهم، فقالوا: يا صالح نحن نسألك، فقال: فكلُّ هؤلاء يرضون بكم؟ قالوا: نعم، فإن أجابوك أجبنك. قالوا: يا صالح، فإن أجابك إلهك آمنّا بك جميعاً، فسألوا خروج الناقة من الجبل^(١).

الأمر الثالث: الدعوة إلى التوحيد

ذكرنا فيما تقدّم أنّ الهدف الأسمى والمهمة العليا عند جميع الأنبياء والمرسلين هو رفع كلمة التوحيد، والملاحظ هنا هو اعتماد المنهج الذي يدعو جميع الأنبياء والمرسلين إليه، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣)، فالذي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولأجل هذه الدعوة يبذلون كلّ غالٍ ونفيس، ولو كان الله شريك - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - لآتانا من يدعو إليه.

وكما قال إمام الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام ومن يبلغه

(١) أنظر: مستدرک سفينة البحار: ج ٦، ص ٣١٤.

(٢) الأنبياء: آية ٢٥.

(٣) أنظر: تفسير ابن كثير: ج ٢، ص ٢٣٦. ص ٢٤٠. والآية ٣٦ من سورة النحل.

كتابه، قال: «واعلم يا بُني، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رُسُلُهُ، ولرايت آثارَ مُلكِهِ وسلطانِهِ، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه...»^(١).

ثم قالت الآية ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ما لكم تعبدون الأصنام وقد جاءكم بيّنة ظاهرة جليّة، وشاهد على صحة نبوّتي، وكانت هذه الجملة جواب لقولهم: (اثنتا بيّنة) - كما مرّ عليك في الروايات - تدلّ على صدقك، وأنت مُرسَل إلينا، وقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ تفسير لما أُبهم في قوله: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فكانه قيل له: ما الآية؟

قال: هذه ناقة الله.

وقد يقول قائل: ما هو السرّ في إضافتها إلى الله عزّ وجلّ؟

والجواب: قد تكون إضافتها إليه عزّ وجلّ تشريفاً وتخصيصاً، نحو (بيت الله)

و(روح الله).

أو لكونه خلقها بغير توسط ذكر وأنثى، أو لكونها لا مالك لها إلاّ الله تعالى^(٢).

فالإشارة ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ إشارة إلى ناقة بعينها، والسبب في كونها آية وحجّة من الله على صدق دعوة نبي الله صالح عليه السلام أنّهم هم الذين سألوها صالحاً عليه السلام أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، يُقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشرة تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمننَّ به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته

(١) نهج البلاغة: ج ٣، ص ٤٤.

(٢) أنظر: تفسير البحر المحيط: ج ٤، ص ٣٣١. ص ٣٣٢. مجمع البيان: ج ٤، ص ٢٩١.

ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء، يتحرك جنيها بين جنيها، كما سألوا.

فعند ذلك آمن رئيسهم ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم رجل يدعى ذؤاب بن عمرو... وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعت بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملاؤن ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْتَهِمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخْتَصِرٌ﴾^(١)، وقال ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَٰؤُلَاءِ شَرِبُوا وَلَكُمْ شَرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾^(٢).

ثم قالت الآية ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ «لما أضاف الناقة إلى الله أضاف محل رعيها إلى الله؛ إذ الأرض وما أنبتت فيها ملكه تعالى لا ملككم ولا إنباتكم، في هذا الكلام إشارة إلى أن هذه الناقة نعمة من الله يُنال خيرها من غير مشقة تكلف علف ولا طعمة، وهو شأن الإبل... كانت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، ترد غباً، وإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها، ثم تفجج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدرخون»^(٣).

وفي هذا المقطع «تلويح إلى أن تخليتهم الناقة وشأنها في الأكل والسير في الأرض كانت مما يشق عليهم، فكانوا يتحرّجون من ذلك، وفي قوله: ﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ إيماء إليه، فوصاهم وحذرهم أن يمنعوها من إطلاقها ويمسوها بسوء، كالعقر والنحر؛ فإن وبال ذلك عذاب أليم يأخذهم»^(٤).

(١) القمر: آية ٢٨.

(٢) أنظر: تفسير ابن كثير: ج ٢، ص ٢٣٦. ص ٢٤٠، والآية ١٥٥ من سورة الشعراء. وأنظر: تفسير ابن

كثير: ج ٢، ص ٢٣٦. ص ٢٤٠.

(٣) تفسير البحر المحيط: ج ٤، ص ٣٣٢.

(٤) تفسير الميزان: ج ٨، ص ١٨١.

واللطيف في الآية أنها نهت عن المسّ بالسوء «وهذا تنبيه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهاهم عن مسّها بسوء إكراماً لآية الله، فنهيه عن نحرها وعقرها ومنعها عن الماء والكلاء أولى وأحرى، والمسّ والأخذ هنا استعارة، وهذا وعيدٌ شديدٌ لمن مسّها بسوء. والعذاب الأليم هو ما حصل إذا عقروها، وما أعدّ لهم في الآخرة»^(١).

لكن حسدهم لها وهم يرونها تسرح في بعض تلك الأودية، ترد من فجٍّ وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتصلّع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً، ومنظراً رائعاً، إذا مرّت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم واشتدّ تكذيبهم لصالح النبي ﷺ عزموا على قتلها؛ ليستأثروا بالماء كلّ يوم، فيقال إنهم اتفقوا على قتلها، وأنّ الذي قتلها طاف عليهم كلّهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان، وهو الظاهر من قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾^(٣)، وقوله عزّ وجل: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾^(٤)، فأسند ذلك الى مجموع القبيلة، فدلل على رضاهم جميعاً بذلك^(٥).

ويقال: إنّ امرأة منهم يُقال لها عَنِيْزَةُ ابنة غنم بن مجلز، وتكنّى أمّ عثمان، كانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشدّ الناس عداوةً لصالح ﷺ، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، ومعها امرأة أخرى ذات حُسن ومال وجمال، كانت تحت رجل مُسلم من ثمود ففارقت، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت إحداهما رجلاً يقال له الحَبَّاب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها،

(١) علوم القرآن: ص ٣٥٩.

(٢) الشمس: آية ١٤.

(٣) الإسراء: آية ٥٩.

(٤) الأعراف: آية ٧٧.

(٥) أنظر: تفسير ابن كثير: ج ٢، ص ٢٣٨.

فدعت ابن عمّ لها يقال له مصدع بن مهرج فأجابها إلى ذلك، ودعت الأخرى (قدار بن سالف) وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنّه كان ولد زنية، وأنّه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه، وقالت له: أعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة، فعند ذلك انطلق (قدار ومصدع) فاستغويا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَكَاثَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(١)، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكاملها فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت من الماء، وقد كُمن لها قدّار في أصل صخرة على طريقها، وكُمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها.

وخرجت بنت غنم عزيزة وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس وجهاً، فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته، وشدّ عليها قدّار بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرجت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاءً واحدةً تُحذّر سقبها، ثم طعن في لبتّها فنحرها، وانطلق سقبها، وهو فصيلها حتى أتى جبلاً منيعاً فصعد أعلى صخرة فيه، ورغا ثلاث مرات، وأنّه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: إنهم اتبعوه فعقروه مع أمّه. فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾^(٢).

وقال العلامة الجزائري: «وقد ذكر الله سبحانه قصّتهم في كتابه المجيد، تعظيماً لمواقعتهم الشنيعة، وتخويفاً لهذه الأمة من أن يرتكبوا مثلها، وقد ارتكبوا ما هو أشنع وأفضع منها.

(١) النمل: آية ٤٨.

(٢) أنظر: تفسير ابن كثير: ج ٢، ص ٢٣٨، والآية ٦٥ من سورة هود.

ولهذا صحَّ عنه عليه السلام أنه قال لعلي عليه السلام: «أشقى الأولين والآخرين من عقر ناقة صالح، ومن ضربك يا علي على قرنك حتى تخضب من دم رأسك لحيتك... ومن أمعن النظر فيه يظهر له شدة انطباقه عليه؛ وذلك أن علياً عليه السلام كان آية الله تعالى أظهرها على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله».

كما قال عليه السلام: وأي آية أعظم مني... أمّا ولادته فكانت في الكعبة التي هي صخرة بيت الله، كما خرجت الناقة من الصخرة، ولم يتفق ذلك لنبيٍّ أو وصيٍّ نبيٍّ، وكان عليه السلام يميز الناس العلوم والحكم، كما كانت الناقة تميزهم السقيا.

وأما سبب شهادته عليه السلام فكانت قطامة (لعنة الله عليها)، كما كان السبب في عقر الناقة الملعونة الزرقاء، وبعد أن استشهد عليه السلام عمدوا إلى ولده الحسين عليه السلام وقتلوه، كما قتل أولئك فصيل الناقة... فلما عقروا الناقة قالوا للصالح: ﴿فَأَنبَايَمَا نَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قال صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ وعلامة هلاككم: أنه تصفرُّ وجوهكم غداً، وتحمرُّ بعد غدٍ، وتسودُّ في اليوم الثالث، فلما كان من الغد نظروا إلى وجوههم قد اصفرت، فلما كان اليوم الثاني احمرت مثل الدم، فلما كان الثالث اسودت وجوههم، فبعث الله عليهم صيحة جبرئيل عليه السلام صاح بهم صيحة تقطعت بها قلوبهم، وخرقت منها أسماعهم، فماتوا أجمعين في طرفة عين، ثم أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقتهم^(١).

وليلة ضربة الأمام أمير المؤمنين عليه السلام صاح جبرئيل صيحة سمعها كل مستيقظ: هُدِّمَتْ وَاللَّهِ أَرْكَانُ الْهُدَى، وانطمست والله نجوم السماء وأعلام التقى، وانفصمت والله العروة الوثقى، قُتِلَ ابْنُ عَمِّ الْمُصْطَفَى، قُتِلَ الْوَصِيُّ الْمَجْتَبَى، قُتِلَ عَلِيُّ الْمُرْتَضَى، قُتِلَ - وَاللَّهِ - سَيِّدُ الْأَوْصِيَاءِ قُتِلَ أَشَقَى الْأَشْقِيَاءِ، فلما سمعت أم كلثوم نعي جبرئيل لطمت وجهها وخدّها وشقَّت جيبها وصاحت: وا أبتاه، وا علياه، وا محمداه، وا سيداه، ثم أقبلت على

(١) قصص الأنبياء: ص ١٠٤- ص ١٠٨.

أخويها الحسن والحسين^(١)، وكأني بالخوراء زينب عليها السلام تندبه:

بالمحراب أويلي طاح أبو حسين اودم راسه يتفايض على العين
يوم طاح أبو الحسنين مجروح ثار اصياح لهل العرش بالنوح
طبره اشلون طبره تشعب الروح تشوف السم اودم الراس لونين^(٢)

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُنقلبٍ ينقلبون
والعاقبة للمتقين.

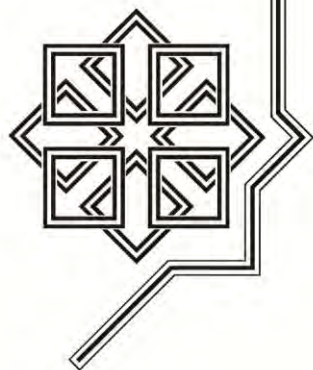
(١) أنظر: بحار الأنوار: ج ٤٢، ص ٢٨٢.

(٢) مجمع مصائب أهل البيت عليهم السلام: ج ٤، ص ١١٤.

الحاضرة العربية الخامسة



أوهن البيوت



تأوّه قلبي والفؤادُ كَتِيبُ وأَرْقَ نومي فالسُّهادُ عَجِيبُ
وممّا نفى نومي وشيّبَ لأمّتي تصاريفُ أيّامٍ هُكِّنَ خُطوبُ
فمن مُبلغٍ عني الحُسينَ رسالةً وإن كرهتها أنفُسُ وقلوبُ
ذبيحٍ بلا جُرمٍ كأنّ قميصه صيغُ بقاء الأرجوانِ خضيبُ
فللسيفِ أَعوالٌ وللرمحِ رنةٌ وللخيلِ من بعد الصهيلِ نحيبُ
تزلزلتِ الدنيا لآلِ مُحَمَّدٍ وكادت لهم صُمُّ الجبالِ تذوبُ
فإن كان ذنبي حُبَّ آلِ مُحَمَّدٍ فذلك ذنبٌ لستُ عنه أتوبُ
هُم شُفعائي يومَ حَشري وموقفي إذا ما بدت للناظرينَ خُطوبُ^(١)

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ
اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ

(١) القصيدة للإمام الشافعي، كما في مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٦٩، جاء في ترجمته أنّه ولد في شهر رجب من سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧م، أمّه فاطمة أمّ حبيبة الأزديّة. أمّا والده فكان رجلاً حجازياً فقيراً، خرج مهاجراً من مكة إلى الشام، وأقام بـ (غزة) و(عسقلان) ببلاد فلسطين، ثمّ مات بعد ولادة الشافعي بقليل فكفلته أمّه. كبر الغلام وبلغ من العمر سنتين، وأصبح قرّة عين والدته، فرأت أمّه أن تحمله إلى مكة المكرمة صوناً لنسبه من الضياع إذا بقي في (غزة)، ونزلت بجوار الحرم بحيّ يقال له (شعب الخيف)، ولما ترعرع أرسلته أمّه إلى الكتّاب، ولما لم يكن في طاقة أهله القيام بنفقات تعليمه أمهله المعلم وانصرف عنه. توفي في ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رجب سنة ٢٠٤ هـ بعد العشاء الأخيرة، من أشهر كتبه كتاب الأمّ الذي استفدنا هذه الترجمة من مقدمته.

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١﴾.

لقد احتلَّ المثل في القرآن الكريم منزلة كبيرة لا تقل عن مستوى القصة، حتى ألف البعض من العلماء كتاباً في ذلك^(١).

والغاية من هذه الأمثال كالغاية من القصة تماماً، كما هو صريح القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى في القصص: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣)، إذن الغاية هي التفكر، وهذه الأمثال القرآنية تختلف من زمان إلى آخر، فمثلاً الأمثلة التي ضربها القرآن الكريم في مكة تختلف عن الأمثلة المدنية، وهذا أمر طبيعي، كالإختلاف بين نفس الآيات المكية والآيات المدنية، فكل واحدٍ منهما له طبيعته الخاصة ومحتواه الخاص، ومعالجته لداءٍ معيّن يختلف عن الآخر، فالآيات المكية كالأمثال المكية غالباً ما تتحدث عن أصول الدين، بخلاف الآيات المدنية والأمثال المدنية، فهي في الغالب تتحدث عن فروع الدين وآدابه وما شاكل ذلك؛ لتحقيق أسس الإسلام والدعوة إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام، فيأتي الدور عن تكميل النفوس وتطهيرها من شوائب الجاهلية. وبما أن سورة العنكبوت سورة مكية بكل آياتها - بما فيها الآيات محل البحث - نجد أنها جاءت لتعالج ما ذكرناه من الداء المتمثل بالشرك وعبادة الأصنام واتخاذها أولياء من دون الله.

قال الشيخ السبحاني: «أمّا الأمثال المكية، فكانت دائرة مدار معالجة الأدواء التي

(١) العنكبوت: آية ٤١ - آية ٤٣.

(٢) مثل كتاب: الأمثال في القرآن لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، والأمثال في القرآن الكريم للشيخ جعفر السبحاني (دام ظلّه الشريف)، وقد ذكر في مقدّمه كتابه المذكور (١٤) كتاباً حول ذلك، حسب التسلسل الزمني.

(٣) الحشر: آية ٢١.

(٤) الأعراف: آية ١٧٦.

ابْتُلِيَ بها المجتمع المكي، لا سيما وأنَّ النبي ﷺ كان يجادل المشركين ويسفّه أحلامهم، ويدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وترك عبادة غيره، والإيمان باليوم الآخر، ففي خضمِّ هذا الصراع يأتي القرآن بأروع مثل، ويشبه آهتهم المزعومة التي تمسّكوا بأهدابها بيوت العنكبوت، الذي لا يُظهر أدنى مقاومة أمام النسيم الهادي، وقطرات المطر، وهبوب الرياح... وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ^١ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ^٢ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ^٣﴾.

أولياء من دون الله

ليس من القبيح ولا من المذموم في الإسلام أن يتخذ الرجل ولياً، شريطة أن لا يكون ولياً من دون الله؛ ولذا صار من الفرائض موالاة أولياء الله والبراءة من أعداء الله، فأولياء الله أولئك الذين بشرهم القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(١)﴾، وهم الذين بذلوا كلَّ غالٍ ونفيس في سبيل الله، حتى قدّموا أنفسهم جهاداً في سبيله، ولم يكن الموت عندهم إلا أمانة في سبيل الحق وإحقاقه، وإبطال الباطل وإزهاقه، بخلاف الذين يدعون الولاية لله عز وجل من دون دليل وبرهان، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ هَادُوا^٢ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^٣﴾ وَلَا يَمْنُنَ لَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ^٤ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ^(٥).

وإنما القبيح والمذموم في منطق القرآن الكريم والإسلام هو اتّخاذ أولياء من دون الله تبارك وتعالى، وهو هنا محلّ الكلام، وهم المقصودون في الآيات المباركة التي افتتحنا بها كلامنا.

(١) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٣٨ - ص ٣٩. والآية من سورة الحج: آية ٧٢.

(٢) يونس: آية ٦٢.

(٣) الجمعة: آية ٦٤ - آية ٧.

وقد «شبه الله سبحانه حال مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ فِي الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ بِحَالِ الْعَنْكَبُوتِ الَّذِي يَتَّخِذُ بَيْتًا لِيَأْوِيَ إِلَيْهِ، فَكَمَا أَنَّ بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ فِي غَايَةِ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ، فَكَذَلِكَ حَالُ مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مِثْلَهُ فِي الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ. وَالْمَثَلُ قَوْلُ سَائِرِ يُشَبِّهِهُ بِهِ حَالُ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ. وَ(الِاتِّخَاذُ) أَخَذَ الشَّيْءَ عَلَى إِعْدَادِهِ لِنَائِبَةٍ... فَلَمَّا أَخَذُوا عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ إِعْدَادًا لِنَائِبَةٍ كَانُوا اتَّخَذُوا الْأَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَذَلِكَ فَاسِدٌ؛ لِأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَاصِمَةُ مِنَ الْمَكَارِهِ دُونَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ»^(١).

وَلَا يَنْفَعُهُمْ أَنْ يَعْتَذِرُوا بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءَ لِيَقْرِبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؛ مَا دَامُوا قَدْ عَبْدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَالْأَمْرُ وَاحِدٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ^(٢) إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ^(٣)﴾.

وَالْخِلَاصَةُ: هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَنْفَعُونَهُ لَضَعْفِهِمْ، كَمَا أَنَّ بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَبْقَى^(٤)؛ لِكَوْنِهِ فِي غَايَةِ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ وَلَا يَجْدِي نَفْعًا^(٥).

الإعجاز في هذا التشبيه

«إِنَّ الْإِعْجَازَ الْعِلْمِيَّ كُلَّ الْإِعْجَازِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَتَجَلَّى بِأَجْلِ مَعَانِيهِ فِي لَفْظَةِ (اتَّخَذَتْ) بِصِيغَةِ الْفَعْلِ الْمُؤَنَّثِ، وَهِيَ إِشَارَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي غَايَةِ الرُّوعَةِ وَالِدَقَّةِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَا يَقُومُ بِنَاءِ بَيْوتِ الْعَنَّاكِبِ هِيَ الْأُنْثَى مِنْهُ، وَأَنَّ الذَّكَرَ مِنَ الْعَنَّاكِبِ لَا شَأْنَ لَهُ بِذَلِكَ، وَهَذِهِ

(١) التبيان: ج ٨، ص ٢١١.

(٢) الزمر: آية ٣.

(٣) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم الرازي: ج ٩، ص ٣٠٦٣. معاني القرآن: ج ٥، ص ٢٢٧.

(٤) أنظر: مجمع البيان: ج ٨، ص ٢٧.

حقيقة ما كان أحد مطلقاً يفطن إليها وقت نزول القرآن، ولكن لما اشتغل علماء الأحياء حديثاً بدراسة الحشرات ووضعوها في دراستها علماً قائماً بذاته، تبينت لهم حقائق مذهلة عن حياة الحشرات، التي تبلغ مئات الآلاف في أنواعها، وأنَّ كُلَّ نوعٍ منها يتميز بأشكاله وأحجامه، وألوانه، وطبائعه، وغرائزه المميّزة لكلِّ نوعٍ منها عمّا سواه... ومن دراسة حياة العناكب لاحظ العلماء أنَّ بيت العنكبوت له شكل هندسي خاص، دقيق الصنع، ومقام في مكان مختار له في الزوايا، أو بين غصون الأشجار، وأنَّ كُلَّ خيطٍ من الخيوط المني منها البيت مكوّن من أربعة خيوط أدقّ منه، ويخرج كُلَّ خيطٍ من الخيوط الأربعة من قناة خاصّة في جسم العنكبوت، ولا يقتصر بيت العنكبوت على أنّه مأوى يسكن فيه، بل هو في نفس الوقت مصيدة تقع في بعض حبالها اللزجة الحشرات الطائرة، مثل الذباب وغيره؛ لتكون فريسة يتغذى عليها، وإنه لمنظر يثير الدهشة حقّاً عندما يرى الإنسان هذه الحشرة الرقيقة تتحرّك بأرجلها الدقيقة بسرعة بين خيوط بيتها الواهي لتمسك بفرائسها^(١).

قال الدميري: «العنكبوت: دويبة تنسج في الهواء، وجعُها عناكب، والذكر عنكب، وكنيته أبو خيشمة وأبو قشعم، والأنثى أم قشعم، ووزنه فعللوت، وهي قصار الأرجل، كبار العيون، للواحد ثمانية أرجل وست عيون، فإذا أراد صيد الذباب لطاً بالأرض، وسكن أطرافه، وجمع نفسه، ثمَّ وثب على الذباب فلا يخطئه..

قال افلاطون: أحرص الأشياء الذباب، وأقنع الأشياء العنكبوت، فجعل الله رزق أقنع الأشياء في أحرص الأشياء.

قال الجاحظ: ولَدُ العنكبوت أعجب من الفروج الذي يخرج إلى الدنيا كاسباً كاسباً؛ لأنَّ ولد العنكبوت يقوى على النسج ساعة يولد من غير تلقين ولا تعليم، ويبيض ويحضن، وأوّل ما يولد دوداً صغاراً، ثمَّ يتغيّر ويصير عنكبوتاً، وتكمل صورته عند ثلاثة

(١) القرآن وإعجازه العلمي: ص ١٥٧. ص ١٥٨.

أيام... إذا وضع نسج العنكبوت على الجراحات الطرية في ظاهر البدن حفظها بلا ورم، ويقطع سيلان الدم إذا وضع عليه، وإذا دُلكت الفضة المتغيرة بنسجه جلاها...»^(١).

ومما يلفت النظر في هذه الآيات الشريفة هو أن العنكبوت هي التي اتخذت بيتاً لم يأمرها الله عز وجل باتخاذها، ولم يوح إليها كما في النحل؛ إذ يقول تبارك اسمه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(٢)، ولكنه تبارك وتعالى لم يصف بيتها بالوهن، بخلاف العنكبوت، ولعل ذلك راجع إلى أن النحل لم يتخذ بيتاً من عند نفسه، بخلاف العنكبوت، فهي التي اتخذت بيتاً من الجبال والأشجار ومما يعرشون، كلها أمور قد تتخذ العناكب فيها البيوت لكنه وصف بيتها بالوهن، ولم يصف بيوت النحل بذلك، وهكذا الذي يتخذ ولياً من نفسه، حاله كحال العنكبوت، بخلاف الذي يتخذ ولياً بأمر الله ووحيه، يكون حاله حال النحل التي أمرها الله عز وجل باتخاذها البيوت، فاتضح الفرق إذن، وتبين لنا الإعجاز القرآني الرائع في هذه الآيات المباركة.

قال الشيخ السبحاني: «إن التشبيه يترك تأثيراً بالغاً في النفوس مثل تأثير الدليل والبرهان، فتارة ينهى عن الغيبة، ويقول: لا تغتب؛ فإنه يوجب العذاب ويورث العقاب، وأخرى يُمثل عمله بالمثل التالي: وهو أن مثل من يغتاب مثل من يأكل لحم الميت؛ لأنك نلت من هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب، فكان نيلك منه كعمل من يأكل لحم الميت، وهو لا يعلم ما يفعل به ولا يقدر على الدفع.

ثم إن الغرض من تشبيه الآلهة المزيفة بهوام وحشرات الأرض كالبعوض^(٣) والذباب والعنكبوت هو الخط من شأنها، والإستهزاء بها»^(٤).

(١) حياة الحيوان الكبرى: ج ٣، ص ٢٨٨ - ص ٢٩٢.

(٢) النحل: آية ٦٨.

(٣) البقرة: آية ٢٦.

(٤) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٢١٧ - ص ٢١٨.

مواصفات هذا البيت

كَلَّ مَنْ يَعْرِفُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ يَتَبَادَرُ إِلَى ذَهْنِهِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلِمَةِ (بَيْت) الْبَيْتِ الْمَعْرُوفِ، حَتَّى أَنَّ الْجَوْهَرِيَّ فِي الصَّحَاحِ، قَالَ: «بَيْتٌ: الْبَيْتُ مَعْرُوفٌ، وَالْجَمْعُ بَيْوتٌ»^(١)، وَلَكُونَهُ مَعْرُوفًا لَمْ يَشْرَحْهُ، وَلَمْ يَوْضَحْهُ.

أَمَّا بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ فَيَخْتَلِفُ حَالُهُ تَمَامًا عَنِ الْبَيْوتِ الْمَعْرُوفَةِ.

قَالَ الرَّازِي: «إِنَّ الْبَيْتَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُمُورٌ: حَائِطٌ حَائِلٌ، وَسَقْفٌ مَظِلٌّ، وَبَابٌ يَغْلِقُ، وَأُمُورٌ يَنْتَفِعُ بِهَا وَيَرْتَفِقُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَا بَدَّ مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ: إِمَّا حَائِطٌ حَائِلٌ يَمْنَعُ مِنَ الْبَرْدِ، وَإِمَّا سَقْفٌ مَظِلٌّ يَدْفَعُ عَنْهُ الْحَرَّ، فَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ مِنْهَا شَيْءٌ فَهُوَ كَالْبَيْدَاءِ لَيْسَ بَبَيْتٍ... فَإِنْ لَمْ تَجْتَمِعْ هَذِهِ الْأُمُورُ فَلَا أَقْلَ مِنْ دَفْعِ ضَرٍّ أَوْ جَرِّ نَفْعٍ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ فَهُوَ وَالْمَعْدُومُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ، فَإِذَنْ كَمَا لَمْ يَحْصُلْ لِلْعَنْكَبُوتِ بِاتِّخَاذِ ذَلِكَ الْبَيْتِ مِنْ مَعَانِي الْبَيْتِ شَيْءٌ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ بِاتِّخَاذِ الْأَوْثَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ مَعَانِي الْأَوْلِيَاءِ شَيْءٌ»^(٢).

هَذِهِ هِيَ مَوَاصِفَاتُ مَا يُسَمَّى بَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ «فَإِنَّ بَيْتَهَا يَفْتَقِدُ لِأَدْنَى مَقَاوِمَةِ أَمَامِ الظُّوَاهِرِ الْجَوِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ، فَلَوْ هَبَّ عَلَيْهِ نَسِيمٌ هَادِي لَمْزَقِ النَّسِيجَ، وَلَوْ سَقَطَتْ عَلَيْهِ قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ لَتَلَاشَى، وَلَوْ وَقَعَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ نَارٍ لَاحْتَرَقَ، وَلَوْ تَرَاكَمَ عَلَيْهِ الْغُبَارُ لَمْزَقَ. هَذَا هُوَ حَالُ الْمَشَبَّهِ بِهِ، وَالْقُرْآنُ يُمَثِّلُ حَالَ الْأَلْهَةِ الْمَزَيَّفَةِ بِهَذَا الْمَثَلِ الرَّائِعِ، وَهُوَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى اسْتِجَابَةِ أَيِّ طَلَبٍ، بَلْ حَالُ الْأَلْهَةِ الْمَزَيَّفَةِ الْكَاذِبَةِ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَهُوَ أَنَّ الْعَنْكَبُوتَ تَنْسِجُ بَيْتَهَا لِتَصْطَادَ بِهِ الْحَشَرَاتِ وَلَوْلَاهُ لَمَاتَ جَوْعًا، وَلَكِنَّ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ لَا تَوْفَّرُ شَيْئًا لِلْكَافِرِ»^(٣).

(١) الصحاح: ج ١، ص ٢٤٤.

(٢) تفسير الرازي: ج ٢٥، ص ٦٧. ص ٦٨.

(٣) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٢١٨.

ثُمَّ تَحْتَمِ الْآيَةُ هَذَا التَّشْبِيهَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ «يعني لو علموا صحّة ما أخبرناهم به ويتحقّقونه، لكنّهم كفّار بذلك، فلا يعلمونه فـ(لو) متعلّقة بقوله (اتّخذوا) أي: لو علموا أنّ اتّخاذهم الأولياء كاتّخاذ العنكبوت بيتاً سخيّفاً لم يتّخذوهم أولياء، ولا يجوز أن تكون متعلّقة بقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾؛ لأنّهم كانوا عالمين بأنّ بيت العنكبوت واهٍ ضعيف»^(١) «ولكنّهم يجهلون ذلك فيحسبون أنّهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى»^(٢).

الله يعلم بمن يتولّى غيره عزّ وجلّ

وبعد هذا المشهد التمثيلي الرائع، والتشبيه القرآني البديع بمن اتّخذ من دونه أولياء، يؤكّد الله عزّ وجلّ أنّ مَنْ عبد غيره وأشرك به أنّه تعالى يعلم ما هو عليه من الأعمال، ويعلم ما يُشركون به من الأنداد، وسيجزّيهم وصفهم إنّهم حكيم عليم^(٣)، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهذا وعيدٌ منه سبحانه، ومعناه أنّه يعلم ما يعبد هؤلاء الكفّار وما يتّخذونه من دونه أرباباً، وهو العزيز الذي لا يُغالب فيما يريد، الحكيم في جميع أفعاله^(٤).

«وإذا أمهلهم فليس بسبب العجز والضعف، أو عدم العلم، أو أنّ قدرته محدودة، بل كلّ ذلك من حكمته التي توجب أن يُمنحوا الفرصة الكافية؛ لتتمّ الحجّة البالغة عليهم، فيهتدي مَنْ هو جديرٌ بالهدى»^(٥).

(١) التبيان: ج ٨، ص ٢١١ - ص ٢١٢.

(٢) جامع البيان: ج ٢٠، ص ١٨٧.

(٣) أنظر: تفسير ابن كثير: ج ٣، ص ٤٢٤.

(٤) أنظر: تفسير مجمع البيان: ج ٨، ص ٢٨.

(٥) تفسير الأمل: ج ١٢، ص ٣٩٦.

إشكال البعض على التشبيهات القرآنية

ثم يأتي الدور إلى الآية الثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نُصْرِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ وهذا جواب لإشكال مقدّر أشكله ويشكله أعداء الإسلام على التشبيهات القرآنية، وكانوا يقولون: الله الذي خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟ فيردّ القرآن: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نُصْرِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

«إن أهمية المثل وظرافته لا تكمن في كبره وصغره، بل تظهر أهميته في انطباق المثل على المقصود، فقد يكون صغر الشيء الممثل به أكبر نقطة في قوّته.

قالوا في ضرب الأمثال: ينبغي عند الكلام عن الأشياء الضعيفة، والتي فيها وهن أن يُمثّل لها في ما لو اعتمد عليها بيت العنكبوت، فهو أحسن شيء يُتخَب لهذا الوهن وعدم الثبات، فهذا المثل هو الفصاحة بعينها والبلاغة ذاتها؛ ولذا قيل: إنه لا يعلم دقائق أمثلة القرآن ولا يدركها إلا العلماء.

فإذن التشبيه بالعنكبوت وبيته الخاوي هو أمرٌ محسوبٌ بدقّة، وإذا ما اختار موجوداً صغيراً للتمثيل به فهو لبيان الحق، وإلاّ فهو خالق أعظم المجرات والمنظومات الشمسية وغيرها»^(١).

وهذا يعني أنّه ضرب للناس أمثالاً، وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها لا يدركها إلاّ العلماء^(٢).

وفي تفسير القمّي: «العالَمون يعني آل محمّد ﷺ»^(٣) وبعض العامة فسّر ﴿الْعَالِمُونَ﴾ بـ«الراسخون في العلم، المدبرون في الأشياء على ما ينبغي، وعنه (صلّى الله عليه وآله وسلم)

(١) تفسير الأمثل: ج ١٢، ص ٣٩٧ - ص ٣٩٨.

(٢) أنظر: تفسير الرازي: ج ٢٥، ص ٧٠.

(٣) تفسير القمي: ج ٢، ص ١٥٠.

أنّه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله تعالى، وعمل بطاعته واجتناب سخطه»^(١).
 لكن من أعظم المصائب أن يكون العالم بين يدي الجهّال يشكو إلى الله تعالى، فقد روى
 عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «ثلاثة يشكون إلى الله تعالى يوم القيامة: عالم بين ظهري قوم لا
 يسألونه عن علمه، ومسجد قوم لا يعمرونه بذكر الله والصلاة فيه، ومصحف في منزل
 شخص وهو لا ينظره ولا يقرء فيه»^(٢)، وهذا الذي حصل مع أبي عبد الله الحسين عليه السلام يوم
 عاشوراء، يعظّم فلم ينفع، يسألهم ماذا يريدون منه ليس عندهم جواب إلاّ الأسنة
 والسهم، ورحم الله السيد رضا الهندي، حيث يصف ذلك المشهد، إذ يقول:

لم أنسه إذ قام فيهم خاطباً	فإذا هم لا يملكون خطاباً
يدعو ألسنت أنا ابن بنت نبيكم	وملاذكّم إن صرف دهر نابا
هل جئت في دين النبي ببدعة	أم كنت في أحكامه مرتابا
أم لم يوص بنا النبي وأودع الـ	ثقلين فيكم عترة وكتابا
إن لم تدينوا بالمعاد فراجعوا	أحسابكم إن كنتم أعرابا
فغدوا حيارى لا يرون لوعظه	إلاّ الأسنة والسهم جواباً ^(٣)

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم،
 وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُقلبٍ ينقلبون
 والعاقبة للمتقين.

(١) تفسير أبي السعود: ج ٧، ص ٤١.

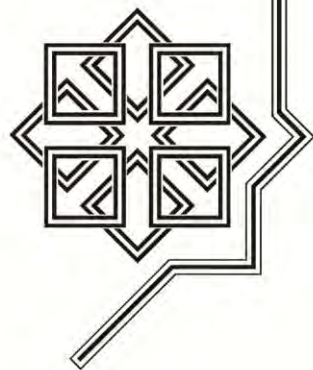
(٢) عوالي اللئالي: ج ٤، ص ٦٥.

(٣) ديوان السيد رضا الهندي: ص ٤٢.

الحاضرة والسَّاسِيَّة



الْمُتَدَلِّجَةُ الْعَصَاةُ



ولزنبٍ نوحٍ لفقدٍ شقيقتها
أحسينُ يا خيرَ الخلائقِ كلَّها
اليوم أصبغُ في عزاك ملاسبي—
اليوم ساقوني بقيدي يا أخي
اليوم شبّوا في المخيم نارهم
أنعم جواباً يا حسينُ أما ترى
فأجابها من فوق شاهقةً القنا
وتكفلي حالَ اليتامى وانظري
تدعوه يا بنَ الزاكياتِ الرُّكع
وقتيلَ أولادِ اللئامِ اللُّكع
سوداً واسكبُ هاطلاتِ الأدْمع
والضربُ المُنّي وأطفالي معي
وتناهبوا ما فيه حتّى بُرّقي
شمرَ الخنا بالسّوطِ ألم أضلّعي
قُضيَ القضاءُ بما جرى فاسترجعي
ما كنتُ صنعُ في حمّاهم فاصنعي^(١)

(١) الأبيات من قصيدة رائعة للشيخ مُحمّد بن شريف بن فلاح الكاظمي، قال عنه السيد جواد شبر رحمته الله في أدب الطف (ج ٦، ص ١٢٤، ص ١٢٦): «الشيخ محمد شريف بن فلاح الكاظمي نزيل الغريّ، ولد في الكاظمية ونشأ فيها، ثمّ هاجر إلى النجف وقرأ العلوم فيها في الربع الأخير من القرن الثاني عشر للهجرة، وكان من المشاهير في العلم والأدب، واللامعين من بين أقرانه، له إطلاع بجملته من العلوم ومن أهل الكرامات الباهرة، معاصراً للشيخ مهدي الفتوني العاملي النجفي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ، وللسيد محمد مهدي الطباطبائي المعروف ببحر العلوم، وللشيخ الأكبر الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء، وللشيخ أحمد النحوي، وكان على جانب عظيم من التقى والورع والصلاح، تتسبب إليه كرامات الصلحاء الأبرار... وله القصيدة الدالية في مدح أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّه ألقاها في الحرم أمام القبر الشريف، وسقط عليه القنديل الذهبي المعلق، فأخذ من يده وعُلّق، فوقع عليه مرّة ثانية فأخذه، والقصيدة أولها:

أبا حسن ومثلك من ينادى لكشف الضرّ والهول الشديد

توفي رحمته الله سنة ١٢٢٠ هـ.

نادها من فوگ الرُمح الله يرعاج اصبري يخويه وسلّمي أمرچ المولاچ
راسي على راس الرمح هلرايح وباج وياچ يبره العايله ويرعه يطيحون
يحتي استعدي للهظم والهظم جدّام لازم يودّوكم يساره الطّاغي الشّام
وهلچ تسمعين المسبّة ابمجلس العام واهناك تلگين المرار أنواع وافنون

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ * فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾.

يبعث الله تبارك وتعالى الأنبياء والرسل لإجل هداية الناس إلى الخير والسعادة والقسط، وينزل معهم الكتب السماوية التي لا تختلف في هذه المفاهيم، فالعدالة والقسط وهداية الناس من أهم هموم الأنبياء منذ أن خلق الله البشر، وبعث إليهم الرسل.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ﴿٢﴾.

«يبعث الله تعالى الأنبياء والرسل ليذكروا الناس بالمخزون الفطري الذي وضعه الله في النفس البشرية عند بدأ الخلق، وهذا المخزون هو توحيده تعالى، ويقوم الأنبياء والرسل على امتداد عهد البعثة بسوق الناس إلى طريق الهدى ببيانهم للناس، ما أنزل إليهم من ربهم، وبعد أن يقيم رسل الله الحجّة على الناس ينسى بعض الناس ما ذكروا به، ويقومون

(١) الأنعام: آية ٤٤ - آية ٤٥.

(٢) الحديد: آية ٢٥.

بأعمال تعارض الفطرة ووصايا الله»^(١).

«تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للصّالين والمشرّكين، ويتّخذ القرآن فيها طريقاً آخر لإيقاظهم، وذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الأمم الضالة والظالمة والمشرّكة، ويبيّن لهم كيف أُتيحت لها جميع عوامل التربية والتهذيب والوعى، غير أنّ جمعاً منهم لم يُلقوا بالاً إلى أيّ من تلك العوامل، ولم يعتبروا بما حاقّ بهم من (بأساء) و(ضراء) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(٢) أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟!»^(٣).

أسباب الغفلة والنسيان

تبدأ الآيتان ببيان هذا الشرط وهو ﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾^(٤) ثم ترتّب عليه الجزاء، وذكرنا بأنّ المقصود ممّا ذُكِّروا به هو جميع ما جاء به الأنبياء والمرسلون؛ تنبيهاً لما في فطرتهم من توحيد الله تبارك وتعالى «وتركوا ما وعظوا وأمروا به»^(٥) «وتركوا العمل بما أمرناهم به على السنن رسلنا»^(٦)، ويشمل ذلك كلّ ما أتى على ألسن الأنبياء والرسل. ولا ريب أنّ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ممّا جاء على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ لتواتر الأحاديث في ذلك، وقد روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: ﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: لما تركوا ولاية علي عليه السلام، وقد أمروا بها، ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٧). ويعود السبب في غفلة الناس ونسيانهم لما أمروا به إلى أمرين:

(١) إبتلاءات الأمم: ص ٣٦٤.

(٢) تفسير الأمتل: ج ٤، ص ٢٨٥ - ص ٢٨٦.

(٣) تفسير البغوي: ج ٢، ص ٩٧. تفسير السمرقندي: ج ١، ص ٤٦٩.

(٤) تفسير جامع البيان: ج ٧، ص ٢٥٣.

(٥) تفسر العياشي: ج ١، ص ٣٦٠.

«الأول: إنهم لكثرة آثامهم وعنادهم في الشرك زailت الرحمة قلوبهم، والليونة أرواحهم... وقست قلوبهم.

والثاني: إن الشيطان قد استغلَّ عبادتهم وأهواءهم فزين في نظرهم أعمالهم، فكلَّ قبيح ارتكبه أظهره لهم جميلاً، ولكلَّ خطأ فعلوه جعله في عيونهم صواباً. وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون»^(١).

وهذا التزيين أصبحوا معجبين بأعمالهم، لا يرون أحداً يصل إلى عبادتهم وكمالهم، فنسوا ما ذكروا به، فجاء الجواب الإلهي الغريب أنه فتح عليهم أبواب كلِّ شيء عقوبةً، لا كرامةً لهم.

جزاء الغفلة والنسيان

من الطبيعي جداً أن يتوقع إنسانٌ من آخر عقوبةً فيما لو صدرت منه إساءةٌ بحقه، ومن الطبيعي جداً أن يخاف صاحب الذنب من ذنبه الذي ارتكبه بحق سيده ومولاه، وفطرة الإنسان تحكم بذلك.

لكن ليس من المألوف ولا من المتوقع في العادة أن تُقابل الإساءة بالإحسان، وترك الأوامر بزيادة النعم، والعصيان بفتح الأبواب كلها!!

ولكن يرتفع هذا الاستغراب عندما نسمع آيات القرآن الكريم تجازي الغفلة وترك جميع ما ذكروا به وأمروا أن يأتوا به، تجازيهم بتواتر النعم، وفتح الأبواب، وتجديد كلِّ نعمةٍ عليهم، فيصير الجزاء غير ما يتوقع من هكذا فعل، فالفعل هو الإساءة، والجزاء هو الإحسان بحسب الظاهر ﴿فَلَمَّا دُسُّوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

(١) تفسير الأمثل: ج ٤، ص ٢٨٦.

الاستدراج عقوبة أم تنبيه؟

«نقرأ في هذه الآيات أنه عندما لم يكن لإبتلائهم بالشدائد تأثيرٌ في توعيتهم، فإن الله يفتح أبواب الخيرات على أمثال هؤلاء الآثمين، فهل هذا ترغيبٌ بعد المعاقبة، أم هو مقدمة لعقابٍ أليم؟ أي: هل هذه النعم نعم إستدرجية، تغمر المتمردَ تدريجياً بالرفاهية والتنعيم والسرور، تغمره بنوع من الغفلة، ثم يُنتزع منه كلُّ شيءٍ دفعةً واحدة؟

ثمّة قرائن في الآية تؤيد الإحتمال الثاني، ولكن ليس هناك ما يمنع من قبول الإحتمالين، أي أنه ترغيبٌ وتحريضٌ على الإستيقاظ، فإن لم يؤثر، فمقدمة لسلب النعمة، ومن ثمّ إنزال العذاب الأليم»^(١).

وهذه القرائن واضحة من أسلوب الخطاب، والأخذ بغتة دليل صارف عن الإحتمال الأول. نعم، هو ممكن بحد ذاته، لكن ثبوتاً لا معيّن له، بل القرائن صارفة عنه، والمهم هنا: هو بيان قوله تعالى: ﴿فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ومن الواضح أنّ التعبير بـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يكون من الشرّ، وإنّما كلُّ شيءٍ من الخير والرزق، يعني أرسلنا عليهم كلّ خيرٍ، أو من الرزق^(٢)، ونقلوا من البأساء والضراء إلى الراحة والرخاء وأنواع الآلاء والنعماء. والمقصود أنّه تعالى عاملهم بتسليط المكاره والشدائد عليهم تارة، فلم ينتفعوا به، فنقلهم من تلك الحالة إلى ضدها، وهو فتح أبواب الخيرات عليهم، وتسهيل موجبات المسرات والسعادات لديهم، فلم ينتفعوا به أيضاً.

«وهذا كما يفعله الأب المشفق بولده، يُحاشنه تارة، ويُلطفه أخرى؛ طلباً لصلاحه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير والنعم، لم يزدوا على الفرح والبطر من غير إنتدابٍ لشكرٍ، ولا إقدامٍ على اعتذارٍ وتوبةٍ... معناه: فتحنا عليهم أبواب كلِّ شيءٍ كان مغلقاً

(١) تفسير الأمل: ج ٤، ص ٢٨٨.

(٢) أنظر: تفسير السمرقندي: ج ١، ص ٤٦٩.

عنهم من الخير»^(١)، «وهذا إستدراجٌ منه تعالى وإملاء لهم»^(٢).

حقيقة الإستدراج

وردت لفظة الإستدراج في القرآن الكريم؛ في سورتي الأعراف والقلم بنفس النص، وهو قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، ولم ترد في موضع آخر بهذا اللفظ. نعم، مضمون الإستدراج ورد في آيات عديدة، مثل الآيات محل البحث، ومثل قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤).

وأما في الروايات الشريفة فقد ورد الإستدراج بلفظه ومعناه كثيراً. فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بَعِيدَ خَيْرٍ فَأَذْنَبَ ذَنْباً أَتْبَعَهُ بِنِقْمَةٍ وَيَذْكُرُهُ الْاسْتِغْفَارَ، وَإِذَا أَرَادَ بَعِيدَ شَرٍّ فَأَذْنَبَ ذَنْباً أَتْبَعَهُ بِنِعْمَةٍ؛ لِيَنْسِيَهُ الْاسْتِغْفَارَ وَيَتَادَى بِهَا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بِالنِّعَمِ عِنْدَ الْمَعَاصِي»^(٥).
وسئل أبو عبد الله عليه السلام عن الإستدراج، فقال: «هُوَ الْعَبْدُ يَذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَمْلِي لَهُ، وَيَجِدُّ لَهُ عِنْدَهَا النِّعَمَ، فَتَلْهِيه عَنِ الْاسْتِغْفَارِ مِنَ الذَّنُوبِ، فَهُوَ مُسْتَدْرِجٌ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ»^(٦).
وسئل عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: «هُوَ الْعَبْدُ يَذْنِبُ الذَّنْبَ فَتَجِدُّ لَهُ النِّعْمَةَ مَعَهُ، تُلْهِيه تِلْكَ النِّعْمَةُ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ»^(٧).

(١) تفسير الرازي: ج ١٢، ص ٢٢٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٥٥.

(٣) الأعراف: آية ١٨٢، والقلم: آية ٤٤.

(٤) المؤمنون: آية ٥٥ - آية ٥٦.

(٥) الكافي: ج ٢، ص ٤٥٢، ح ١.

(٦) الكافي: ج ٢، ص ٤٥٢، ح ٢.

(٧) المصدر نفسه: ح ٣.

والإستدراج هو الإملاء والإنظار والإمهال، ويطلق على إمهال الله المجرم بعدم الأخذ الحلي عليه... واستدراج الله للعباد: هو إغفال العُصاة بالإحسان، وتجديد النعم عليهم عقيب الإساءة^(١)، كما بيّنت الآيات والروايات.

ومن هنا نعرف أنّ الإستدراج لا يكون مع الطاعة لله عزّ وجلّ، وإنّما مع العصيان والتمرد، كما اتّضح بما تقدّم، مضافاً إلى الروايات الشريفة الواردة في المقام، مثل ما رواه عمر بن يزيد، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إني سألت الله عزّ وجلّ أن يرزقني مالاً فرزقني، وإني سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني ولداً، وسألته أن يرزقني داراً فرزقني، وقد خفت أن يكون ذلك إستدراجاً! فقال: أما والله مع الحمد فلا»^(٢).

قال العلامة المجلسي عليه السلام: «وقوله عليه السلام: (إنّ الله لا يفعل بالمؤمن)... فإنّه تعالى لو أعطى جميع الدنيا المؤمن لم يكن ذلك على سبيل الإستدراج، بل؛ لأنّه علّم أنّه يشكره ويصرفه في مصارف الخير، ولا يصير ذلك سبباً لنقص قدره عند الله، كما فعل ذلك بسليمان عليه السلام، بخلاف ما إذا فعل ذلك بغير المؤمن، فإنّه لإتمام الحُجّة عليه، واستدراجه، فيصير سبباً لشدة عذابه...»^(٣).

الأخذ بغتةً ونتيجته

ثمّ تنتقل الآية لبيان حال هؤلاء العصاة بعد اغداقه النعم عليهم، حيث تقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِم أَبْوَابَ الْخَيْرَاتِ ظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ بَاسْتِحْقَاقِهِمْ، فعند ذلك ظهر أنّ قلوبهم قست وماتت، وأنّه لا يُرجى لها إنتباه

(١) أنظر: التحفة السنية (مخطوط): ص ٢٧.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٩٧، ح ١٨.

(٣) بحار الأنوار: ج ٦٤، ص ١٥٢.

بطريق من الطُّرق، فأجابهم الله بالعذاب من حيث لا يشعرون»^(١).
«وكان فرحهم فرح بطر، وهو منهى عنه، وذلك مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا»^(٢).

والأخذ بغتةً يعني «على غفلةٍ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كلِّ خير»^(٣).
وقال البعض: «المبلس: النادم الحزين، أو الساكت المنقطع عن الحجّة»^(٤).
وقال الشيخ الطوسي رحمته الله: «قال الزجاج: (المبلس) الشديد الحسرة (والبائس) الحزين، وقال البلخي: معنى مبلسون يعني: أذلة خاضعين، وقال الجبائي: معنى (مبلسون) آيسون، وقال الفراء: (المبلس) المنقطع الحجّة... وقال مجاهد: (الإبلاس) السكوت مع اكتئاب»^(٥).

والجامع لهذه المعاني وغيرها هو الخسران والإفلاس، وأصله: «الإطراق لحلول نعمةٍ أو زوال نعمةٍ»^(٦).

وقال القرطبي: «المبلس: الباهت الحزين، الآيس من الخير، الذي لا يحير جواباً لشدة ما نزل به من سوء الحال»^(٧).

وتفسير القرطبي ما هو إلاّ جمع وترتيب للأقوال في المقام من دون ترجيح ولا بيان جامع لها، وهو كافٍ في المقام؛ لتقارب المعاني، كما هو واضح.

(١) تفسير الرازي: ج ١٢، ص ٢٢٦.

(٢) تفسير السمعاني: ج ٢، ص ١٠٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ج ٢، ص ١٣٧.

(٤) تفسير السمعاني: ج ٢، ص ١٠٤.

(٥) التبيان: ج ٤، ص ١٣٧. ص ١٣٨.

(٦) تفسير البحر المحيط: ج ٤، ص ١٣٤.

(٧) تفسير القرطبي: ج ٦، ص ٤٢٦.

ثُمَّ يَخْتَمُ هَذَا الْمَشْهَدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُطِّعَ دَايِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تقول الآية: وهكذا استؤصلت جذور أولئك الظلمة وانقطع نسلهم^(١)، ولم يبقَ منهم باقية^(٢).

وينبّه الباري عزّ وجلّ عن سبب الإستئصال بذكر الوصف الذي هو الظلم، وهو هنا الكفر... ودابر القوم آخرهم الذي يدبرهم^(٣).

ثمّ يقول تبارك وتعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فما هو الداعي والسبب لهذا الحمد؟

فيه وجوه:

«الوجه الأول: معناه أنّه تعالى حمد نفسه على أن قطع دابرهم، واستأصل شأفتهم؛ لأنّ ذلك كان جارياً مجرى النعمة العظيمة على أولئك الرسل؛ في إزالة شرّهم عن أولئك الأنبياء.

الوجه الثاني: أنّه تعالى لما علم قسوة قلوبهم لزم أن يُقال: إنّهُ كلما ازدادت مدّة حياتهم ازدادت أنواع كفرهم ومعاصيهم، فكانوا يستوجبون به مزيد العقاب والعذاب. فكان إفناؤهم وإماتتهم في تلك الحالة موجبا أن لا يصيروا مستوجبين»^(٤).

الوجه الثالث: «أنّه إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة، وأنّه من أجلّ النعم وأجزل القسم»^(٥).

(١) أنظر: تفسير الأمل: ج٤، ص٢٨٦ - ص٢٨٧.

(٢) أنظر: تفسير البغوي: ج٢، ص٩٧.

(٣) أنظر: تفسير البحر المحيط: ج٤، ص١٣٤.

(٤) تفسير الرازي: ج١٢، ص٢٢٦ - ص٢٢٧.

(٥) تفسير البحر المحيط: ج٤، ص١٣٥، نقله عن الزمخشري.

وفي تفسير القرطبي قال: «قيل: علم إهلاكهم. وقيل: تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه، وتضمنت هذه الآية الحجة على وجوب ترك الظلم لما يعقب من قطع الدابر، إلى العذاب الدائم مع استحقاق القاطع الحمد من كل حامد»^(١).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يكثر من تلاوة هاتين الآيتين عند الفراغ من وضوءه، كما روي عن الإمام الهادي عليه السلام أنه قال: «إن قنبراً مولى أمير المؤمنين عليه السلام دخل على الحجاج بن يوسف، فقال له: ما الذي كنت تلي من علي بن أبي طالب؟ فقال: كنت أوضئه، فقال له: ما كان يقول إذا فرغ من وضوئه؟ فقال: كان يتلو هذه الآية: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ * فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال الحجاج: أظنه كان يتأولها علينا. قال: نعم. فقال: ما أنت صانع إذا ضربت علاوتك؟ قال: إذا أسعد وتشقى، فأمر به»^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام في تفسيرها قال: «أخذ بني أمية بغتة، ويؤخذ بني العباس جهرة»^(٣).

وكانت بنت أمير المؤمنين عليه السلام زينب الكبرى عليها السلام تحذر يزيد من مغبة طغيانه وظلمه وسوقه بنات رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قالت: «... أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسراء، إن بنا هواناً على الله، وبك عليه كرامة، وإن ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوثقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكناً وسلطاناً، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا

(١) تفسير القرطبي: ج ٦، ص ٤٢٧.

(٢) اختيار معرفة الرجال: ج ١، ص ٢٨٩ - ص ٩٠، ح ١٢٠.

(٣) تفسير العياشي: ج ١، ٣٦٠، ح ٢٤٦.

نُمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١﴾. أَمِنْ الْعَدْلِ يَا ابْنَ الطُّلَقَاءِ تَحْدِيرُكَ حَرَائِكَ وَإِمَائِكَ، وَسَوْفَكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبَايَا قَدْ هَتَكَتِ سِتُورَهُنَّ، وَأَبْدَيْتِ وَجُوهَهُنَّ... ﴿٢﴾.

بلى والله، ليس ذلك من العدل، ورحم الله شاعر أهل البيت عليه السلام حيث يقول في تائيته الرائعة التي قرأها أمام أبي الحسن الرضا عليه السلام:

ديارُ رسولِ الله أصبحنَ بلقعاً وألّ زيادٍ تسكنُ الحجراتِ
وألّ زيادٍ في القصورِ مَصُونَةٌ وألّ رسولِ الله في الفلواتِ^(٣)

وعلى هذا الحال كانت الحوراء زينب عليها السلام تشكو لأُمّها ما لاقاها أثناء السبي:

تعالِي يَم حَسَنُ يُمّه تَعَالِي وشوفي كربلا شسوت بحالي
إخوتي مذبحة وكلّها إكْبالي

وكأنّي بالزهراء عليها السلام تردّ على زينب عليها السلام:

أنّه يَمِج يُمّه مَوْبَعِيدَه من طاح الحسين على الصعيده
ومن راد الشمر يَگْطَع وريدَه ثلث تيام أنه ساجنه الييده
نوبه انهض وادور اصبع ايده ونوب انهض وادور چف عضيده

تشكو زينب مرةً أخرى:

بَگِيتِ اَحْيِرَه واصفج باليدين لا عَبّاس يبرالي ولا حسين
يُضْرِبُونِي اَمِنْ اَبْجِي وتدمع العين وتبگه عبرتي ابصدري اَتَكْسِر—

(١) اللهوف: ص ١٠٥.

(٢) من قصيدة رائعة لشاعر أهل البيت عليه السلام دعبل الخزاعي، كما في ديوانه: ص ٥٦ - ص ٦٥ ومطلعها:

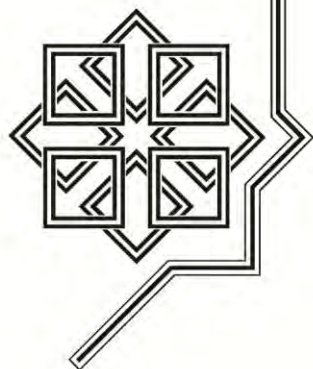
تجاوبين بالأرنان والزفّرات * نوائحُ عجمُ اللَّفْظِ والنُّطْقَاتِ

إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ،
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

الحاضرة المعاصرة السابعة



الحياة الدنيا
محتاج الغرور



لله ما صنعت فينا يدُ البينِ كم من حشَى أقرحتْ منّا ومن عِينِ
مالي وللبينِ لا أهلاً بطلعتِهِ كم فرّقَ البينُ قَدماً بينَ إلفينِ
لا تأمن الدهرَ إنَّ الدهرَ ذو غيرِ وذو لسانينِ في الدُّنيا ووجهينِ
أخنى على عترة المهادي فشَتَّتهم فما ترى جامعاً منهم بشخصينِ
كأنَّما الدهرُ ألا أن يبددهم كعاتبٍ ذي عنادٍ أو كذي دِينِ
بعضٌ بطيئةٌ مدفونٌ وبعضُهم بكرِ بلاءٍ وبعضٌ بالغريِّينِ
وأرضٌ طُوسٍ وسامراءٍ وقد ضمنتُ بغدادُ بدرينِ حلاً وسطَ قبرينِ
يا سادتي ألمن أبكي أسىً ولمن أبكي بجفنينِ من عيني قريحينِ
أبكي على الحسنِ المسمومِ مضطهداً أم الحسينِ لقى بينَ الخميسينِ
أبكي عليه خضيبَ الشَّيبِ من دمه معفّر الخدِّ محزوز الوريدينِ
وزينب في بناتِ الطُّهر لا طمة والدمعُ في خدّها قد خدَّ خدَّينِ
تدعوه يا واحداً قد كنتُ أمله حتّى استبدّت به دوني يدُ البينِ^(١)

(١) القصيدة لشاعر أهل البيت عليه السلام ابن حمّاد العبدي، قال عنه العلامة الأميني في الغدير (ج٤، ص ١٨٨ - ص ١٥٥): «أبو الحسن، علي بن حمّاد، بن عبيد الله، بن حماد العدوي، العبدي، البصري. كان حماد والد المترجم أحد شعراء أهل البيت عليه السلام، كما ذكره ولده شاعرنا في شعره بقوله من قصيدة:

وإن العبد عبدكم علياً كذا حماد عبدكم الأديب
رثاكم والدي بالشعر قبلي وأوصاني به أن لا أغيب

والمترجم له علم من أعلام الشيعة، وقدّ من علمائها، ومن صدور شعرائها، ومن حفظة الحديث المعاصرين للشيخ الصدوق ونظرائه، وقد أدركه النجاشي، وقال في رجاله: قد رأيته. غير أنّه يروي عنه كتب أبي أحمد الجلودي البصري المتوفى سنة ٣٣٢ بواسطة الشيخ أبي عبد الله بن الحسين بن عبيد الله الغضائري المتوفى سنة ٤١١، فهو من مشايخ هذا الشيخ العظيم الواقفين في سلسلة الإجازات، والمعدودين من مشايخ الرواة، وأساتذة حملة الحديث، وحسبه ذلك دلالة على ثقته وجلالته وتضلّعه في العلم والحديث.

وأما الشعر فلا يشك أحد أنّه من ناشري ألويته، وعافدي بنوده، ومنظّمي صفوفه، وقائدي كتابه،

على الجثث مرّوا بالنساوين أو يـلاه أو شافـنهم مطـاعين
 منهم شمال ومنهم إيمين أو على الوجه مطروح الحسين
 رادت عليه فخر الخواتين من على الناگه اطيح بالحين
 ناده الولي اوضنوة الطيبين يعمّه عليهم من تطيحين
 اشلون يا عمّه تركبين وآنه علىل وبیه تدرين
 وئت ونين الممريلين ودعتك الله يا ضوة العين

زجر يحسين من عگبك محنّه إيسفر واعداك ما بيهم محنّه
 على راس الرمح راسك محنّه ابدماه وبس يدیر العين لي



وساقي مقانبه، وجامعي شوارده، وقد اطرد ذكره في المعاجم، كما تداول شعره في الكتب والمجاميع، وهو من المكثرين في أهل البيت عليه السلام مدحاً ورتاءً، ولقد أكثر وأطاب، وجاهر بمدحهم وأذاع حتى عدّه بن شهر آشوب في المجاهرين من شعرائهم، وجمع شعره فيهم صلوات الله عليهم مدحاً ورتاءً العلامة السماوي في ديوان يربو على ٢٢٠٠ بيتاً، وجلّ شعره يشفّ عن تقدمه الظاهر في الأدب، وأشواطه البعيدة في فنون الشعر، وخطواته الواسعة في صياغة القريض، كما أنّه ينمّ عن علمه المتدفّ، وتضلّعه في الحديث، وبذل كلّ في بثّ فضائل آل الله، وجمع شوارد الحقايق الراهنة في المذهب الحقّ، ونشر ما ورد منها في الكتاب والسنة، وإقامة الدعوة إلى سنن الهدى، فشعره بعيد عن الصور الخيالي، بل هو لسان حجاج وبرهنة، ونظم بينات ودلائل، وبيان قيم لمذهبه العلوي... لم نقف على تاريخ ولادة ابن حماد ووفاته، غير أن النجاشي الذي أدركه و رآه ولم يرو عنه ولد في صفر سنة ٣٧٢، وشيخه الذي يروي عنه، وهو الجلودي البصري توفي ١٧ ذي الحجة سنة ٣٣٢، فيستدعي التاريخان: أن المترجم ولد في أوایل القرن الرابع، وتوفي في أواخره...».

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(١).

قد يكرّر القرآن الكريم في بعض الأحيان آية كاملة، أو جزء آية، أو قصّة بنحوٍ وآخر، لكن الغرض هو الهداية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢)، فالقرآن الكريم يستعمل الأسلوب الأنفع في التوصل إلى هداية البشر.

ومن الآيات التي جاءت بنحو آخر هذه الآية المباركة، فقد وردت في سورة النبي الأكرم محمد ﷺ بالنحو التالي:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ إِن تَوَدَّوْا وَيَتَّقُوا يَوْمَ تُجْزَوْنَ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾^(٣)، إلا أنها اقتصرت على اللعب واللهو، ويمكن أن يكون سبب الإقتصار عليها في الآية الشريفة؛ كثرة ممارستها من قبل الأغلب، فمن النادر جداً أن يمرّ الإنسان في زمن الطفولة والصبا من دون لعبٍ ولهو، بل قد يكون ذلك ممّا يشعر بنقص في طفولته وصباه، أمّا بقية الأدوار أعني: دور الزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد فليس من اللازم ذلك، فالكثير من الناس ممّن لعب في طفولته، ثمّ مرّ بدور اللهو وبشكل واضح، إلاّ أنّه لم يمرّ عليه دور الزينة والتفاخر والتكاثر.

والمهم في المقام تسليط الضوء على الآية التي افتتحنا بها الكلام فالآية الشريفة تتضمن أمرين:

الأمر الأول: ترسيم الحياة الدنيا والمراحل المختلفة التي تمرّ على الإنسان، وهي

(١) الحديد: آية ٢٠.

(٢) الإسراء: آية ٩.

(٣) محمد: آية ٣٦.

خمسة: (اللعب، اللهو، الزينة، التفاخر، التكاثر في الأموال والأولاد).

والأمر الثاني: تشبيه الدنيا - بدايةً ونهايةً - بالنبات الذي يعجب الزَّرَاع طراوته ونضارته، ثمَّ سرعان ما يتحوَّل إلى عشب يابس تذروه الرياح، ثمَّ استنتج من هذا التمثيل: أنَّ الحياة الدنيا متاع الغرور، أي: وسيلة للغرور والمتعة، يَغْتَرُّ بها الذين أُخلدوا إلى الأرض، يتصورونها غاية قصوى للحياة، ولكنَّها في نظر المؤمنين قنطرة للحياة الأُخرى، لا يغترون بها، بل يتزوَّدون منها إلى حياتهم الأخروية.

إنَّ حياة الإنسان من لدن ولادته إلى نهاية حياته تتشكَّل من مراحل خمس:

المرحلة الأولى: اللعب، واللعب هو عمل منظوم لغرض خيالي، كلعب الأطفال، وهو مُقارن لحياة الإنسان منذ نعومة أظفاره وطفولته، ويتَّخذ ألواناً مختلفة حسب تقدُّم عمره، وهو أمر محسوس عند الأطفال.

المرحلة الثانية: اللهو، واللهو ما يشغل الإنسان عمَّا يهَمُّه، وهذه المرحلة تبتدئ حينما يبلغ ويشتدَّ عظمه، فتجد في نفسه ميلاً ونزوعاً إلى الملاهي وغيرها.

المرحلة الثالثة: حُبُّ الزينة، والزينة نظير ارتداء الملابس الفاخرة، والمراكب البهيَّة، والمنازل العالية، وجنوحه إلى كلِّ جمالٍ وحسن.

المرحلة الرابعة: التفاخر، إذا تهيَّأت للإنسان أسباب الزينة، يأخذ حينها بالمفاخرة بالأحساب والأنساب، وما تحت يديه من الزينة.

المرحلة الخامسة: التكاثر في الأموال والأولاد، وهذه المرحلة هي المرحلة الخامسة التي يصل فيها الإنسان إلى مرحلةٍ من العُمُر، يفكِّر في تكثير الأموال والأولاد، ويشبُّ على ذلك الإحساس.

ثمَّ إنَّ تقسيمَ المراحل التي تمرُّ على الإنسان إلى خمس لا يعني - كما ذكرنا - أنَّ كلَّ هذه المراحل تمرُّ على الإنسان بلا استثناء، بل يعني أنها تمرُّ عليه على وجه الإجمال، غير أنَّ بعض

الناس تتوقف شخصيتهم عند المرحلتين الأوليين إلى آخر عمره، فيكون اللعب واللهو أهم مائز في سلوكهم، كما أن بعضهم تمر عليه المرحلة الثالثة والرابعة، فيحرص على ارتداء الملابس الفاخرة، والتفاخر بها لديه من أسباب^(١).

قال الشيخ الأنصاري^{رحمته الله}: «وقد ذكر غير واحد أن قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...﴾ بيان ملاذ الدنيا على ترتيب تدرجه في العمر، وقد جعلوا لكل واحد منها ثمان سنين^(٢). ولعل الشيخ الأعظم^{رحمته الله} يقصد ما روي عن الشيخ البهائي^{رحمته الله} من «أن الخصال الخمس المذكورة في الآية مرتبة بحسب سني عمر الإنسان ومراحل حياته، فيتولع أولاً باللعب، وهو طفل أو مراهق، ثم إذا بلغ أشده اشتغل بالزينة من الملابس الفاخرة، والمراكب البهية، والمنازل العالية، وتولاه للحسن والجمال، ثم إذا اكتمل أخذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب، ثم إذا شاب سعى في تكثير المال والولد.

هذا ما يرجع إلى بيان حال الدنيا من حيث المراحل التي تمر بها. والأمر الثاني، أي: التمثيل الذي يجسد حال الدنيا ويشبهها بأرض خصبة يُصيها مطرٌ غزيرٌ، فتزدهر نباتها على وجه يُعجب الزَّراع، ولكن سرعان ما تذهب طراوتها ونقاوتها فيصيحها الإصفرار واليبس، وتذروها الرياح في كل الأطراف، وتصبح كأثما لم تكن شيئاً مذكوراً، وعند ذلك تتجلى الحقيقة أمام الإنسان، وأنه اغترَّ بطراوة هذه الروضة، وهكذا حال الدنيا، فيغتر الإنسان بها ويخلد إليها، ولكن سرعان ما تسفر له عن وجهها، وتكشف عن لثامها.

وعلى أي حال، فالآية تهدف إلى تحقير الدنيا وتعظيم الآخرة^(٣).

(١) أنظر: الأمثال في القرآن الكريم: ص ٢٥٧ - ص ٢٥٩.

(٢) كتاب المكاسب: ج ٢، ص ٤٨.

(٣) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٢٥٩ - ص ٢٦٠.

وقد حَقَّرَهَا رسولُ الله ﷺ، حيث يقول: «ما لي والدنيا، إنَّها مثلي ومثل الدنيا، كمثلي راكبٍ قام من القيلولة في ظلِّ شجرة في يوم صائفٍ، ثمَّ راح وتركها»^(١).
وقال ﷺ: «والله، ما الدنيا في الآخرة إلاَّ مثل ما يجعل أحدكم إصبغه هذه في أليم، فليَنظُر بِمَ ترجع!؟»^(٢).

وقال العلامة المجلسي رحمه الله: «واعلم أنَّ مجامع الهوى خمسة أمور، وهي ما جمعه الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿أَتَمَّا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾».

والأعيان التي تحصل منها هذه الأمور سبعة، يجمعها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾^(٣).

أحياناً يُحِبُّ الإنسان الدنيا ولكن لا لذاتها، بل؛ لأنَّها مُقدِّمة موصلة للآخرة، كما روي عن إمامنا الصادق عليه السلام أنَّ رجلاً قال له: «والله إنَّنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصل بها، وأتصدَّق بها، وأحجُّ وأعتَمِرُ. فقال عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»^(٤).

فلذا يوجد في الآية الشريفة حالة من التقابل بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى، حيث ذكرت الآية (وفي الآخرة)، وأنَّها قسيم لقوله: (إنَّما الحياةُ الدُّنيا)^(٥).

فليست الدنيا عبارة عن الجاه والمال فقط، بل هما حظَّان من حظوظها، وإنَّما الدنيا

(١) روضة الواعظين: ص ٤٤٠.

(٢) مسند أحمد: ج ٤، ص ٢٢٩.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٢٩.

(٤) الكافي: ج ٥، ص ٧٢، ح ١٠.

(٥) أنظر: فتح الباري: ج ١١، ص ١٩٨.

عبارة عن حالتك قبل الموت، كما أنَّ الآخرة عبارة عن حالتك بعد الموت، وكلّما لك فيه حظّ قبل الموت فهو دنياك.

وليُعلم الناظر إنّها الدنيا خلقت للمرور منها إلى الآخرة، وإنّها مزرعة الآخرة في حقّ مَنْ عرفها، إذ يعرف أنّها من منازل السائرين إلى الله، وهي كرباط بُني على طريق أُعدّ فيها العلف والزاد وأسباب السفر، فمن تزوّد لآخرته فاقصر منها على قدر الضرورة من المطعم والملبس والمنكح وسائر الضروريات، فقد حرث وبذر وسيحصد في الآخرة ما زرع، ومن عرّج عليها واشتغل بلذاتها وحظوظها هلك^(١).

وذكر شيخ الطائفة الطوسي رحمته الله في تفسير الآية المباركة كلاماً جامعاً، حيث قال: «وإنّما زهّدهم في الدنيا؛ لكونها فانية، ورغبهم في الآخرة؛ لكونها باقية، فمن اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً ومنقوصاً. ومعنى الحياة الدنيا لعب ولهو، أي: ذات لعب ولهو؛ لأنّ غالب أمر الناس في الدنيا اللعب واللهو، وذلك عبث وغرور وانصراف عن الحد الذي يدوم به السرور والحبور.

وقيل: شُبّهت باللعب واللهو لانقطاعها عن صاحبها بسرعة، فالتقدير على هذا إنّما الحياة الدنيا كاللعب واللهو في سرعة الانقضاء، والآخرة كالحقيقة في اللزوم والإمتداد، فأحدهما كالحقيقة، والأخرى كالمخرقة».

ثمّ قال رحمته الله: «اعلموا معاشر العقلاء والمكلّفين ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ يعني في هذه الدنيا ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾؛ لأنّه لا بقاء لذلك ولا دوام، وإنّه يزول عن وشيك، كما يزول اللعب واللهو، ﴿وَزِينَةٌ﴾ تزينون بها في الدنيا، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ يفتخر بعضكم على بعض، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: كلّ واحد يقول مالي أكثر وأولادي أكثر، ثمّ شَبّه ذلك بأن قال: مثله في ذلك ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ يعني مطراً ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾ أي:

(١) أنظر: مجمع البحرين: ج ٢، ص ٦١. ونسبه لبعض العارفين.

أعجب الزُّرَّاع ما نبت بذلك الغيث، فالكفَّار الزُّرَّاع»^(١).

ثمَّ تنتقل الآية لتختم هذا البيان الرائع بحقيقة فيها البشارة والندارة، البشارة للمؤمنين، والندارة للكافرين، حيث تقول: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، عذاب شديد لمن اتخذ الحياة الدنيا حياةً أبدية، ومغفرة من الله ورضوان لمن اتخذها ممراً لا مقراً، وصارت الدنيا عنده كظلٍّ يستظلُّ تحته ثمَّ يرحل، أو عاشها كما عاشها الأنبياء والأوصياء، ومن حذا حذوهم، فإذا صارت الدنيا عندهم كذلك فلا يبالون بها، بل ينتظرون الرحيل عنها؛ لأنَّها متاع المغرور بها.

حينها نعرف قول ذلك الرجل لأبي ذرٍّ: يا أبا ذر ما لنا نكره الموت؟ فقال: «لأنَّكم عمَّرتُم الدنيا وأخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب»، فقال له: فكيف ترى قدومنا على الله؟ فقال: «أما المحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله، وأما المُسئ منكم فكالآبق يرد على مولاه»، قال: فكيف ترى حالنا عند الله؟ قال: «اعرضوا أعمالكم على الكتاب، إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾» قال: فقال الرجل: فأين رحمة الله؟

قال: «رحمةُ الله قريبٌ من المحسنين».

قال: أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): «وكتب رجل إلى أبي ذر - رضي الله عنه - يا أبا ذر أطرمني بشيء من العلم، فكتب إليه: العلم كثير، ولكن إن قدرت أن لا تسعى إلى من تحبه فافعل. قال: فقال له الرجل: وهل رأيت أحداً يُسعى إلى من يحبه؟ فقال له: نعم، نفسك أحبُّ الأنفس إليك، فإذا أنت عصيتَ الله فقد أسأتَ إليها»^(٢).

وهذا الخبر فيه دلالة صريحة على أنَّ تارك الدنيا وطالب الآخرة لا يكره الموت ولا

(١) التبيان: ج ٩، ص ٣٠٩، وص ٥٣٠.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٤٥٨، ح ٢٠.

يرضى ببقائه في الدنيا، بل يريد فراقها شوقاً إلى لقائه عزّ وجلّ، لولا الأجل مكتوب عليه، كما دلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

أو كما يصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المتّقين، حيث يقول: «ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها مُنعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون»^(٢).

إذن المائز الحقيقي بين المتّقين وغيرهم هو شدّة علوقهم بالدنيا وعدمها، فالتناسب عكسي، أي: كلّما ازدادت رغبة الإنسان في الدنيا وتعلّقه فيها ضعف رصيده الأخروي، والعكس بالعكس، وهذا معنى قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الدنيا والآخرة عدوّان متفاوتان، وسيلان مختلفان، فمن أحبّ الدنيا وتولّاها أبغض الآخرة وعادها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما، كلّما قرب من واحد بُعد من الآخر، وهم بعدُ ضرتان»^(٣).

أما الذي يكون سبيله الحقيقي الذي يشخص ببصره إليه دائماً وأبداً هو الله عزّ وجلّ فلا يبالي حينئذٍ، بل يكون لسان حاله:

تركتُ الخلق طُراً في هواكا وأيتمتُ العيال لكي أراكا
فلو قطعني بالحُب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا

(١) أنظر: شرح أصول الكافي: ج ١٠، ص ٢١٤، والآية ٦ من سورة الجمعة.

(٢) نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٦١، خطبة المتّقين رقم ١٩٣.

(٣) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٢٣، رقم ١٠٣.

وكيف لا تكون هذه ترانيمه العرفانية، وكلماته الإلهية، وهو صاحب أعظم دُعاء في يوم عرفة، الذي قال فيه مخاطباً رب العالمين: «عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبك نصيباً»^(١).

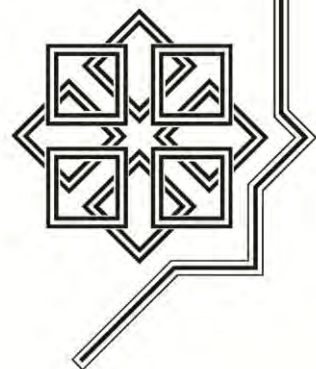
إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّٰهِ العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
والعاقبة للمتّقين.

(١) من أخلاق الإمام الحسين: ص ٢٥٨. أنظر: بحار الأنوار: ج ٦٤، ص ١٤٢.

الحاضرة المعرفة التابث



حَسَنَ الظَّنِّ
وَسَوْءَ الظَّنِّ



أُطِيبُ عَيْشِي بَعْدَ وَقْعَةِ كَرْبَلَاءَ وَأَكُونُ فِيمَا أُرْتَدِيهِ أُنَيْقَا
وَأَذُوقُ طَعْمَ الْمَاءِ وَابْنُ مُحَمَّدٍ مَا ذَاقَهُ حَتَّى الْحَمَامُ أَذِيقَا
لَا عَذَرَ لِلشَّيْعِيِّ يَرْقَأُ دَمْعُهُ وَدُمُ الْحُسَيْنِ بِكَرْبَلَاءَ أَرِيقَا
يَا يَوْمَ عَاشُورَاءَ لَقَدْ خَلَقْتَنِي مَا عَشْتُ فِي بَحْرِ الْهَمُومِ غَرِيقَا
فِيكَ أَسْتَبِيحُ حَرِيمُ آلِ مُحَمَّدٍ وَتَمَزَّقْتُ أَسْبَابَهُمْ تَمَزِيقَا
قَتَلُوا الْحُسَيْنَ وَرَوَّعُوا قَلْبَ الْهَدَى ظُلُمًا وَفَرَّقَ شَمْلَهُ تَفْرِيقَا
تَرْكُوهُ عَارٍ بِالْفَلَاةِ وَأَقْبَلُوا نَحْوَ الْمُخَيَّمِ الْهَبُوهُ حَرِيقَا
لَهْفِي لَزِينَبَ بَعْدَ فَقْدِ حُمَاتِهَا قَطَعْتُ مَعَ الْخَصْمِ الْمَشُومِ طَرِيقَا^(١)

وَكَاثِي بِهَا تَخَاطَبَ حُمَاتِهَا، وَهَمَّ مَجْزُرُونَ كَالْأَضَاحِي:

أَنَا امشيت درب الماشيته وَجْتَّالَ أَخِيَّ رَافَكِيْتَهُ
مَنْ جَلَّتِ الْوَالِي نَخِيْتَهُ شَتَمَ وَالِدِي وَانْكَرَ وَصِيْتَهُ

(١) الأبيات الأربعة الأولى للشاعر محمد السوسي ذكرها العلامة المجلسي رحمته الله في البحار (ج ٤٥، ص ٢٤٥) مع تغيير في بعض الكلمات، وما بعدها فهي لأستاذنا الشيخ محمد سعيد المنصوري رحمته الله، ذكرها في ميراث المنبر: ص ٦٧ الطبعة الحديثة. قال السيد جواد شبر رحمته الله في أدب الطف (ج ٢، ص ١١٩) مترجماً للشاعر السوسي: «الأمير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد السوسي، توفي في حدود سنة ٣٧٠ هـ ودفن بحلب، كان فاضلاً أديباً كاتباً بحلب، وسافر إلى فارس، ثم عاد إلى محله، ذكره ابن شهر آشوب في معالم العلماء في شعراء أهل البيت المجاهرين... والسوسي نسبة إلى السوس كورة بأهواز، فيها قبر دانيال عليه السلام، مغرب شوش، وولد بالمغرب، وولد آخر بالروم».

وأما شيخنا الأستاذ المنصوري رحمته الله فقد تقدمت ترجمته في المحاضرة السادسة.

ولسان حالها:

بس ما غبت وكفيت يحسين	عن كربله صرنه مضعنين
خذوني يسيره وتدمع العين	ومدري وجوه الغوم لا وين
للكوفة يو للشام ناوين	والدرب تدري يريد له اثنين
أنصار يو أخوه المينين	ولو ياي ما غير النساوين
أباري الضعن ماليش تمكين	عاد أرضه والله يريحني البين

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكْ بِعَصِ الظَّنِّ أَنتُمْ﴾^(١).

ينقسم الظن إلى قسمين، هما:

الظن الحسن، و الظن السيء، ولا شك في أن الأول منهما راجح شرعاً وعقلاً، ولا غبار عليه، بل هو من صفات المؤمنين المخلصين، وحسن الظن لا يختص بحسن ظن الإنسان بإنسان آخر، بل هو يشمل حتى حسن الظن بالله تبارك وتعالى، حيث روي أن الله سبحانه وتعالى يقول: «أنا عند حسن ظن عبدي المؤمن، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(٢).

فمن هنا كان ينبغي لكل مؤمن أن لا ييأس من رحمة الله، ولا يظن أن الله سبحانه لا يرحمه، وأنه يعذبه، وأن ما يُصيبه في الدنيا من المصائب والأمراض والفقر هو شر له وعقوبة، بل ينبغي أن يعلم أن الله أرحم به من والديه، وما يُصيبه من المصائب هو خير وصلاح وذخيرة له في يوم المعاد. ورأى بعضهم في المنام صاحباً له على أحسن حال، فقال: بأي شيء نلت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي، وما ينال أحد خير الدنيا والآخرة إلا بحسن الظن بالله تعالى.

(١) الحجرات: آية ١٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٣٨٥ - ص ٣٨٦، ح ٤٤٤.

وكذلك لا يظنّ السوء بالمسلمين، ويفسّر كلّ عمل منهم تفسيراً غير صحيح، بل يجب عليه أن يُفسّر تصرف الناس على أحسن الوجوه، إلا إذا كان متيقّناً ومتأكّداً من فعل يتطلب منه أن يفسّره بتفسير واقعي حفاظاً على حقوق الناس^(١).
فعن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «اطْلُبْ لأخيك عذراً، فإن لم تجد له عُذراً فالتمس له عُذراً»^(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(٣).
ويجب على الإنسان أن لا يضع نفسه في موضع التهمة، ثمّ يعترض على الناس حيث يظنون به سوءاً، فمن صدّق المفسدين وجالسهم سوف يُظنّ به سوءاً، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ومن عرّض نفسه للتهمة، فلا يلومنّ من أساء به الظنّ»^(٤).
في أوّل الأمر نلفت الانتباه إلى التفريق بين الشكّ والظنّ والعلم، فنحن تارة نصف إنساناً ما بأنّه شاكّ، وأخرى بأنّه ظانّ، وثالثة بأنّه عالم بالأمر الكذائي، فما هو الفرق وما هو المناط والمبرر لإمكانية وصف الإنسان بأحد هذه الصفات؟
والجواب: إنّ الشكّ هو استواء كفتي الاحتمالين إثباتاً ونفيّاً، والظنّ بترجيح كفة أحدهما على الآخر مع بقاء الطريق مفتوحاً للذي خفّ ميزانه، والعلم تعيين أحدهما مع سدّ الطريق على الآخر من الأساس.
وقد تظنّ بإنسان خيراً أو شراً، وقد تكون مُصيباً في ظنّك أو مخطئاً، ولا بأس عليك إطلاقاً في حسن الظنّ بأخيك أصبت أو أخطأت، ظهر أثر ذلك في أقوالك أو أفعالك، أو لم يظهر.

(١) الأخلاق والآداب الإسلامية: ص ٤٦٩.

(٢) الخصال: ص ٦٢٢.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٣٦٢، باب التهمة وسوء الظنّ، ح ٣.

(٤) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٤١، ح ١٥٩.

فإذا صدر من الإنسان عمل من الأعمال أو قول من الأقوال يمكن حمله على وجه صحيح، وعلى وجه فاسد، فهل يحمل على الصحة، أو على الفساد، أو يجب التوقف وعدم الحكم بشيءٍ إلاّ بدليل قاطع؟

ومثال ذلك: أن ترى رجلاً مع امرأة لا تدري هل هي زوجته، أو أجنبية عنه، أو تسمع كلاماً وأنت لا تدري هل أراد به المتكلم النيل منك، أو لم يرد ذلك، فما هو الحكم حينئذٍ؟ لقد اتفق الفقهاء على وجوب الحمل على الصحة في ذلك وأمثاله.

وهذا مبدأ إنساني بحث؛ لأنّه يُكرّس كرامة الإنسان، ويؤكد علاقة التعاون والتعاطف بين الناس، ويتعد بهم عمّا يثير الكراهية والنفور، وبهذا يتبين أنّ الإسلام لا يقتصر على العقيدة والعبادة، بل إنّهم بالإنسانية وخيرها، ويرسم لها الطرق التي تؤدي بها إلى الحياة المثمرة الناجحة.

ثمّ إنّ الآية قالت: (كثيراً من الظنّ) ولم تقل كلّ الظنّ، فما هو السبب في ذلك؟ السبب يرجع إلى أنّ (كلّ) من صيغ العموم، تشمل حسن الظنّ وسوء الظنّ، بخلاف كلمة كثير، فقد تستعمل بمعنى بعض وبمعنى معظم، وهذا هو المراد بكلمة كثير في الآية، والقصد: هو حصر موضوع الآية ودلالاتها بسوء الظنّ.

وسوء الظنّ من حيث هو ودون أن يظهر أثره في قول أو فعل ليس بجرم، وصاحبه غير مسؤول عنه؛ لأنّ الإنسان لا حرية له في ظنونه وتصورات، ولكن عليه أن لا يُعوّل على ظنّ السوء، ويعتبره وكأنّه لم يكن، وإذا عوّل عليه وظهر أثر ذلك في قول، أو فعل، كان مسؤولاً ومستحقاً للذمّ والعقاب، وهذا هو الظنّ الذي أراد سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

قال الرسول الأعظم ﷺ: «ثلاثة لا يسلم منها أحد: الطيرة والحسد والظنّ، فإذا تطيرت فأمض، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق»^(١).

(١) ميزان الحكمة: ج ٣، ص ٢٣٥٤، ونسبه إلى العامة.

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿أَجْنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾: لا تعولوا عليه ولا تعملوا به^(١).

ولذا تجد بعض الناس يرتّب الأثر على أدنى احتمال، والبعض الآخر يتوقّف ولا يقول شيئاً إلى أن يتّضح الأمر، وهناك من يترك ظنّه ويحمل عمل الإنسان الآخر على الصّحّة. جاء رجلان إلى أحد المراجع، أحدهما يحمل أموالاً إلى هذا المرجع، والآخر جاء ليطلب المساعدة، وبينما هما ينتظران المرجع، سأل الفقير الرجل الآخر عن سبب مجيئه؟ فقال الرجل الآخر: جئت لأعطي هذه الحقوق الشرعية إلى المرجع الديني. قال الرجل الفقير في نفسه: نعم، أتركه يدخل فإذا دخل هذا الرجل وأعطى الأموال لهذا المرجع أدخل بعده وأشكو حاله، وأقول إنّي فقير ومحتاج. دخل الرجل صاحب الأموال على المرجع، وبقي الآخر ينتظر خارج الغرفة ولم يعرف ماذا حصل في الداخل.

بعد فترة دخل الرجل الفقير على ذلك المرجع الرّباني، وقال له: مولانا أنا رجل محتاج وفقير، وجئت طالباً للمساعدة من الحقوق التي عندكم. قال المرجع: علّم الله أنه ليس عندي من الحقوق لا قليل ولا كثير منها. تعجّب هذا الرجل وقال في نفسه: عجباً، قبل قليل دخل هذا الرجل وهو يحمل حقوقاً شرعية إليه، والآن يقول لي: ليس عندي من الأموال لا قليل ولا كثير!! بقي هذا الرجل في حيرة من أمره، أيكذب الرجل، أم يكذب المرجع، أم نفسه، أم ينتظر إلى أن يتأكّد من الأمر لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، مضت فترة من الزمن على تلك الحادثة، وذات يوم صادف ذلك الرجل الذي كان قد جاء لإعطاء الحقوق، وسأله عن القصّة قائلاً له: ألم تقل في اليوم الذي التقينا فيه: بأنك جئت بحقوق شرعية إلى ذلك المرجع؟

(١) آيات منتخبة من القرآن الكريم: ص ٢٤٣ - ص ٢٤٥.

قال: بلى، قلتُ ذلك، وكنتُ صادقاً.

قال الرجل الفقير: ولكنني دخلت بعدك بفترةٍ وجيزة وطلبت من المرجع شيئاً يساعدني به، فقال لي: ليس عندي من الأموال والحقوق لا قليل ولا كثير.

قال صاحب الحقوق: صدق المرجع.

قال الفقير: وكيف ذلك؟

قال: لأنني في ذلك الوقت ما أعطيته الأموال؛ لأنني وجدت عنده مجموعة من الضيوف، وما أحببت أن أزاحمه في هذا الوقت، فخرجت ورجعت في يوم آخر وأعطيته الأموال.

فلو لاحظنا هذه القصة وتأملنا فيها قليلاً لعرفنا مدى أهمية التحقق، ومع كل هذا، فإنَّ الرجل الفقير لم يُرتَّب الأثر ولعلَّه لتقواه، ولكن ترى البعض يشهر بالأمر إلى درجة تصل إلى السبِّ والشتم والنيل حتَّى من العرض، وهذه مشكلة الإنسان قديماً وحديثاً، وهناك قصص عديدة لو أردنا استعراضها لطلال بنا المقام لكن العاقل المتدينِّ والحرَّ تكفيها الإشارة.

ولا شكَّ أنَّ الظنَّ بمثل هؤلاء المتدينين يكون أكثر إشكالاً من غيرهم؛ لأننا نعتبرهم قادةً لنا ونرجع إليهم ونجعلهم الأمناء على الدين، والإنسان الذي نجعله أميناً على ديننا من الأولى أن لا نتهمه في ديانا، فما قيمة الأموال حتَّى نتهم فيها من نأخذ منه الأحكام الشرعية.

ولكن بعض الناس من الفسقة الفجرة لا تشملهم هذه الآية، فلنا أن نظنَّ بهم مثل ما ظهر منهم.

فهؤلاء الذين باعوا دينهم للشيطان استغلَّوا هذا المبدأ الإنساني الذي ذكرناه، وهو الحمل على الصحة، وجاءوا به ليبرروا عمل الظالمين والقراصنة.

فإنّ مبدأ الحمل على الصّحة لا ينطبق على أعمال السلب والنهب والاحتيال والتضليل، وما إلى ذلك ممّا نعلم علماً اليقين أنّه من المحرّمات والموبقات، وإنّما ينطبق على ما يُحتمل فيه الصدق والكذب، والصّحة والفساد^(١).
 فهل يُمكن لأيّ إنسان عاقل أن يتوقّف بظنّه تجاه بني أمية وبني العباس فيما صنّعهو بآل البيت.

تَبَّأَ لَهُمْ مِنْ أُمَّةٍ لَمْ يَحْفَظُوا عهدَ النَّبِيِّ بِآلِهِ الْأَمْجَادِ
 قَدْ شَتَّتُوهُمْ بَيْنَ مَأْسُورٍ وَمَقْهُورٍ ومنحورٍ بِسَيفٍ عَنَادِ

فلم يتركوا منهم أحداً كبيراً ولا صغيراً، حتّى الطفل الرضيع، فقد جاءت الحوراء زينب عليها السلام إلى أخيها الحسين عليه السلام تحمل عبد الله الرضيع عليه السلام، ودفعته إليه وهي باكية، قالت: أخي، خذ طفلك. قيل: فأجلسه في حجره يُقبّله، ويقول: بعداً لهؤلاء القوم إذا كان جدُّك المصطفى خصمهم. ثمّ أتى به نحو القوم يطلب له الماء قائلاً: «يا قوم قد قتلتم إخواني، وأولادي، وأنصاري، وما بقي غير هذا الطفل، وهو يتلظى عطشاً من غير ذنب أتاه إليكم، فاسقوه شربة من الماء»، فاختلف العسكر فيما بينهم، منهم من قال: إذا كان ذنب للكبار فما ذنب هذا الطفل؟ ومنهم من قال: اقتلوه ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية.
 فلمّا رأى ابن سعد ذلك صاح بحرمة: ويلك يا حرمة، اقطع نزاع القوم. قال حرمة: فما أصنع؟ قال: إرم الطفل بسهم.

قال حرمة (لعنه الله): فرأيت رقبتَه تلمع على عضد أبيه الحسين عليه السلام، فرميت الطفل بسهمي، فذبحته من الوريد إلى الوريد، فلمّا أحسَّ الطفل الرضيع بحرارة السهم، أخرج يديه من القماط واعتنق أباه، وجعل يرفرف كالطير المذبوح.

فملاً الحسين عليه السلام كفه من دمه، ورمى به نحو السماء، قائلاً: «اللَّهُمَّ لَا يَكُنْ أَهْوَنَ

(١) أنظر: آيات منتخبة من القرآن الكريم: ص ٢٤٤.

عليك من فضيل ناقة صالح^(١).

تلگه إحسين دم الطفل بيده إشحال اليحتل إحظنه وليده
 سال اوترس جفه من وريده أودبّه للسمه وللگاع ما خر
 أويلي من لفت سکنه تنادي يبويه العطش هالفتت أفادي
 صدت لن أخوها الطفل غادي يلوح رگبته اودمه يفور
 يبويه ذاب جبدي اوچدة أمّه دخليني أودعنه وشّمه
 يبويه ليش ما تسجيه دمّه بلچن چبدته تبرد من الحرّ
 يخويه عون من جبّك اوشمّك يخويه عون من راواك لأُمّك
 لغسلنّك يخويه ابفيض دمك اوگبرك بالگلب يا خويه لحفر
 وأمّا حال أمّه الرباب:

ردوك بيني ابسهم مفطوم يالرحت عن الماي محروم
 بعدك لحرم لذة النوم واصبغ يعكلي سود الهدوم

وابچي عليك ابگلب مألوم

وربّ رضيع أرضعته قسيهم من النبيل ثدياً درّه الثرّ فاطمه

إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم،

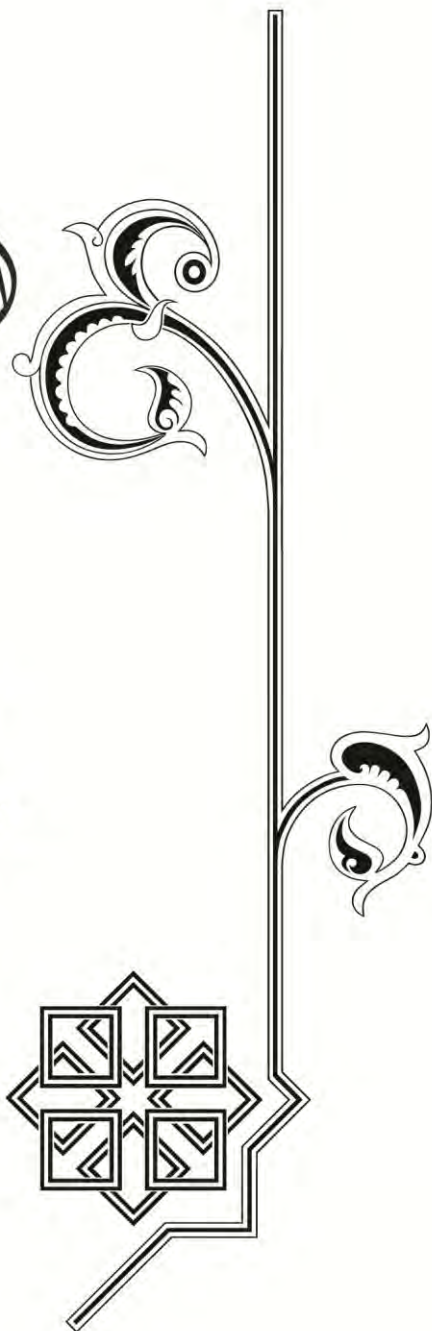
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُقلبٍ ينقلبون

والعاقبة للمتقين.

(١) مجمع مصائب أهل البيت (عليه السلام): ج ١، ص ٢٠٥ - ص ٢٠٦.

الحاضرة العرف الثامنة

الحمد لله



ولَّى الشبابُ وأيامُ الصبا دُرست
والدهرُ شَنَّ عليَّ اليومَ غارته
ولا ملاذَ ولا ملجأَ الوُدِّ بهِ
سوى إمامِ الهدى المهدي مُعتمِي
مَنْ يملأُ الأرضَ عدلاً بعد ما مُلئت
متى نراه وقد حَفَّتْ به زُمُرُ
يائثراً غَضَّ جفنيه على مَضَضٍ
غداة حلَّ أبو السجادِ ساحتها
يأبى الدنيةَ سبطُ المصطفى فلذا
وبعد مالفٍ أولاهم بأخِهم
أصابه حجرٌ قد شجَّ جبهته
وشعلةُ الشيبِ منها مفرقي التهبأ
كأنَّما تِرةٌ عندي له طَلَبَا
من الزمانِ إذا طرف الزمانِ كبا
وجنةٌ أتقي عني بها التُّوبا
جوراً ويوردنا تيارَه العذبا
من آلِ هاشم والأُملاكِ والتُّقبا
هلاً أتاكَ بأخبارِ الطفوفِ نبا
وأسدَ هاشمٍ للهِيجا قد انتدبا
عن ذلَّةِ العيشِ في عزِّ الوغى رَغبا
وساقهم فسقاهم أكُوساً عطبا
وشَيْبُهُ من مُحْيَاه قد اختضبا^(١)

(١) القصيدة للسيد مهدي السيد هادي القزويني رحمته الله، قال عنه في أدب الطف (ج ٩، ص ٣١١ - ص ٣١٢):

«السيد مهدي ابن السيد هادي ابن الميرزا صالح ابن العلامة الكبير السيد مهدي الحسيني القزويني الحلي. علم من الأعلام، وفدٍّ من أفذاذ الأسرة القزوينية، ويطلق عليه لقب الصغير تمييزاً له عن جده الأعلى. ولد في بلدة طويريج (الهندية) عام ١٣٠٧ هـ، ونشأ فيها منشأ العزِّ والفخار... وبعد ذلك أخذ يتلمى من دروس إخوته الأعلام، فحضر عند أخويه: الباقر والجواد، واستفاد منهما كثيراً، وهاجر إلى بلد جده أمير المؤمنين، فأتَمَّ علومه اللسانية والبيانية، كما حضر على السيد كاظم اليزدي في الفقه والأصول، كما حضر عند الحجة الشيخ هادي كاشف الغطاء، وغيرهما من الأساطين، ثمَّ هاجر إلى مسقط رأسه؛ ليسدَّ الثغرة ويرشد الضال ويهدي المجتمع، وكان على جانب من دماثة الخلق والتواضع، رحب الصدر، يودُّ جلسه أن يطيل معه الجلوس، وأن لا ينتهي المجلس مهما امتدت ساعاته الطوال، حيث كان لطيف المعشر خصب المعلومات، هذا وكانت وفاة المترجم له عشية الأربعاء ١٣ ربيع الأول من سنة ١٣٦٦ هـ، وقد شيعَ إلى مرقده الأخير في مقبرة الأسرة بالنجف الأشرف، ولم يعقب من الذكور ذرية».

(نصاري)

هوت فوگه أو گلبها عليه طایر هذا حسين إخوي إشلون صایر
بيت الچان مگصد للعشایر طاح الواسطة اوللگاع هوّد

(موشح)

إعله الترب طایح وهو نايم جریح أو ظلّت إجروحه یویلي دم تسیح
وهو ابهذا الحال لن زینب تصیح گوم یابن الفحل واحمي العایله
هجمت إعلینه تره إخیول العده اوصارت إخیامک یخویه امفرهده
هذا بینه الصار واعلینه السده وابنک السجاد یا خویه إنوله

(أبوزیدة)

روحي مازهت ساعة وصاحت المثلي منسبت حرّه وصاحت
عله التل أوچبت زینب وصاحت انهبوا یحسین خدر الفاطمیة

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(١).

الحسد: هو تمنّي زوال النعمة عن الآخرين، سواء وصلت تلك النعمة إلى الحسود أم
لم تصل إليه، وعلى هذا الأساس تنصب جهود الحسود على فناء ما لدى الآخرين وزواله
عنهم، أو تمنّي ذلك.

والحسد مذموم، ويدعو الإنسان إلى الحقد والبغض والكره، وهو من الأمراض

(١) النساء: آية ٥٤.

العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلب إلا بالعلم والعمل، وذلك بأن تعلم حقيقة الحسد وضرره على الإنسان في دار الدنيا والآخرة، وإنَّ المحسود لا ضرر عليه، بل يحصل على الثواب نتيجةً لذلك.

ويجب أن يعرف الحاسد أنَّ ما عنده وعند غيره هو من قضاء الله وقدره، وأنَّ الحسد لا يورث إلا التآلم والعذاب، والهمّ والغمّ بلا مقابل، وبلا فائدة.

ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد؛ نفس دائم، وقلب هائم، وحنن لازم»^(١).

وقال الشاعر:

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله
كالنار تاكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

والواقع هو هذا؛ إذ إنَّك تجد الحاسد دائماً متألماً، يتتبع أحوال الناس، مراقباً لهم، وقد قيل: «من راقب الناس مات هماً»^(٢)، فتجده دائماً مهموماً مغموماً، هائم القلب، ملازماً للحزن، كما تقدم في تعبير أمير المؤمنين عليه السلام.

وهذه الخصلة الخبيثة أورثت الحزن الدائم لكثير من الناس، فهذا هو القرآن الكريم يُصرّح بأنَّ أول جريمة قتل أُرْتُكبت في الأرض كان منشؤها الحسد، قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

ومناشئ هذه الخصلة الذميمة - من الناحية المعنوية - الضعف في الشخصية، وعقدة

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٢٥٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٢٤٠.

(٣) المائدة: آية ٢٧.

الحقارة والجهل، وقصر النظر، وقلة الإيمان؛ لأنَّ الحاسد - في الحقيقة - يرى نفسه أعجز وأقل من أن يبلغ ما بلغه المحسود.

هذا، مضافاً إلى أنَّه بعمله هذا يعترض على حكمة الله سبحانه وتعالى واهب جميع النعم، وجميع المواهب، في إعطائه سبحانه لمن تفضل بها عليه من الناس، ولهذا جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «الحسد: أصله من عمى القلب، والحدود لفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً»^(١).

وقد حصر بعضهم - كالعلامة المجلسي رحمته الله - أسباب الحسد في سبعة أمور:
الأول: العداوة.

الثاني: التعرُّز، أن يكون من حيث لا يعلم أنَّه يستكبر بالنعمة عليه، وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزّة نفسه.

الثالث: الكبر، أن يكون في طبع الحاسد أن يتكبر على المحسود، ولا ترضى نفسه المتعالية أن يحصل أحدٌ على نعمة غيره هو!

الرابع: التعجّب، أن تكون النعمة والمنصب كبيراً، فيعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة، كما أخبر الله تعالى عن الأمم الماضية، إذ قالوا: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾^(٢)، وأمثال ذلك كثير، فتعجبوا من أن يفوزوا برتبة الرسالة والوحي والقرب مع أنَّهم بشر مثلهم فحسدوهم، وهو المراد بالتعجب.

الخامس: الخوف، بأن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمة أنعمها الله عزَّ وجلَّ على المحسود، بأن يتوصّل المحسود بها إلى مزاحمته في أغراضه.

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠: ص ٢٥٥. تفسير الأمثل: ج ٣، ص ٢٧٥.

(٢) يس: آية ١٥.

السادس: حبّ الرئاسة، أن يحب الرئاسة التي تبتني على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها.

السابع: خبث الطينة، أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب، بل لخبث النفس وشحّها بالخير على عباد الله^(١).

هذه هي أهم مناشئ وأسباب حصول الحسد وصدوره.

فلو صدرت هذه الخصلة الخبيثة - لا سمح الله - فسوف تترتب النتائج السلبية عليها، وهناك عدّة نتائج وخيمة تترتب على الحسد سواء أكانت راجعة إلى نفس الحاسد من حقد وغير ذلك، أم راجعة إلى المحسود نفسه، أم للمجتمع الذي تقع فيه هذه الجريمة الوقحة، والخصلة المذمومة عند الله عزّ وجلّ وعند الناس.

ومن أهمّ هذه النتائج، أنّ الحسود يصرف كلّ أو جُلّ طاقاته البدنية والفكرية - التي يجب أن تُصرف في ترشيد الأهداف الاجتماعية - في هدم وتحطيم ما هو قائم، ولهذا فهو يبدّد طاقاته الشخصية والطاقات الاجتماعية معاً.

ومن النتائج الخطيرة للحسد أيضاً، أنّه يُعدّ الدافع لكثير من الجرائم في هذا العالم، فلو أنّنا درسنا العلل الأصلية التي تقف وراء جرائم القتل والسرقة والعدوان، وما شابه ذلك، لرأينا - بوضوح - أن أكثر هذه العلل تنشأ من الحسد، ولعله لأجل هذا شبّه الحسد بشاررة من النار يمكنها أن تهدّد كيان الحاسد، أو المجتمع الذي يعيش في وسطه بالخطر وتعرّضه للضرر.

يقول أحد العلماء: إنّ الحسد من أخطر الصفات، ويجب أن يُعتبر من أعدى أعداء السعادة، فيجب أن يجتهد الإنسان لدفعه والتخلص منه.

والملفت للنظر اليوم هو أن أكثر المجتمعات أصبحت مملوءة بالأمراض والآلام

(١) الأربعون حديثاً: ص ١٠٨ - ص ١٠٩، ضمن الحديث الخامس. وأنظر: بحار الأنوار: ج ٧، ص ٢٤٠.

الجسدية من عصبية وغيرها. ومردُّ الأكثر من هذه الأمراض إلى خبث السريرة والخبث والجسد.

ومن هنا ورد عن طيب النفوس أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «صحة الجسد من قلة الحسد»، و«العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد»^(١).

بل وردت روايات تُصرِّح بأن الحسد يضرُّ بالحاسد قبل أن يضرَّ بالمحسود، بل ويؤدي إلى القتل والموت تدريجاً، وربما أدى إلى الموت دُفعةً، كما حكي ذلك في التاريخ: أن رجلاً من أهل النعمة ببغداد في أيام موسى الهادي حسد بعض جيرانه، وسعى عليه بكل ما يمكنه ممَّا قدر عليه، فاشترى غلاماً صغيراً فربَّاه، فلما شبَّ واشتدَّ أمره أمره بأن يقتله على سطح جاره المحسود؛ ليؤخذ جاره به ويُقتل.

حيث إنَّه عمد إلى سكين فشحذها ودفعها إليه، وأشهد على نفسه أنه دبره^(٢) ودفع إليه من صلب ماله ثلاثة آلاف درهم، وقال: إذا فعلت ذلك فخذ في أي بلاد الله شئت، فعزم الغلام على طاعة المولى بعد التمتع والالتواء، وقوله له: الله الله في نفسك يا مولاي، وأنت تتلفها للأمر الذي لا يُدرى أيكون أم لا يكون؟! فإن كان لم تر منه ما أملت وأنت ميّت، فلما كان في آخر ليلة من عمره قام في وجه السحر، وأيقظ الغلام فقام مذعوراً وأعطاه المديّة^(٣)، فجاء حتّى تسوّر حائط جاره برفق، فاضطجع على سطحه فاستقبل القبلة ببدنه، وقال للغلام: ها وعجّل، فترك السكين على حلقه، وفرى أوداجه ورجع إلى مضجعه، وخلاه يتشحّط في دمه، فلما أصبح أهله خفي عليهم خبره، فلما كان في آخر

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٥٠ - ص ٥٥، عنه بحار الأنوار: ج ٧، ص ٢٥٦، ح ٢٨. تفسير الأمثل: ج ٢،

ص ٢٧٤.

(٢) دبره: بأن قال للعبد: أنت حر دبر - أي بعد - حياتي.

(٣) المديّة: السكين الكبير.

النهار أصابوه على سطح جاره مقتولاً، فأخذ جاره فحبس، فلما ظهر الحال أمر الهادي بإطلاقه^(١).

ومن النتائج المهمة أيضاً - بالإضافة إلى ما تقدّم من الحزن والهَمّ والضرر للنفس وغير ذلك - هو ذهاب حسنات الحاسد إلى المحسود، وغضب الله عليه، فعن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «إياكم والحسد؛ فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(٢).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»^(٣). بل إنّ الحسد هو أصل الكفر، كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام: «إياكم أن يحسد بعضكم بعضاً، فإنّ الكفر أصله الحسد»^(٤).

ولو تأملنا في معنى الآية التي افتتحنا بها المحاضرة لرأينا أن الآية موجّهة خطابها إلى اليهود بحسب السياق في الآيات التي قبلها، حيث إنّ الكلام في الآيات التي قبلها موجّه إلى اليهود من حيث اتصال الكلام لا من حيث حجية السياق دائماً.

فالآيات التي قبل هذه الآية موجّهة خطابها إلى النبي الأعظم ﷺ أن ينظر إلى اليهود، قال تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ... أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ...﴾.

من هنا نجد أنّ بعض المفسرين فسّر (أم) هنا بـ(بل) بمعنى: بل اليهود يحسدون الناس على ما آتاهم الله!!

ومن هنا لا بدّ من معرفة هؤلاء الناس، فمن هم الناس المحسودون؟ قلنا: إنّ الآية

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٢٦٠، عنه سفينة البحار: ج ٢، ص ١٧٨.

(٢) الدر المنثور: ج ٢، ص ١٧٣.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٣٠٦، باب الحسد، ح ١.

(٤) تحف العقول: ص ١٣٥.

موجهة خطابها إلى النبي ﷺ بأن ينظر إلى اليهود بأنهم لماذا يتعجبون من إعطاء النبي ﷺ وبني هاشم ذلك المنصب الجليل، وذلك المقام الرفيع، وقد أعطاكم الله سبحانه وتعالى، وأعطى آل إبراهيم ﷺ الكتاب السماوي والعلم والحكمة والملك العريض، مثل (ملك موسى وسليمان وداود)، ولكنكم - مع الأسف - أسأتم خلافتهم، ففقدتم تلکم النعم المادية والمعنوية القيمة بسبب فسوقكم وشروركم: ﴿ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

والمراد من الناس في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ - كما أسلفنا - هم رسول الله وأهل بيته ﷺ؛ لإطلاق لفظة الناس على جماعة من الناس، وأمّا إطلاقها على شخص واحد وهو النبي خاصة، فلا يصح، ما لم تكن هناك قرينة على إرادة الواحد فقط. هذا، مضافاً إلى أن كلمة إبراهيم قرينة أخرى على أن المراد من (الناس) هو النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ؛ لأنه يستفاد من قرينة المقابلة أننا إذا أعطينا لبني هاشم مثل هذا المقام ومثل هذه المكانة - فلا داعي للعجب - فقد أعطينا آل إبراهيم أيضاً تلك المقامات المعنوية والمادية بسبب أهليتهم وقابليتهم^(١).

أضف إلى ذلك كله ما ورد في الروايات في تفسير هذه الآية من طرق الخاصة والعامة^(٢) أن المقصود من الناس هم النبي وأهل بيته ﷺ.

والمقصود بالملك العظيم الذي أعطاه الله تبارك وتعالى لآل إبراهيم: هو الطاعة لهم ولآل المصطفى ﷺ بقرينة المقابلة.

وفي بعض الروايات في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: «نحن الناس والله»^(٣).

(١) أنظر: تفسير الأمثل: ج ٣، ص ٢٧٢ - ص ٢٧٣. تفسير الميزان: ج ٤، ص ٢٧٦.

(٢) نسبه في الأمثل إلى الدر المنثور وروح المعاني، فلاحظ.

(٣) تفسير البرهان: ج ٢، ص ٢٤٠ - ص ٢٤٦.

ولكن، هلمَّ معي وأنظر ماذا صنعوا بهم، يا ليتهم اكتفوا بالحسد بالقلب واللسان، ولكن أبى القوم إلا أن يجزّروهم على رمضاء كربلاء، ومن بعد ذلك سبوا العيال والأطفال، حتّى وصل بهم الأمر إلى سلب النساء.

قالت فاطمة بنت الإمام الحسين (عليه السلام): كُنْتُ واقفةً بباب الخيمة، وأنا أنظر إلى أبي وأصحابه مجزّرين كالأضاحي على الرمال، والخيول على أجسادهم تجول، وأنا أفكر فيما يقع علينا بعد أبي من بني أُمّية، أيقتلوننا، أو يأسروننا؟! فإذا برجل على ظهر جواده، يسوق النساء بكعب رمح، وهن يلذن بعضهنّ ببعض، وقد أخذ ما عليهنّ من أخمة وأسورة، وهن يصحن: وا جداه وا أبتاه، وا علياه، وا قلّة ناصراه، وا حسيناه، أما من مجير يجيرنا؟ أما من ذائد يذود عنّا؟^(١)

(نصاري)

أوبين الأعادي ضيعونه	اشصاير بهلنه أولا لفونه
اويدرون بينه راح أخونه	ننخه اولاهم يسمعونه

اوجاير بالضرب ويلى عليها	يسلبها العدو او يشتم وليها
أودمعها إيسيل عالوجنات محمر	تهبط راسها او تشكّف بديها

(نعي مجاريد)

يسمعوني او يغضون إخوتي	أنه شايطه ونده إيصوتي
ولا أشوف العده تنهب إيتوتي	ياريت جبل احسين موتي

(١) أنظر: بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٦٠.

(أبودية)

لا ترفع الشيعة بعد هامات اوبنات أهل الوحي امن الخيم هامات
ها حيّ تصيح احسين هامات لون بيه روح محمد وصل ليه

أخي كيف أمشي في البوادي مضامه وأنت بأسيف الأعادي موزع

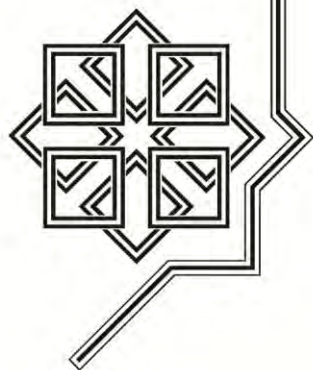
إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أيّ مُنقلبٍ ينقلبون
والعاقبة للمتقين.

الحاضرة المقدسة



معجرات

الإمام الحسين
عليه السلام



إِمَامٌ بَكَتُهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالسَّمَاءُ
وَفِيهِ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ وَقَوْلُهُ
حُبِّي بِثَلَاثٍ مَا أَحَاطَ بِمِثْلِهَا
لَهُ تَرْبُةٌ فِيهَا الشِّفَاءُ وَقَبَّةٌ
وَذُرِّيَّةٌ ذُرِّيَّةٌ مِنْهُ تَسْعَةُ
هُمُ النُّورُ نُورُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ
وَلَوْ لَا هُمْ لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ آدَمًا
أَيَقْتُلُ ضَمَانًا حَسِينٌ بِكَرْبَلَا
وَوَالِدُهُ السَّاقِي عَلَى الْحَوْضِ فِي غَدٍ
يَعِزُّ عَلَيْهَا أَنْ تَرَاهُ عَلَى الثَّرَى
وَوَحْشُ الْفَلَا وَالطَّيْرُ وَالْبَرُّْ وَالْبَحْرُ
صَاحِبُ صَرِيحٍ لَيْسَ فِي ذَلِكَمْ نَكْرُ
وَلِيٌّ فَمَنْ زِيدَ هُنَاكَ وَمَنْ عَمَرُو
يُجَابُ بِهَا الدَّاعِي إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ
أَتَمَّتْهُ حَقٌّ لَا ثَمَانٍ وَلَا عَشْرُ
هُمْ التِّينُ وَالزَّيْتُونُ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ
وَلَا كَانَ زَيْدٌ فِي الْوُجُودِ وَلَا عَمَرُو
وَفِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَنْامِلِهِ بَحْرُ
وَفَاطِمَةُ مَاءُ الْفُرَاتِ لَهَا مَهْرُ
ذَبِيحًا بِلَا دَفْنٍ يُكَفِّنُهُ الْعَفَرُ^(١)

(١) من الرائية الخالدة لابن العرنديس الحلبي عليه السلام: قال عنه السيد الأمين عليه السلام في أعيان الشيعة: «الشيخ صالح بن الوهاب بن العرنديس الحلبي المعروف بابن العرنديس، توفي في حدود سنة ٨٤٠ هـ في الحلة ودُفن فيها، وله قبر يُزار ويُتبرَّك به، كان عالماً فاضلاً مشاركاً في العلوم، تقياً ناسكاً أديباً شاعراً، ومن شعره قوله في رثاء الحسين عليه السلام:

طَوَايَا نِظَامِي فِي الزَّمَانِ لَهَا نَشْرُ
يُعْطَرُّهَا مِنْ طَيِّبِ ذِكْرِكُمْ نَشْرُ
أَيَقْتُلُ ضَمَانًا حَسِينٌ بِكَرْبَلَا
وَفِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَنْامِلِهِ بَحْرُ

أعيان الشيعة: ج ٧، ص ٣٧٥. وقال العلامة الأمين عليه السلام في الغدير: ج ٧، ص ١٥: «... ومن شعر شيخنا الصالح رائية اشتهر بين الأصحاب أنها لم تُقرأ في مجلس إلا وحضره الإمام الحجة المنتظر عليه السلام...».

ولسان حال الزهراء عليها السلام لما نظرت إلى ولدها كما يصف الشاعر:

(فايزي)

شلتك إيطني ستة أشهر يا جنيني وسهرت ليلي اووسديتك عن يميني
تاليها مرمي عله الثرى تنظرك عيني عكب الدلال على التريه إتنام يحسين
يحسين بيني مصر-عك كطّع كليبي ياريت دونك يذبحوني يا حبيبي
أبروحي فديتك وشربت صافي حليبي اوبرباك يوليدي إسهرت يا كرة العين

(أبوزية)

الحراير من لهيب النار هاجن ولعد جسمك ييو السجاد هاجن
يگللك عليه الليل هاجن وانه إموسد الغبره رميه

وكأني بحرائر الرسالة:

يفترن خوات إحسين من خيمة لعد خيمه

ينخن وين راحوا وين ما كوك الكفر شيمه

كل خيمه تشب ابنار ردن ضربن الهيمه

والسجاد إجو سجبوه اودمعه على الوجن ساله

روى محمد بن مسلم، عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، قال: سمعتهما يقولان: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَوَّضَ الْحُسَيْنِ عليه السلام مِنْ قَتْلِهِ: أَنْ جَعَلَ الْإِمَامَةَ فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَالشِّفَاءَ فِي ثَرْبَتِهِ، وَإِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ قَبْرِهِ، وَلَا تُعَدُّ أَيَّامُ زَائِرِهِ جَائِئِيًّا وَرَاجِعًا مِنْ عَمْرِهِ».

قال محمد بن مسلم: فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: هذه الخلال تُنال بالحسين، فما له هو في

نفسه؟

قال: «إن الله تعالى أحقه بالنبي ﷺ فكان معه في درجته ومنزلته»، ثُمَّ تلا أبو عبد الله عليه السلام: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّ نَبَّحْنَاهُمْ لِدُرِّيَّتِهِمْ﴾^(١).

الإمام الحسين عليه السلام مُدهشٌ للعقول، محيّرٌ للألباب؛ لكثرة ما صدر منه من معجزات ظاهرات، وكرامات باهرات، من حين الحمل به والولادة وحتى الشهادة وما بعدها. روى الأوزاعي عن عبد الله بن شداد عن أمّ الفضل: «أُتِيَها دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، رأيت الليلة حلمًا منكراً.

قال: وما رأيت؟ فقالت: إنّه شديدٌ، قال: وما هو؟

قالت: رأيت كأنّ قطعةً من جسدك قطعت، ووضعت في حجري.

فقال رسول الله ﷺ: خيراً رأيت، تلد فاطمة غلاماً فيكون في حجرك، فولدت الحسين عليه السلام، وكان في حجري كما قال صلوات الله عليه وآله.

قالت: دخلت به يوماً على النبي ﷺ فوضعت في حجره، ثُمَّ حانت مني التفاتة فإذا عينا رسول الله ﷺ تهرقان بالدموع، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما لك؟

قال: أُناني جبرئيل، فأخبرني: أن أمتي ستقتل ابني هذا، وأُناني بترية من تربة حمراء»^(٢).

وعن أمّ سلمة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ خرج من عندنا ذات ليلة، فغاب عنا طويلاً، ثُمَّ جاءنا وهو أشعث أغبر ويده مضمومة، فقلت له: يا رسول الله، ما لي أراك شعثاً مغبراً؟

فقال: أُسري بي في هذه الليلة إلى موضع من العراق يُقال له: كربلاء، فأُريت فيه

(١) إعلام الوري: ج ١، ص ٤٣١، والآية من سورة الطور آية ٢١.

(٢) إعلام الوري: ج ١، ص ٤٢٧.

مصرع الحسين ابني وجماعة من ولدي وأهل بيتي، فلم أزل ألقط من دمائهم، فها هي في يدي. وبسطها، فقال: خذيه واحتفظي به.

فأخذته فإذا هو شبه تراب أحمر، فوضعت في قارورة وشددت رأسها واحتفظت بها، فلما خرج الحسين عليه السلام متوجهاً نحو العراق، كنت أخرج تلك القارورة في كل يوم وليلة، فأشمها وأنظر إليها. ثم أبكي لمصابه، فلما كان يوم العاشر من المحرم - وهو اليوم الذي قُتل فيه - أخرجتها أول النهار وهي بحالها، ثم عدت إليها آخر النهار فإذا هي دم عبيط، فصحت في بيتي، وكظمت غيظي مخافة أن يسمع أعداؤهم بالمدينة فيسرعوا بالشتم، فلم أزل حافظة للوقت واليوم حتى جاء الناعي ينعاه، فحققت ما رأيت»^(١).

وأما معجزاته في يوم عاشوراء، فهي عديدة نذكر بعضاً منها:

فمنها: دعاؤه عليه السلام على عدو الله (حويزة) الذي قال للإمام عليه السلام: تعجلت بالنار قبل يوم القيامة، فقال عليه السلام: اللهم حُزْهْ إلى النار. فوقع في النار^(٢).

ودعاء عليه السلام على ذاك الذي قال: يا حسين، لن تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها، فقال عليه السلام: اللهم اقلته عطشاً، فما زال يشرب حتى فتقت بطنه^(٣).

ودعاء عليه السلام على ذاك الذي اعترضه في خطابه، فقال عليه السلام: «اللهم أرنا فيه ذلاً بارزاً. فمضى لقضاء حاجته، فلسعته عقرب فسقط، وهو يستغيث ويتقلب على حدثه»^(٤).

وغيرها من المعجزات الباهرة والكرامات التي حيرت العقول، وأذهلت البشر، وكيف لا وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!

(١) إعلام الوري: ج ١، ص ٤٢٩.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٢٢٧. مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢١٤.

(٣) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٣١٢.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢١٥. بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٣٠٢.

ويكفيه فخراً (صلوات الله عليه) ما ذكرناه في الحديث الذي افتتحنا به المحاضرة أن جعل الله الشفاء في تربته؛ لكثير من الأمراض المستعصية وغيرها. حتى روي عن العلامة السيد نعمة الله الجزائري: أنه كان يُطالع على ضوء القمر؛ لأنه كان لا يمتلك ثمن زيت للسراج لشدة فقره، فكان يضعف بصره، فيكتحل بتربة سيد الشهداء عليه السلام فيتضاعف بصره أضعافاً مضاعفةً.

ومن هنا ينبغي الالتفات جيداً إلى الاهتمام بتربة الأئمة، وبالخصوص تربة سيد الشهداء عليه السلام، فقد ظهرت من التربة الشريفة كرامات مشاهدة.

قال العلامة المجلسي رحمه الله في البحار: «روى شيخنا الطوسي رحمه الله عن موسى بن عبد العزيز، قال: لقيني يوحنا بن سراقبون النصراني الطبيب فاستوقفني، وقال لي: بحق نبيك ودينك، مَنْ هذا الذي يزور قبره قوم منكم بناحية قصر بن هبيرة؟ مَنْ هو من أصحاب نبيكم؟ قلت: هو ابن بنت نبيِّنا، فما دعاك إلى المسألة عنه؟

فقال: عندي حديث طريف.

قلت: حدثني به، فقال: وجّه إليّ خادم الرشيد شابور الكبير في الليل فصرت إليه، فقال: تعالَ معي، فمضى وأنا معه حتى دخلنا على موسى بن عيسى الهاشمي، فوجدناه زائل العقل متكئاً على وسادة، وإذا بين يديه طشت فيها حشو جوفه، فأقبل شابور على خادم موسى، وسأله عن سبب تغيير حاله وقال له: ويحك، فأخبره فقال له: أخبرك أنه كان من ساعته جالساً، وحوله ندامؤه، وهو من أصح الناس جسماً، وأطيبهم نفساً، إذ جرى ذكر الحسين بن علي عليه السلام، فقال موسى: إن الرافضة ليغلون فيه حتى أنهم يجعلون تربته دواءً يتداوون به.

فقال لهم رجل من بني هاشم كان حاضراً: قد كانت بي علةٌ غليظة، فتعالجت لها بكلّ علاج، فما نفعني حتى وصف لي كاتب أن آخذ من هذه التربة فأخذتها، فنفعني الله

بها، وزال ما كنت أجده، فسأله موسى: هل بقي منها عندك شيء؟ قال: نعم. فوجه فجيء منها بقطعة، فناولها إياه فأخذها موسى، وأدخلها في دبره استهزاءً بمن تداوى بها، واحتقاراً وتصغيراً بالحسين عليه السلام، فما هو إلا أن استغلها دبره حتى صاح النار النار، الطشت فجئناه بالطشت فأخرج فيها ما ترى فانصرف الندماء، فصار المجلس مأتماً.

فأقبل عليّ شابور وقال: انظر هل لك فيه حيلة؟ فدعوت بشمعة، فنظرت فإذا كبده وطحاله وريته وفؤاده خرجت منه في الطشت، فقلت: ما لأحدٍ في هذا صنع إلا أن يكون لعيسى بن مريم الذي يحيي الموتى.

فقال شابور: صدقت، ولكن كن ها هنا في الدار حتى تتبين ما يكون أمره، فبتُّ عندهم وهو بتلك الحالة ما رفع رأسه حتى هلك في وقت السحر، قال الراوي: كان يوحنا يزور قبر الحسين عليه السلام وهو على دينه، ثم أسلم بعد هذا وحسن إسلامه^(١).

ومن كراماته ومعجزاته الباهرة عليه السلام إجابة الدعاء عند قبره، حتى أن المعصوم نفسه يرسل أصحابه ليدعوا له عند قبره عليه السلام.

قال أبو هاشم الجعفري صاحب الإمام الهادي عليه السلام: دخلت على أبي الحسن الهادي وهو محموم عليل، فقال: يا أبا هاشم، ابعث رجلاً من موالينا إلى الحائر يدعوا الله لي. فخرجت من عنده، فاستقبلني علي بن بلال فأعلمته ما قال الإمام عليه السلام، وسألته أن يكون هو الرجل الذي يخرج، فقال: السمع والطاعة، ولكنني أقول: إنه أفضل من الحائر إذا كان بمنزلة من في الحائر، ودعاؤه لنفسه أفضل من دعائي له في الحائر.

فأعلمته ما قال، فقال لي: قل له: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من البيت والحجر، وكان يطوف بالبيت ويستلم الحجر، وإن الله تبارك وتعالى بقاعاً يحب أن يدعى فيها فيجيب لمن

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ٣٩٩، (مع اختلاف يسير).

دعاه، والحائر منها^(١).

ونفس زيارة الحسين معجزة بحد ذاتها وخاصة زيارة عاشوراء، فإن لها أثراً عجبياً في حل المشكلات ودفع البليات.

يُذكر أنه أصيبت مدينة سامراء بالطاعون، فكان يتساقط عشرات الموتى في كل يوم، يقول الشيخ عبد الكريم الحائري: إني كنت عند أستاذي محمد فشاركي، فقدم الميرزا محمد تقي الشيرازي، وقال: إذا حكمت بحكم تلتزمون به؟

فأجابوا: نعم، فقال: أحكم أن يقرأ الشيعة من اليوم وحتى عشرة أيام زيارة عاشوراء، ويهدون ثوابها إلى نرجس والدة الإمام الحجة عليه السلام. قام الشيعة بتنفيذ الحكم وبدأوا بزيارة عاشوراء فارتفع الوباء ولم يسقط شيعي واحد بعد ذلك.

فزيارته لا تعدّ من العمر، بل أكثر من ذلك، زيارته تهب العمر، ولا يستطيع إنسان أن يحصي معجزه (صلوات الله عليه).

ومن أجل ذلك بقي ماتم سيد الشهداء، وشاء الله أن يبقى مجلسه عليه السلام خالداً، ويتشر يوماً بعد يوم بشكلٍ أوسع، رغم منع المانعين، وحقد الحاقدين؛ لأنّ الحسين عليه السلام نور الله، ونور الله لا يُطفأ، ولأنّ الحسين عليه السلام كلمة الله، وكلمة الله هي العليا، ولأنّ الحسين عليه السلام يد الله، ويد الله فوق أيديهم، ولأنّ الحسين عليه السلام، ذكر الله، وذكر الله باق ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢)، وهذا ما أكّده العقيلة زينب عليها السلام في مجلس يزيد (لعنه الله) حيث قالت: «كيد كيدك، واسعى سعيك، وناصب جهدك، فوالله، لا تميت وحيناً ولا تمحو ذكرنا»^(٣).

(١) بحار الأنوار: ج ٩٨، ص ١١٤، ح ١١٥، ج ٢٤.

(٢) الحجر: آية ٩٩.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ص ٢١٨. بحار الأنوار: ج ٤٥، ص ١٣٥.

هذه المآتم التي كانت وما زالت، لم ولن تنطفئ منذ أن انعقد أول مجلس على سيد الشهداء عليه السلام إلى يومنا هذا، وأول مأتم أُقيم على الحسين عليه السلام بعد شهادته - روعي فداه - كان لجموع الأنبياء والأولياء عليهم السلام بحضور النبي الأعظم عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، كما ذكر ذلك الجَمال (لعنه الله) الذي جاء لسلب أبي عبد الله عليه السلام، يقول: بينا أنا كذلك، وإذا سحابتان نزلتا على مصرع أبي عبد الله عليه السلام.

السحابة الأولى: مجموعة رجال يقدمهم شخص أزهري قمري، أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله.

والسحابة الثانية: مجموعة نساء تقدمهن امرأة عليها ثياب السواد تقوم وتقع، وهي تنادي: أي وا ولداه، وا حسيناه، بُني حسين قتلوك، ومن شرب الماء منعوك، وما عرفوا مَنْ أُمّك وَمَنْ أبوك.

أقبلت إلى مصرع ولدها الحسين عليه السلام، عزّ عليها أن تراه مقطّع الأعضاء، الدماء تسيل من نحره الشريف، وقعت عليه تضمّمه تشمّمه تُقبّله، قالت: أبه يا رسول الله، دعني أخضّب وجهي بدم ولدي، فقال لها: بُنية، اخضبي ونحن نخضب، فالسيدة الزهراء عليها السلام أقامت المآتم على عزيزها الحسين عليه السلام، ولكن مَنْ الذي قرأ التعزية في ذلك المجلس.

أقول: التي قرأت التعزية ابتُهِمَت العقيلة زينب عليها السلام، يقول بعض العلماء: لما خرجت زينب عليها السلام من الخيمة يوم عاشوراء، تمثّل لها رسول الله صلى الله عليه وآله واقفاً على مصرع أبي عبد الله، قابضاً على كريمة المباركة، ودموعه تتحادر على لحيته، ولذا وجّه الخطاب مباشرة إلى جدّها: يا جدّاه يا رسول الله، صلّى عليك ملائكة السماء، هذا حسينك بالعراء، محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والرداء، مرفوع الرأس على القنا، وبناتك سبايا، وإلى الله المشتكى، ثمّ إليك يا رسول الله ^(١).

(١) أنظر: الطريق إلى منبر الحسين عليه السلام: ص ١١٦ - ص ١٢١.

يهلنا احسينكم رضوا اضلوعه
 وضاك الموت روعه بعد روعه
 يجدي گوم شوف احسين مذبوح
 عله الشاطي وعله التريان مطروح
 يجدي ما بگتله امن الطعن روح
 يجدي گلب أخوي احسين فطر
 يجدي مات محمد وگف دونه
 ولا نغار غمضله اعيونه
 يعالج بالشمس منخطف لونه
 ولا واحد ابخلگه ماي گطر
 يجدي مات محمد مدد ايديه
 ولا واحد يجدي عدل رجليه
 يعالج بالشمس محمد وصل ليه
 يحطله اظلال يا جدي من الحر
 يجدي الرمح بفاده تثنه
 يجدي بالوجه للسيف رنه
 يجدي الخيل صدره رضر ضنه
 ويجدي بالترب شيه تعفر

ثمَّ وجهت التعزية إلى أبيها أمير المؤمنين عليه السلام:

تعالوا لبنكم غسلوه	والجفن وياكم دجيوه
وجيوا كطن للجرح نشفوه	وعله إجتافكم لحسين شيلوه
يبويه گوم شوف إعزیزك احسين	عله التربان محزوز الوريدين
وعباس النفل مگطوع اليدين	وباگي أقمارنه فوگ الوطيّة
يبويه گوم شوف اشلون ولياي	كلها امذبّحه وما ضاگت الماي
يبويه لوتشوف اشّماته اعداي	وتشوف ابناتك مسلّبه بهلبر
يبويه شلسب ما جيت للساع	تشوف إعزیزكم عاري عله الكاع
أريدنك تجي لحسين فزّاع	ونشوف أغبار ميمونك امن ايثور

يا ليت في الأحياء شخصك حاضرٌ وحسينٌ مطروحٌ بعرضه كربلا

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم،
وسيعلم الذين ظلموا آلَ مُحَمَّدٍ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يُنْقَلِبُونَ
والعاقبة للمتقين.

فهرست أهم المصادر

القرآن الكريم

- حرف الألف -

١. إبتلاءات الأمم: سعيد أيوب، معاصر، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، منشورات دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
٢. الاحتجاج: أبو منصور، أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، (ت ٥٤٨ هـ)، تعليقات وملاحظات السيد محمد باقر الخراسان، منشورات مطابع النعمان النجف الأشرف ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.
٣. الإختصاص: الشيخ المفيد، محمد بن النعمان البغدادي (ت ٤١٣ هـ) تحقيق: علي أكبر الغفاري، انتشارات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية في قم المقدّسة.
٤. الأخلاق والآداب الإسلامية: هيئة محمد الأمين، مطبعة سيد الشهداء، الطبعة الثانية، قم المقدسة، ١٤٢١ هـ.
٥. أدب الطّف: السيد جواد شبر، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، دار المرتضى، بيروت - لبنان.
٦. الأربعون حديثاً: السيد روح الله الموسوي الخميني (ت ١٤٠٩ هـ)، ترجمة: السيد محمد الغروي، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي - قم المقدسة.
٧. الإرشاد: الشيخ المفيد محمد بن النعمان البغدادي (ت ٤١٣ هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (عليه السلام)، قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
٨. أسباب النزول (الواحدي): أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، (ت ٤٦٨ هـ)، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع - القاهرة.
٩. أضواء البيان: الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ)، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، بيروت - لبنان.
١٠. إعانة الطالبين: السيد الكبرى الدميّاطي (ت ١٣١٠ هـ)، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

١١. الأعلام: خير الدين الزركلي (ت ١٤١٠هـ)، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.
 ١٢. إعلام الوري: الشيخ الفاضل الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٤٥٨هـ)، طبع ونشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
 ١٣. إقبال الأعمال: السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤هـ) تحقيق محمد جواد القيومي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ منشورات مكتب الإعلام الإسلامي
 ١٤. الأقسام في القرآن الكريم: الشيخ جعفر السبحاني، معاصر، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ منشورات مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم المقدسة.
 ١٥. الإلهيات: الشيخ جعفر السبحاني، تلخيص: علي الرباني الكلبايكاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم المقدسة، طبعة عام ١٤١٨هـ.
 ١٦. الأمالي: شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، نشر: دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
 ١٧. أمالي السيد المرتضى: الشريف أبو القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين (ت ٤٣٦هـ)، صححه وضبط ألفاظه وعلّق حواشيه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي قم - إيران ١٤٠٣هـ.
 ١٨. الأمالي، الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: مؤسسة البعثة - قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
 ١٩. الإمامة تلك الحقيقة القرآنية: الدكتور زهير بيطار، معاصر، منشورات دار السيرة بيروت - لبنان ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
 ٢٠. الإنصاف فيما تضمّن الكشاف: ابن المنير الاسكندري (ت ٦٨٣هـ)، منشورات مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
 ٢١. آيات منتخبة من القرآن الكريم: السيد مهدي الخطيب الهنداوي (ت ١٤٢٧هـ)، مطبعة ستارة - قم المقدسة، الناشر المؤلف عليه السلام.
- حرف الباء -
٢٢. الباب الحاي عشر: العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٦هـ)، انتشارات المصطفوي - قم المقدسة.
 ٢٣. بحار الأنوار: العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، مطبعة مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

- حرف التاء -

٢٤. تأويل الآيات: السيد شرف الدين علي الحسيني الاسترآبادي النجفي (ت ٩٦٥ هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام بالحوزة العلمية - قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٣٦٦ هـ ش.
٢٥. تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ)، الناشر مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.
٢٦. تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق: نخبة من العلماء، انتشارات مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
٢٧. تبصرة المتعلمين: جمال الدين الحسن بن يوسف المطهر، المعروف بالعلامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني والشيخ هادي اليوسفي، الطبعة الأولى ١٣٦٨ ش، منشورات فقيه، طهران - إيران.
٢٨. التبيان: الشيخ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ) تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ مكتب الإعلام الإسلامي.
٢٩. تحف العقول: ابن شعبة الحرّاني (ت القرن الرابع الهجري)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر جماعة المدرسين بقم المقدسة، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.
٣٠. التحفة السنية (مخطوط): السيد عبد الله الجزائري (ت ١١٨٠ هـ).
٣١. تفسير ابن أبي حاتم: ابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، منشورات المكتبة العصرية.
٣٢. تفسير ابن العربي: ابن العربي، (ت ٦٣٨ هـ)، ضبطه وصححه وقدم له: الشيخ عبد الوارث محمد علي، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ منشورات دار الكتب العلمية.
٣٣. تفسير ابن زمين: أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن أبي زمين، (ت ٣٩٩ هـ)، تحقيق: حسين عكاشة - محمد الكنز، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، منشورات الفاروق الحديثة.
٣٤. تفسير ابن كثير: الحافظ عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، قدم له: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشي، دار المعرفة، بيروت - لبنان ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
٣٥. تفسير أبي السعود: أبو السعود، (ت ٩٥١ هـ)، طباعة ونشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
٣٦. التفسير الأصفي: المولى محمد محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، المحققان: محمد حسين درايي ومحمد رضا نعمتي، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ق، ١٣٧٦ ش، منشورات مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.
٣٧. تفسير الآكوسي: الآكوسي (ت ١٢٧٠ هـ)، مجهولة.

٣٨. تفسير الأمثل: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مطبعة أمير المؤمنين عليه السلام، قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
٣٩. تفسير البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٤٠. تفسير البرهان: السيد هاشم البحراني، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين، نشر مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ.
٤١. تفسير البغوي: البغوي (ت ٥١٠ هـ)، تحقيق خالد عبد الرحمن العك، مطبعة ونشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
٤٢. تفسير الثعلبي: الثعلبي (ت ٤٢٧ هـ) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
٤٣. تفسير السلمي: السلمي، (ت ٤١٢ هـ)، تحقيق: سيد عمران، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٤٤. تفسير السمرقندي: أبو الليث السمرقندي، (ت ٣٨٣ هـ) تحقيق: الدكتور محمود مطرجي، منشورات دار الفكر.
٤٥. تفسير السمعاني: السمعاني، (ت ٤٨٩ هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الطبعة الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٧، منشورات دار الوطن، الرياض - السعودية.
٤٦. التفسير الصافي: محسن الفيض الكاشاني، (ت ١٠٩١ هـ) تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي الطبعة الثالثة ١٤١٦ هـ مطبعة مؤسسة الهادي، قم المقدسة، منشورات مكتبة الصدر، طهران - إيران.
٤٧. تفسير العياشي: أبو النضر، محمد بن مسعود بن عياش السلمي، السمرقندي (ت ٣٢٠ هـ) تحقيق: الحاج هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية طهران.
٤٨. تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١ هـ) تحقيق: أحمد بن العليم البردوني، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
٤٩. تفسير القمي: علي بن إبراهيم القمي، (ت ٣٢٩ هـ) تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، مطبعة النجف الأشرف ١٣٨٧ هـ منشورات مكتبة الهدى.
٥٠. تفسير النسفي: النسفي (ت ٥٣٧ هـ)، مجهولة.
٥١. تفسير جامع البيان: ابن جرير الطبري، (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق وتقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٥٢. تفسير مجمع البيان: أمين الإسلام الطبرسي (ت ٥٦٠ هـ) تحقيق لجنة، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
٥٣. تفسير مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، الطبعة الثالثة بدون تاريخ.
٥٤. تفسير مقاتل: مقاتل بن سليمان، (ت ١٥٠ هـ)، تحقيق: أحمد فريد، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٥٥. تفسير نور الثقلين: الشيخ عبد علي العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ) تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ مؤسسة إسماعيليان، قم المقدسة.
٥٦. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام): الأمير الزاهد أبو الحسن ورام بن أبي الفراس الأشتري (ت ٦٠٥ هـ)، مكتبة الفقيه، قم - إيران.
٥٧. تنزيه الأنبياء: السيد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦ هـ)، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، منشورات دار الأضواء، بيروت - لبنان.
٥٨. توحيد الإمامية: محمد باقر الملوكي، معاصر، تنظيم: محمد البياباني الأسكوثي، اهتمام على الملوكي الميانجي، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - مؤسسة الطباعة والنشر.
٥٩. التوحيد الشيخ الصدوق عليه السلام: الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه القمي (٣٨١ هـ)، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، سنة الطبع ١٣٨٧ هـ من منشورات جماعة المدرسين، قم المقدسة.
- حرف الثاء -
٦٠. الثاقب في المناقب: عماد الدين أبو جعفر محمد بن علي الطوسي، المعروف بابن حمزة، (ت ٥٦٠ هـ) تحقيق: نبيل رضا علوان، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ منشورات مؤسسة أنصارين، قم المقدسة.
٦١. ثمرات الأعواد: السيد علي الحسيني الهاشمي النجفي، انتشارات المكتبة الحيدرية - النجف الأشرف، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.
- حرف الجيم -
٦٢. جامع السعادات: محمد مهدي النراقي، (ت ١٢٠٩ هـ) تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر، تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر، الطبعة الرابعة، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.
٦٣. جامع الشتات: محمد إسماعيل بن الحسين المازندراني الخواجوي، (ت ١١٧٣ هـ)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ منشورات سلسلة آثار المحقق الخواجوي.
٦٤. الجامع الصغير: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، منشورات دار الفكر، بيروت - لبنان.
٦٥. جوامع الجامع: الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الاسلامي

- التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرّفة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
٦٦. جواهر الكلام: الشيخ محمد حسن النجفي (ت ١٢٦٦ هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عباس القوجاني، الطبعة الثانية ١٣٦٥ ش، منشورات دار الكتب الإسلامية - طهران.
٦٧. جواهر المطالب: محمد بن أحمد الدمشقي الشافعي (ت ٨٧١ هـ) تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ منشورات مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم المقدّسة.
- حرف الخاء -
٦٨. حاشية رد المختار: ابن عابدين (ت ١٢٥٢)، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، سنة الطبع: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
٦٩. حاشية رفيع الدين النائيني على أصول الكافي: رفيع الدين محمد بن حيدر النائيني (ت ١٠٨٢ هـ) تحقيق: محمد حسين الدرايتي، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ١٣٨٢ هـ ش، منشورات دار الحديث للطباعة والنشر.
٧٠. الحدائق الناضرة: الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ)، منشورات مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين، قم المقدّسة
٧١. الحديقة الهلالية: محمد بن الحسين العاملي المعروف بالشيخ البهائي، (ت ١٠٣٠ هـ)، تحقيق: السيد علي الخراساني، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ، منشورات مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - قم المشرّفة.
٧٢. حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين، محمد بن موسى الدميري، (ت ١٤٠٥ م) الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان.
- حرف الخاء -
٧٣. الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي، (ت ٥٧٣ هـ) تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة.
٧٤. خصائص الأئمة: الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، تحقيق: د. محمد هادي الأميني، نشر: مجمع البحوث الإسلامية في الإستانة الرضوية المقدسة - مشهد المقدسة، طبعة عام ١٤٠٦ هـ.
٧٥. الخصال: الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: جامعة المدرسين - قم المقدّسة، بدون تاريخ.
- حرف الدال -
٧٦. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٣٦٥ هـ.

٧٧. الدعوات: أبو الحسين، سعيد بن هبة الله المشهور بـ قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ منشورات مدرسة الإمام المهدي عليه السلام - قم المقدسة.
٧٨. ديوان دعبل الخزاعي: دعبل بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦ هـ) الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان.
٧٩. ديوان ميراث المنبر: الشيخ محمد سعيد المنصوري (ت ١٤٢٨ هـ)، طبع ونشر: دار المنصوري، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ.
- حرف الذال -
٨٠. الذريعة: الشيخ آقا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩ هـ)، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، منشورات دار الأضواء بيروت - لبنان.
- حرف الراء -
٨١. روضة الواعظين: محمد بن الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ)، تحقيق: السيد محمد مهدي الخراسان، منشورات الشريف الرضي - قم.
٨٢. رياض المدح والثناء: الشيخ حسين علي سلمان البلادي البحراني، انتشارات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، الطبعة الرابعة ١٤٢٦ هـ.
- حرف الزاء -
٨٣. زاد المسير: ابن الجوزي، (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٨٤. زبدة البيان: أحمد بن محمد، الشهير بالمقدس الأردبيلي، (ت ٩٩٣ هـ)، حققه وعلّق عليه: محمد الباقر البهبودي، عنيت بنشره المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران - ناصر خسرو.
٨٥. زهر الربيع: السيد نعمة الله الجزائري، المتوفى سنة ١١١٢ هـ.
- حرف السين -
٨٦. سفينة البحار: الشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩ هـ)، مطبعة دار الأسوة، قم المقدسة، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ.
٨٧. السيرة الحلبية: الحلبي، (ت ١٠٤٤ هـ)، سنة الطبع ١٤٠٠ هـ المطبعة بيروت، دار المعرفة منشورات دار المعرفة.
- حرف الشين -
٨٨. شجرة طوبى: المحدث الجليل الشيخ محمد مهدي الحائري، منشورات المكتبة الحيدرية، الطبعة الخامسة ١٣٨٥ هـ.

٨٩. شرائع الاسلام: أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن، المشتهر بـ المحقق الحلي، (ت ٦٧٦ هـ) مع تعليقات السيد صادق الشيرازي، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ انتشارات استقلال، طهران - ناصر خسرو، ١٩٨٣ م - ١٤٠٣ هـ طبع بموافقة مؤسسة الوفاء، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.
٩٠. شرح أصول الكافي: المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ).
٩١. شرح الرضي على الكافية: رضي الدين الاسترآبادي (ت ٦٨٦ هـ) تحقيق: يوسف حسن عمر، منشورات مؤسسة الصادق، طهران ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
٩٢. شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢ هـ)، الطبعة الرابعة ١٣٩١ هـ منشورات المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.
٩٣. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة منشورات المرعشي النجفي، نشر: دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.
٩٤. الشفاء الروحي: عبد اللطيف البغدادي، معاصر.
٩٥. شواهد التنزيل: عبيد الله بن أحمد، المعروف بالحاكم الحسكاني (ت القرن الخامس الهجري)، تحقيق وتعليق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، طهران - إيران.
- حرف الصاد -
٩٦. الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م، منشورات دار العلم للملايين، القاهرة.
٩٧. الصحيفة السجادية: الإمام زين العابدين (عليه السلام) (ت ٩٤ هـ) المطبعة والنشر جماعة المدرسين - قم المقدسة.
٩٨. الصراط المستقيم: الشيخ زين الدين، أبو محمد علي بن يونس العاملي النباطي البياضي، (ت ٨٧٧ هـ)، صححه وحققه وعلّق عليه: محمد الباقر البهبودي، عنيت بنشره المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ.
- حرف الطاء -
٩٩. الطريق إلى منبر الحسين: الخطيب المرحوم الشيخ عبد الوهاب الكاشي، انتشارات الشريف الرضي، قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.
- حرف العين -
١٠٠. علل الشرائع: الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، طبعة عام ١٣٨٦ هـ.

١٠١. علوم القرآن: السيد محمد باقر الحكيم (ت ١٤٢٤ هـ)، منشورات مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ.
١٠٢. عمدة الطالب: جمال الدين، أحمد بن علي المعروف بابن عنبه (ت ٨٢٨ هـ) تحقيق: محمد حسن آل الطالقاني، الطبعة الثانية ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م، منشورات المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف.
١٠٣. عمدة القاري: العيني، (ت ٨٥٥ هـ) مطبعة ونشر دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٠٤. العهود المحمدية: عبد الوهاب الشعراني (ت ٩٧٣ هـ)، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ. ١٩٧٣ م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، شريف محمود الحلبي وشركاه خلفاء.
١٠٥. عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت - لبنان.
١٠٦. عيون الحكم والمواعظ: علي بن محمد الليثي الواسطي (ت القرن السادس)، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، نشر دار الحديث، الطبعة الأولى ١٣٧٦ ش.
- حرف الغين -
١٠٧. غاية المرام: السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ) تحقيق: السيد عاشور.
١٠٨. الغدير: الشيخ عبد الحسين الأميني (ت ١٣٩٢ هـ) الطبعة الرابعة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
- حرف الفاء -
١٠٩. فتح الأبواب: أبو القاسم، علي بن موسى ابن طاووس الحسيني، (ت ٦٦٤ هـ) تحقيق: حامد الخفّاف، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩، منشورات مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت - لبنان.
١١٠. فتح الباري: ابن حجر، شهاب الدين العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) الطبعة الثانية، طباعة ونشر دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١١١. فتح القدير: الشوكاني، (ت ١٢٥٥ هـ) منشورات عالم الكتب.
١١٢. الفرج بعد السدة: للقاضي أبي علي المحسن، ابن أبي القاسم التنوخي (ت ٣٨٤ هـ)، منشورات الشريف الرضي، الطبعة الثانية.
١١٣. فقه الرضا: الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام، علي بن بابويه القمي، (ت ٣٢٩ هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث - قم المشرقة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ منشورات المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، مشهد المقدسة.
١١٤. فقه القرآن: قطب الدين، سعيد بن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣ هـ) تحقيق: السيد أحمد الحسيني،

الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ منشورات مكتبة المرعشي النجفي، قم المقدسة.

١١٥. في رحاب التوبة: السيد محمد مجاهد، تحقيق: ناصر الباقر البيهندي، انتشارات زائر، الطبعة الأولى ١٣٧٧ ش.

١١٦. فيض القدير: محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٣٣١ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

- حرف القاف -

١١٧. القاموس المحيط: الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) مجهولة.

١١٨. القرآن وإعجازه العلمي: اسماعيل إبراهيم، معاصر، منشورات دار الفكر العربي.

١١٩. قرب الإسناد: السيد الحميري أبو العباس عبد الله البغدادي (ت ٣٠٠ هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (عليه السلام)، قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

١٢٠. قصص الأنبياء: قطب الدين، سعيد بن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣ هـ) تحقيق: غلام رضا عرفانيان، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٣٧٦ ش، منشورات الهادي.

١٢١. قصص الأنبياء: السيد نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢ هـ)، بدون تاريخ.

- حرف الكاف -

١٢٢. الكافي: الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩ هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ.

١٢٣. كامل الزيارات: جعفر بن محمد بن قولويه، (ت ٣٦٧ هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القمي، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ جماعة المدرسين، منشورات مؤسسة الفقهية.

١٢٤. الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٥. كتاب الصلاة: التنقيح في شرح العروة الوثقى: تقريراً لبحث السيد أبي القاسم الموسوي الخوئي (١٤١٣ هـ) بقلم الميرزا علي الغروي التبريزي، الطبعة الثالثة ١٤١٠ هـ منشورات دار الهادي للمطبوعات قم.

١٢٦. كتاب العين: الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ مؤسسة دار الهجرة.

١٢٧. كتاب المكاسب: الشيخ مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١ هـ)، إعداد لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ منشورات المؤتمر العالمي بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد الشيخ الأنصاري.

١٢٨. الكشف: الزنجشري (ت ٥٣٨ هـ) سنة الطبع ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م، منشورات شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباب الحلبي وأولاده بمصر.
١٢٩. كشف الغمة: الشيخ علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٣ هـ)، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ دار الأضواء، بيروت.
١٣٠. كمال الدين وتام النعمة: الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) تحقيق: علي أكبر الغفاري منشورات مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم المقدسة.
١٣١. كنز العمال: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (ت ٩٧٥ هـ)، تحقيق: الشيخ بكري حياني والشيخ صفوة السفا، مؤسسة الرسالة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م بيروت - شارع سوريا.
١٣٢. كنز الفوائد: المحدث الخبير العلامة أبو الفتح محمد بن علي الكراچكي (ت ٤٤٩ هـ)، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ منشورات مكتبة المصطفوي، قم المقدسة.
- حرف اللام -
١٣٣. لب الأثر في الجبر والقدر: محاضرات روح الله الموسوي الخميني (ت ١٤٠٩ هـ)، تقرير: الشيخ جعفر السبحاني، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٣٧٧ هـ ش، منشورات مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.
١٣٤. لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، نشر أدب الحوزة قم - إيران، ١٤٠٥ هـ.
١٣٥. اللهوف: السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ منشورات أنوار الهدى، قم المقدسة.
١٣٦. اللهوف على قتلى الطفوف: السيد ابن طاووس، المترجم: عبد الرحيم عفيفي بخشايشي، الطبعة الخامسة ١٣٧٨ ش، انتشارت دفتر نشر مؤيد إسلام، قم المقدسة.
- حرف الميم -
١٣٧. مثير الأحزان: ابن نما الحلبي (ت ٦٤٥ هـ)، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، طبعة عام ١٣٥٩ هـ.
١٣٨. مجمع البحرين: الشيخ فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ) تحقيق: السيد أحمد الحسيني، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ مكتبة نشر الثقافة الإسلامية.
١٣٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة عام ١٤٠٨ هـ.
١٤٠. مجمع مصائب أهل البيت عليه السلام: الشيخ محمد الهنداوي، منشورات الشريف الرضي، بدون تاريخ.
١٤١. المحاسن: أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت ٢٤٧ هـ) تحقيق وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني (المحدث) الناشر: دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٧٠ هـ.
١٤٢. المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦ هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة

- الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، منشورات دار الكتب العلمية.
١٤٣. مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، (ت ٧٢١ هـ)، تحقيق: أحمد شمس الدين، طبع ونشر دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.
١٤٤. مدينة المعاجز: السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ) تحقيق: الشيخ عزة الله الهمداني، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.
١٤٥. المراقبات: الشيخ جواد الملكي التبريزي، (ت ١٣٤٣ ش)، مجهولة.
١٤٦. المزار، محمد المشهدي (ت ٦١٠ هـ)، تحقيق: جواد القيومي، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، انتشارات القيوم، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ.
١٤٧. المستجد من الإرشاد: جمال الحق والدين، حسن بن المطهر الحلي، المشتهر بالعلامة الحلي، (ت ٧٢٦ هـ)، منشورات مكتب آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم.
١٤٨. مستدرک سفينة البحار: الشيخ علي النمازي الشاهرودي، (ت ١٤٠٥ هـ) تحقيق وتصحيح: نجل المؤلف الحاج الشيخ حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة ١٤١٨ هـ.
١٤٩. المستدرک على الصحيحين: الحاكم النيسابوري، (ت ٤٠٥ هـ) تحقيق وإشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشي.
١٥٠. مستدرک وسائل الشيعة: الشيخ النوري الطبرسي (١٣٢٠ هـ)، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليه السلام، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.
١٥١. مُسكن الفؤاد: الشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي (ت ٩٦٦ هـ)، نشر مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - قم المقدسة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
١٥٢. مسند أحمد: أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) دار صادر، بيروت - لبنان.
١٥٣. مشكاة الأنوار: أبو الفضل علي الطبرسي (ت القرن السابع)، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ.
١٥٤. مصباح المتعبد: الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، منشورات مؤسسة فقه الشيعة، بيروت - لبنان.
١٥٥. المصباح: الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الحسن بن محمد بن صالح العاملي الكنعني، (ت ٩٠٥ هـ)، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان.
١٥٦. معاني القرآن: أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٥٧. المعبر: نجم الدين، أبو القاسم جعفر بن الحسن، المحقق الحلي (ت ٦٧٦ هـ)، حققه وصحّحه عدة من الأفاضل، مؤسسة سيد الشهداء ١٣٦٤ ش.
١٥٨. المعجم الأوسط: الحافظ الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠ هـ) تحقيق ونشر قسم التحقيق بدار الحرمين ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
١٥٩. معجم الشعراء: كامل سلمان الجبوري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ.
١٦٠. معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤ هـ.
١٦١. مغني اللبيب: ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات مكتبة آية الله العظمي المرعشي النجفي، ١٤٠٤ هـ، قم المقدسة.
١٦٢. مفردات غريب القرآن: الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ)، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ منشورات دفتر نشر الكتاب.
١٦٣. مقاتل الطالبين: أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ)، الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف.
١٦٤. مقتل الحسين (أبو مخنف): لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي الغامدي (ت ١٥٧ هـ)، تحقيق: الميرزا حسن الغفاري، المطبعة العلمية، انتشارات المرعشي النجفي، طبعة عام ١٣٩٨ هـ قم المقدسة.
١٦٥. المقنعة: الشيخ المفيد، محمد بن النعمان البغدادي العكبري (ت ٤١٣ هـ)، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم المقدسة.
١٦٦. مكارم الأخلاق: الطبرسي الحسن بن الفضل بن حسن، من أعلام القرن السادس الهجري (ت ٥٤٨ هـ)، منشورات الشريف الرضي - قم المقدسة، الطبعة السادسة ١٣٩٢ هـ.
١٦٧. مكيال المكارم: ميرزا محمد تقي الموسوي الأصفهاني، أبو عبد الله (ت ١٣٤٨)، تحقيق: السيد علي عاشور، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، بيروت - لبنان
١٦٨. من أخلاق الإمام الحسين (عليه السلام): عبد العظيم المهدي البحراني، معاصر، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، انتشارات الشريف الرضي، قم - إيران.
١٦٩. من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) تحقيق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، منشورات مؤسسة جماعة المدرسين، قم المقدسة
١٧٠. مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ)، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف،

المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، طبعة عام ١٣٧٦ هـ.

١٧١. منية المريد: الشيخ زين الدين بن علي العاملي، المعروف بالشهيد الثاني (٩١١ هـ - ٩٦٥ هـ) تحقيق:

رضا المختاري، الطبعة الأولى ١٤٠٩ - ١٣٦٨ ش، منشورات مكتب الإعلام الإسلامي.

١٧٢. ميزان الحكمة: الشيخ محمد الري شهري، نشر دار الحديث، الطبعة الأولى.

١٧٣. الميزان في تفسير القرآن: العلامة محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ)، مؤسسة النشر التابعة
لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

- حرف النون -

١٧٤. النهاية: شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، انتشارات قدس

محمدي، قم المقدسة.

١٧٥. نهج الإيمان: ابن جبر، زين الدين، علي بن يوسف بن جبر من أعلام القرن السابع الهجري، تحقيق:

السيد أحمد الحسيني، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، منشورات مجمع الإمام الهادي عليه السلام مشهد المقدسة.

١٧٦. نهج البلاغة: خطب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام (ت ٤٠ هـ)، تحقيق: الشيخ محمد عبده، دار

المعرفة.

- حرف الواو -

١٧٧. وسائل الشيعة: الحر العاملي، (ت ١١٠٤ هـ) تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث،

الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ المطبعة مهر - قم.

١٧٨. وفيات الأعيان: ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.

تسلسل المحاضرات	موضوع المجلس	مطلع القصيدة في المجلس	شاعر القصيدة	التعريض والمصيبة	ص
الأولى	التوبة	يا قتيلا أصبحت دار العلا	الحاج هاشم الكعبي رحمته الله	الحرّ الرياحي	٩
الثانية	التقوى	لست أنساه مفرداً بين جمع	الشيخ عبد الحسين شكر رحمته الله	زينب ورأس أخيها الإمام الحسين عليه السلام	٢١
الثالثة	الاستغفار وآثاره	لم أنس زينب بعد الخدر حاسرة	الحاج محمد علي كمونة رحمته الله	الزهراء عليها السلام تنعى ولدها عليه السلام وهي في الجنة	٣٣
الرابعة	عداوة الشیطان لبني آدم	أحلماً وكادت تموت السنن	السيد محمد القزويني رحمته الله	سبي الحوراء زينب عليها السلام	٤٧
الخامسة	هجر القرآن	إن كان عندك عبرة تجريها	السيد رضا الهندي رحمته الله	ندبة الزهراء عليها السلام والموالين لإمامهم عليه السلام	٦١
السادسة	التوسل حقيقة قرآنية	دم يا حسين مدى الزمان	الشيخ محمد سعيد المنصوري	الحوراء زينب عليها السلام تنادي أمها عليها السلام	٧٧
السابعة	الصبر	حكم المنيّة في	أبو الحسن	ليلي مع ولدها علي	٨٩

	الأكبر عليه السلام	التهامي عليه السلام	البرية جاري		
الثامنة	العبادة	خان الزمان	السيد مهدي	شهادة مسلم بن	١٠١
		بنا فشتنا	الأعرجي عليه السلام	عقيل عليه السلام	
التاسعة	عبادة الحرف	أناعي قتلى	السيد حيدر	زينب تندب	١١٣
العاشرة	عباد الرحمان	أبا صالح يا مُدرِّكُ الثَّارِ كم ترى	الشيخ محمد تقي الجواهري	مصيبة عبد الله الرضيع عليه السلام	١٢٧
الحادية عشرة	الإيثار	حامي الطعينة أين منه ربيعة	السيد جعفر الحلي عليه السلام	مصراع أبي الفضل عليه السلام	١٤٥
الثانية عشرة	الرَّحمة	طمعت أن تسومه القوم ضيمًا	السيد حيدر الحلي عليه السلام	مصراع القاسم عليه السلام	١٥٧
الثالثة عشرة	القناعة	راحل أنت والليالي نزول	الشریف الرضي عليه السلام	الحسين عند رأس أخيه العباس عليه السلام	١٦٧
الرابعة عشرة	الرضا بقضاء الله	يامن يلوم على البكاء عيوني	الشيخ حسن قفطان عليه السلام	أم البنين مع زينب عليها السلام	١٧٨
الخامسة عشرة	برّ الوالدين وعقوقهما	ماتَ التصبرُ بانتظارك	السيد حيدر الحلي عليه السلام	ليلي مع ولدها علي الأكبر عليه السلام	١٨٨
السادسة عشرة	صلة الرّحم	البدارَ البدارَ آل نزار	الشيخ عبد الحسين شكر عليه السلام	أبو الفضل عليه السلام والماء	٢٠٢
السابعة عشرة	وجوب	عش في	الحاج عبد	زينب والحسين عليهما السلام	٢١٤

		الحسين الأزري رحمته الله	زمانك ما استطعت نبيلاً	تنصيب الإمام	
٢٢٨	زينب والحسين عليهما السلام	السيد صالح السيد مهدي بحر العلوم رحمته الله	أروحك أم روح النبوة تصعد	سورة العصر	الثامنة عشرة
٢٤٤	قسوة قلوب أعداء الإمام الحسين عليه السلام	السيد رضا الهندي رحمته الله	سلام على الخوراء ما بقي الدهر	قسوة القلوب	التاسعة عشرة
٢٥٨	ليلي تدعو لولدها عليها السلام	دعبل الخزاعي رحمته الله	هم فتيّة مدارس آيات خلت من تلاوة	الدعاء الدعاء سلاح المؤمن	العشرون
٢٧٦	حبيب ومسلم بن عوسجة والإمام	السيد سليمان الحلي رحمته الله	أرى العمر في صرف الزمان	أنصار الله عزّ وجلّ	الحادية والعشرون
٢٩٠	حسد الناس لأمر المؤمنين عليهم السلام	محمد مهدي الجواهر رحمته الله	فداءً لمثواك من مضجعي	إحياء الموتى	الثانية والعشرون
٣٠٣	استغاثة السيدة زينب بإخوتها	الشيخ حسن قفطان رحمته الله	هيهات أن تجفو السهاد جفوني	مقومات الزعامة الإلهية	الثالثة والعشرون
٣١٥	ندبة زينب لأبيها عند شهادته عليها السلام	الشيخ صالح الكوّاز الحلي رحمته الله	الواثين لظلم آل محمد	ناقة الله	الرابعة والعشرون

٣٢٩	مواظ الإمام الحسين عليه السلام لأعدائه	الشافعي	تأوه قلبي والفؤاد كئيبٌ	أوهن البيوت	الخامسة والعشرون
٣٤١	زينب تنذب أمها الزهراء عليها السلام	الشيخ محمد بن شريف الكاظمي عليه السلام	ولزينب نوحٌ لفقد شقيقها	استدراج العصاة بالإحسان	السادسة والعشرون
٣٥٥	ترانيم الإمام الحسين عليه السلام مع خالقه	ابن حماد العبدي عليه السلام	لله ما صنعت فينا يدُ البين	الحياة الدنيا متاع الغرور	السابعة والعشرون
٣٦٧	مصرع عبد الله الرضيع عليه السلام	محمد السوسي عليه السلام والشيخ المنصور عليه السلام	أطيب عيشي بعد وقعة كربلاء	حسن الظن وسوء الظن	الثامنة والعشرون
٣٧٧	فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام والسبي	السيد مهدي القزويني عليه السلام	ولّى الشباب وأيام الصبا دُرست	الحسد	التاسعة والعشرون
٣٨٩	زينب تقرأ عزاء الإمام الحسين عليه السلام	السيد جعفر الحلي عليه السلام	الله أيُّ دمٍ في كربلا سفكا	معجزات الإمام الحسين عليه السلام	الثلاثون